جول فيرن

سيد العالم

رواية

فريق متميزون
E-BOOK

ترجمة : صفي الدين خاطر

مراجعة : محمد محمد القصاص

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الى نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق -متميزون-

<u>انضم الى الجروب</u>

<u>انضم الى القناة</u>

سيِّد العَالَم

رواية مترجمة..

ترجمة جديدة)

الكاتب: جول فيرن.

ترجمة: صفي الدين خاطر

مراجعة: محمد محمد القصَّاص

ما الآلة التي يمكنها أن تسير كأسرع سيَّارةٍ وتطير كأسرع طائرةٍ، وتُبحر كأسرع سفينةٍ، وتغوص كأمهر غوَّاصةٍ، ولا يستطيع أحدٌ أن يمسكها؟

كيف يمكن أن تجتمع كل هذه الصفات في آلهٍ واحدةٍ؟!

وليس هذا وحسب...

فمن الذي يمكن أن يملك هذه الآلة؟ دولةٌ؟ أم دولٌ؟ أم شخصٌ واحدٌ فقط؟ من سيد العالم هذا؟ وكيف اخترع هذه الآلة؟ وماذا يريد من اختراعه لها؟ وهل ينجح في تحقيق أغراضه؟

رواية شيقة ومسلية، تجمع بين المغامرة والبوليسية. تدور أحداثها في الولايات المتحدة الأمريكية، وتأخذنا عبر الولايات طولًا وعرضًا، حابسين أنفاسنا مع البطل الذي يطارد سيد العالم وآلته العجيبة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جول فيرن كاتب قصصي فرنسي عالم. وُلد في نانت عام 1828 وتُوفِي عام 1905.

كتب أكثر من ستين مؤلفًا، هي قصص تجري حوادثها في مختلف قارات العالم، وفي البحار، والمحيطات، والفضاء الكوني، والأراضي القطبية.

ومن أشهر مؤلفاته كتبه: حول العالم في ثمانين يومًا، وميشيل سترجوف، وعشرون ألف فرسخ تحت الماء...

وقد تنبأ وهو في القرن التاسع عشر بمخترعات لا تزال تعتبر إعجازًا إلى اليوم، وقد تحقق منها البعض، ولمَّا يتحقق البعض الآخر.

ويتميز جول فيرن بوحدة مؤلفاته، فكأنه قد رسم لنفسه، منذ أن بدأ التأليف، منهاجًا سار على هديه وأسعده الحظ بتحقيقه حتى بلغ الغاية.

وتحتوي قصصه وصفًا ممتعًا يتحلى بكل المعاني الحيوية المليئة بالإحساسات الإنسانية والمغامرات.

وطريقته واضحة بسيطة، يعرض بها النظريات العلمية في إطار جميل من الحوادث الروائية المستملحة الجذابة.

المترجم

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الأول

أحداث في الإقليم

هذه الصفوف من الجبال الموازية لشواطئ الأطلنطي الأمريكية والتي تمتد في كارولين الشمالية وفرجينيا وماريلاند وبنسلفانيا وولاية نيويورك تحمل اسمًا مزدوجًا من كلا الاسمين: جبال أليجانيس وجبال أبالاش. والحقيقة أنها سلسلتان مختلفتان من الجبال: جبال كمبرلاند في الغرب، والجبال الزرق في الشرق.

ومع أن هذه السلسلة الجبلية –وهي أكبر سلسلةٍ في ذلك الجزء من أمريكا الشمالية- يبلغ طولها تسعمائة ميل تقريبًا (أي ألف وستمائة كيلومتر)، فإن متوسط ارتفاعها ستة آلاف قدمٍ وأعلى قممها قمة واشنطن؛ إذ يبلغ ارتفاعها ألفًا وتسعمائة وثمانية عشر مترًا.

وهذا النوع من الجبال المنتصبة كالأعمدة التي يغوص أحد طرفيها في مياه الألاباما والآخر في مياه سانت لورنس، لا يجذب إلا عددًا قليلًا من هواة تسلق الجبال، فليس لقمتها العليا ذلك السحر الذي تمتاز به القمم الرائعة في جبال العالم القديم والحديث؛ ذلك أنها لا تبدو شامخة الجانب خلال الطبقات الجوية العليا. ومع ذلك فقد كانت هناك قمةٌ من قمم تلك الجبال لم يتأتَّ للسيَّاح أن يبلغوها وهي «جريت أيري»، وكانت تبدو كما لو كان الوصول إليها متعذرًا.

ولكن على الرغم من أن «جريت أيري» هذه ظلت مهملة من جانب عشاق تسلق الجبال حتى هذا الحين، فإنها كانت على وشك إثارة الاهتمام وبث القلق في جميع النفوس أيضًا، وذلك لأسباب خاصة لا بد لي من ذكرها في مستهل هذه القصة.

وإذا كنت أزج بشخصي في هذا المعترك، على مسرح الحوادث فذلك بسبب ارتباطي الوثيق -كما سترى- بحادث من أعجب الأحداث التي سيشهدها القرن العشرون دون ريب، حادث بلغ من غرابته أن جعلني أسائل نفسي أحيانًا عما إذا كان قد مر حقًّا على النحو الذي تمليه عليَّ ذاكرتي، أو بالأحرى على النحو الذي استقر في خيالي أم لا. وأيًّا ما كان الأمر، فقد كان من نصيبي أن أقوم بمغامرة لا يصدقها العقل، أوقعتني في عراك مع عديد من الأسرار التي تستعصي على التفسير؛ ولم يكن مما يثير الدهشة أن يقذف بي رؤسائي في هذه المغامرة؛ لأني كنت حينئذٍ أتولى منصب كبير مفتشي الشرطة في واشنطن، كما كان معروفًا عني، فوق ذلك، أن الاستطلاع غريزة كامنة في طبعي نمَّتها كثرة المران، وأني اشتركت في الكثير من مختلف المشاكل طول خمس عشرة سنة، وكثيرًا ما عُهد إليَّ بمهام سرية لما يتبين من كلفي بها. غير أنه من الضروري في بداية هذا الحديث، أيها القارئ، أن تصدقني ثقة منك في وعدي، فإني لا أستطيع أن أقدم دليلًا على صدق الأحداث الخارقة سوى شهادتي. وإذا لم يشأ أحد أن يصدقني فليكن، وله ما يريد، فلا حيلة لي في إقناعه.

تقع «جريت أيري» على وجه التحديد في بقعة من تلك الجبال الزرقاء الجميلة التي تطل على الجانب الغربي لكارولين الشمالية. ويستطيع المرء أن يميز شكلها المستدير لدى خروجه من قرية «مورجانتون» الصغيرة التي تقع على شاطئ نهر «ساتوبا»، وبصورة أوضح، إذا كان في قرية «بليزانت جادرن» التي تقرب منها ببضعة أميال أكثر من القرية الأولى.

وبعد فما هي، في نهاية الأمر، «جريت أيري» هذه «أي العش الكبير»؟ أتراها ينطبق عليها مدلول هذا الاسم الذي خلعه عليها سكَّان المقاطعات المجاورة للجبال الزرق؟ أما أن تكون هذه الجبال قد سُميت بالجبال الزرق بسبب شبحها الذي يصطبغ أحيانًا بلون الفيروز في ظروف جوية معينة، فهذا أمر طبيعيٌّ. وإذا كانوا أطلقوا على هذا المكان اسم «العش الكبير»، فهل تراهم فعلوا ذلك لأن الطيور الجارحة من نسور وصقور ورخاخ تأوي إليه؟ أذلك لأنها المسكن الذي اختاره كبار الطير في هذه المنطقة بوجه خاص؟ أتراهم يرونها تحلق جماعات متصايحة فوق هذا المأوى الذي لا يبلغه سواها؟ كلا في الحقيقة؛ فإن الطيور التي تأوي إلى هذه القمة لا تزيد عن أمثالها فوق قمم جبل أليجانيس الأخرى عددًا، بل إن الأمر على العكس من ذلك، فقد لُوحظ في بعض الأيام أن هذه الطيور لا تكاد تقترب من «العش الكبير» «جريت أيري»، حتى تبدي حرصها على الإسراع بالهرب منها، وبعد أن تحوم حولها عدة مرات، تنطلق في كل حدب وصوب وهي تملأ الفضاء بصراخ يصم الآذان.

فلم سميت هذه القمة، إذنْ، «جريت أيري»؟ ألم يكن من الأفضل أن تُسمَّى بحلقة السيرك كأمثالها من الأماكن التي تقابلها في كل المناطق الجبلية؟ فالواقع أن الجوانب العالية التي تكتنفها لا بد أن تخفي وسطها فجوة واسعة عميقة، -ومن يدري- لعل هذه الفجوة تحولت إلى بحيرة صغيرة أو بركة يغذيها بالماء تساقط الأمطار وذوبان ثلوج الشتاء. فمثل هذه البحيرات تتناثر في مواضع عديدة وعلى مرتفعات مختلفة في سلسلة جبال أبالاش، وكما هي الحال في مجموعات الجبال المتفرقة في العالم القديم والعالم الجديد. وإذا كان الناس قد اصطلحوا على تسمية القمم المماثلة باسم حلقة السيرك، أفليس الأولى أن تُسجَّل هي الأخرى تحت هذا الاسم في سجل المصطلحات الجغرافية؟

وقد يتساءل الإنسان في ختام هذه الفروض عما إذا كانت هناك في رأس هذه القمة فوهة بركان، وأن يكون هذا البركان قد خمد، وقد توقظه اضطراباته الداخلية يومًا من الأيام؟ وهل ينبغي للمقيمين في جواره أن يخشوا من جانبه شرور بركان «كراكاتوا»، أو شنائع بركان «منتاني بيليه»! وإذا سلمنا بوجود بركة من المياه، أفلا يُخشى من تسرب مياهها إلى جوف الأرض، وتبخرها بالحرارة الداخلية وحدوث انفجار يهدد منطقة سهول كارولين كما حدث عام 1902 لسهول مارتينيك؟

ومما يؤيد هذا الفرض الأخير أن بعض الظواهر التي لُوحظت حديثًا تشير إلى أن حدوث البخار يرجع إلى نشاط أرضي باطني، بل لقد حدث ذات مرة أن كان الفلاحون يعملون في القرية فإذا بهم يسمعون أصواتًا باطنية لا يُعرف كنهها.

وظهرت ألسنة من اللهب خلال الليل.

وراحت الأبخرة تخرج من داخل «جريت أيري»، وعندما حولت الرياح اتجاهها ناحية الشرق خلَّفت على الأرض خطوطًا من الرماد أو السناج، وفي جوف الظلام كان ذلك اللهب الشاحب، الذي عكسته السحب المنخفضة، قد نشر في المنطقة نوعًا من الضوء المريب.

ولم يكن مما يثير الدهشة أنْ عَمَّ المنطقة كلها قلق شديد بسبب تلك الظواهر الطبيعية الغريبة، قلق اقترن بالحاجة الملحة إلى معرفة كنهها. فلم تكف صحف كارولين عن لفت النظر إلى هذا الذي سمته «أسرار «جريت أيري»»، وأخذت تتساءل عما إذا لم تكن الإقامة بجوار تلك البقاع من الخطورة بمكان عظيم.. كانت مقالاتها تثير الاستطلاع وتثير المخاوف في آن واحد: الاستطلاع لدى من تهمهم دراسة الظواهر الطبيعية دون أن يعرضوا أنفسهم لأي خطر، والرعب لدى أولئك الذين كان من المحتمل أن يروحوا ضحية تلك الظواهر إذا ما هددت المنطقة المحيطة بها. وكانت غالبية هؤلاء من سكَّان البلدتين الصغيرتين «بليرانت جاردن» و«مورجانتون» وبعض القرى أو المزارع الصغيرة التي يقطنها عدد لا بأس به من السكَّان بجوار سلسلة جبال «أبالاش».

وقد كان من المؤسف حقًّا أن متسلقي الجبال لم يحاولوا حتى ذلك الحين أن يصلوا إلى «جريت أيري»؛ ذلك أنه لم يكن قد تأتَّى لأحد أن يخترق هذا الإطار الصخري الذي يحيط بها، ومن يدري، فربما لم تكن تؤدي إلى داخله.

ومع ذلك، ألم تكن هناك على بعد قليل من «جريت أيري» بعض المرتفعات، من المخروطات والقمم التي تشرف عليها وتسمح لمن يقف فيها بإلقاء نظرة عامة على كل هذه المنطقة؟ كلا.. فالواقع أنه لم يكن هناك على بعد عدة كيلومترات منها بقعة تجاوزها ارتفاعًا، وكانت قمة «ولنجتون»، وهي إحدى القمم العالية لسلسلة جبال «أليجانيس» على بُعد كبير جدًّا منها.

ومع ذلك، فإن الأمر كان يقتضي القيام بكشف كامل «لجريت أيري» هذه؛ إذ كان من الضروري -حرصًا على مصلحة المنطقة- معرفة ما إذا كانت تحتوي على فوهة بركان، وما إذا كانت هناك ثورة بركانية تهدد تلك المنطقة الغربية لكارولين؛ كان لا بد إذَنْ من محاولة الوصول إليها وتحديد سبب تلك الظواهر الملاحظة.

ولكن قد حدث قبل القيام بتلك المحاولة التي لم يكن أحد يجهل ما يكتنفها من صعوبات أن طرأ ظرف كان من الممكن أن يسمح بمعرفة التخطيط الداخلي «لجريت أيري» دون الصعود إليها.

ففي الأيام الأولى من سبتمبر من ذلك العام، كان من المقرر أن يغادر «مورجانتون» منطاد يقوده الطيار «ويلكر»، فلو أن البالون استطاع الاستفادة من الرياح الخفيفة الآتية من الشرق لاندفع ناحية «جريت أيري»، ولكانت لديه فرص للمرور فوقها. ولو أصبح منها على ارتفاع بضع مئات من الأقدام، لتمكن «ويلكر» من فحصها بمنظار ثاقب، ولاحظ أعماقها، وعرف ما إذا كانت هناك فوهة بركان بين صخورها العليا أم لا. وكان هذا في الواقع أهم ما في الأمر. إذ لو تم ذلك لأمكن معرفة ما إذا كان هناك خطر يهدد المنطقة المحيطة بها بوابل الحمم البركانية في المستقبل القريب أو البعيد.

وصعد المنطاد تبعًا للخطة الموضوعة. وكانت الريح خفيفة منتظمة، والسماء صافية، وقد بددت أشعة الشمس الحارة ضباب الصباح. فإذا لم يكن جوف «جريت أيري» مغطى بالغيوم، أمكن لقائد المنطاد أن يفحصه بعينه من جميع جوانبه؛ أما إذا كانت الأبخرة تنبعث منه، فلم يكن ذلك ليغيب عن ملاحظته. وفي هذه الحال،

يجب التسليم بوجود بركان في ذلك الموضع من الجبال الزرق، جعل من «جريت أيري» فوهة له.

وصعد البالون أول الأمر إلى ارتفاع ألف وخمسمائة قدم، وظل ساكنًا لمدة ربع ساعة، فقد كانت الرياح منعدمة عند هذا الارتفاع، بينما كانت تهب على سطح الأرض. ولكن لم يلبث المنطاد أن وقع لسوء الحظ تحت تأثير تيار جوي جديد، فسار في اتجاه الشرق؛ وهكذا أخذ يبتعد عن السلسلة... ولم يعد ثمة رجاء في أن يعود إليها. وبعد قليل، رآه سكَّان القرية وهو يختفي عن أبصارهم، ثم علموا أنه هبط أخيرًا في ضاحية من ضواحي «رالي» في كارولين الشمالية.

ولما لم تنجح هذه المحاولة، انعقد العزم على استئنافها في ظروف أفضل؛ ذلك لأنه قد انبعثت من جديد أصوات غامضة تصحبها أبخرة سود كثيفة، وأضواء مرتجفة كانت تعكسها السحب. لذلك لم يكن من المستطاع أن يهدأ القلق، وظلت البلاد مهددة بظواهر زلزالية أو بركانية...

ولكن، حدث في الأيام الأولى من شهر أبريل من ذلك العام أن قامت بواعث هامة جعلت المخاوف التي كان يشوبها الغموض حتى ذلك الحين تنقلب إلى ذعر وهلع. وفي الحال رددت صحف المنطقة صدى ذلك الرعب العام، وأصبحت جميع المنطقة المحصورة بين سلسلة الجبال وقرية «مورجانتون» تخشى وقوع ثورة وشيكة.

ففي ليلة الخامس من أبريل استيقظ سكَّان «بليزانت جاردن» على أثر هزة، أعقبها صوت رهيب، فهبُّوا في حالة هرج ومرج لا تقاوم، إذ جال بخاطرهم أن ذلك الجزء من السلسلة قد انهار. وخرج السكَّان من منازلهم، واستعدوا للهرب، خوفًا من أن تنفتح هوة ساحقة، تبتلع المزارع والقرى على مدى عشرة أميال أو خمسة عشر ميلًا. وأمسى الليل حالك الظلمة؛ إذ تغطت السهول بسحب داكنة، وأصبح من المستحيل رؤية سلسلة الجبال الزرق حتى في وضح النهار.

وكان من العسير على المرء، وسط ذلك الظلام الدامس، أن يميز شيئًا، أو أن يجيب على الصيحات، التي كانت تعلو في كل مكان، وأخذت الجماعات المذعورة من الرجال والنساء والأطفال تحاول الاهتداء إلى الطرق المعبدة وتتدافع في جلبة شديدة. ومن هنا وهناك كانت تُسمع أصوات مذعورة تقول:

- إنه زلزال!

- إنه ثوران بركان!

- من أين أتى يا ترى؟

- من «جريت أيري»...

ولقد وصل النبأ حتى «مورجانتون» بأن الأحجار والحمم تمطر الريف بوابلها..

كان من الممكن أن يُلاحظ -على الأقل- أنه لو كان قد حدث ثوران بركاني حقًّا لسمعت أصوات تصدعات الصخور، ولظهرت ألسنة اللهب على قمة السلسلة، ولأمكن مشاهدة الحمم المنصهرة تهبط في الظلام. ولكن هذا الخاطر لم يدُرْ ببال أحد، وكان أولئك المذعورون يؤكدون أن منازلهم قد أحست بهزات الأرض. وعلى

كل حال كان من المستطاع أن تكون تلك الهزات قد نتجت عن سقوط كتلة صخرية، انفصلت عن جوانب السلسلة.

وقد بقي الجميع فريسة لقلق مميت، وعلى أهبة الاستعداد للهرب إلى «بليزانت جاردن» أو «مورجانتون».

ومضت ساعة دون حدوث عارض آخر، اللهم إلا هبوب نسيم غربي اصطدم بالحاجز الطويل لجبال أبالاش، ودلت عليه اهتزازات الأوراق الخشنة لتلك الأشجار المخروطية الكثيفة في أغوار المستنقعات.

لم يحدث إذَنْ ما يثير الذعر من جديد، واستعد كل فرد لأن يعود إلى منزله. لقد كان يبدو أنه لم يعد هناك ما يُخشى منه، ومع ذلك قد كان الجميع يتمنون طلوع النهار.

لم يكن هناك إذَنْ مجال للشك في أن ما حدث لم يكن إلا انهيارًا للصخور، وأن كتلة ضخمة قد هوت من مرتفعات «جريت أيري»، وقد يكون من السهل التأكد من ذلك عند انبثاق نور الفجر، إذا ما سار الإنسان بمحاذاة السلسلة لبضعة أميال.

ولكن، حوالي الساعة الثالثة صباحًا، حدث إنذار جديد، فقد ظهرت ألسنة اللهب فوق الإطار الصخري، وقد عكستها السحب فأضاءت الفضاء على مدى شاسع، وفي نفس الوقت كانت تُسمع ضوضاء تشققات.

فهل كان ذلك حريقًا مفاجئًا اندلع في ذلك المكان؟ وإلى أي سبب يُعزى ذلك الحريق إذا كان قد حدث فعلًا؟ لم يكن من المستطاع أن تكون نيران السماء هي التي عملت على إشعاله، إذ لم تحدث أي صاعقة. نعم، إنه لو حدث لما أعوزه الوقود، فسلسلة جبال «أليجانيس» عامرة بالأخشاب، بالرغم من هذا الارتفاع سوءًا أكان ذلك على جبال «كمبر لاند»، أم على «الجبال الزرق»، حيث تنمو هناك أشجار السرو واللتانيا وغيرها من الأشجار ذات الأوراق الدائمة التي تصلح للوقود.

- ثوران البركان! ثوران البركان!

تلك هي الصرخات التي كانت تسمع من كل الجهات. ثوران البركان! ومعنى ذلك أن «جريت أيري» ليست إذَنْ سوى فوهة بركان استقر في جوف السلسلة. ولكن هل عاد يا ترى ذلك البركان إلى ثورانه، بعد أن ظل خامدًا سنين طويلة، بل منذ قرون عديدة؟ وهل سيصحب اللهب وابل من الأحجار المشتعلة والقذائف البركانية الملتهبة؟ وهل لن تلبث الحمم أن تتساقط، وتنهار كتل الصخور الضخمة من الجبال؟ أو تجري سيول من نار تحرق كل ما يقابلها، وتدمر البلدان والقرى والمزارع، أعني كل ذلك الإقليم الفسيح بسهوله وحقوله وغاباته، إلى ما وراء حدائق «المتعة» أو «مورجانتون»؟

وفي هذه المرة ساد الرعب، ولم يكن في وسع أي شيء أن يوقفه، فقد أخذ النساء، وقد استبد بهن جنون الهلع، يجررن أولادهن، ويندفعن في الطرق المؤدية إلى الشرق، ليبتعدن بأسرع ما يستطعن عن ميدان تلك الاضطرابات الأرضية. وعمد كثير من الرجال إلى إخلاء منازلهم، فراحوا يحزمون أثمن ما يملكون في حزم، ويطلقون سراح ما لديهم من حيوانات أليفة كالخيل والدواب والخراف التي انطلقت تهيم في كل اتجاه.. ولك أن تتخيل مدى الفوضى التي نجمت عن تلك الحشود من بني الإنسان والحيوان وهي تتدافع في جنح الظلام خلال تلك الغابات، معرضة

لنيران البركان، وتهرول بحذاء تلك المستنقعات التي تهدد مياهها بالطفح في أي لحظة!؟ أو لم تكن الأرض نفسها تهدد أولئك الفارين بأن تميد من تحت أقدامهم؟ وهل كان في مقدورهم أن يجدوا من الوقت ما يكفيهم للنجاة بحياتهم لو سالت على الأرض موجة من الحمم المنصهرة، فقطعت عليهم الطريق، وجعلت كل هرب أمرًا مستحيلًا!

ومع ذلك، فقد كان ثمة عدد من كبار ملاك المزارع أكثر تعقلًا وتدبيرًا، فلم يندمجوا في ذلك الحشد المذعور، بعدما حاولو عبثًا أن يكبحوا جماحهم.

وقد خرج هؤلاء حتى مدى ميل من السلسلة لمتابعة ما يجري، فلاحظوا أن وميض اللهب أخذ يتناقص، ومعنى ذلك أنه قد يتلاشى في النهاية.. لم يكن هناك في الواقع ما يدل على أن بركانًا يهدد المنطقة بثورانه، إذ لم يلاحظ أحد أنه قد قذف بحجر واحد في الفضاء، أو أن سيلًا واحدًا من سيول الحمم البركانية قد سقط من منحدرات الجبل، كما لم يحدث أي اضطراب في جوف الأرض، أو ما يدل على وقوع إحدى تلك الاضطرابات الزلزالية التي قد تقلب إقليمًا بأجمعه رأسًا على عقب في لحظة واحدة.

ذلك ما لُوحظ، وقد كانت ملاحظة صادقة حقًّا: لقد أخذت قوة النار تتناقص داخل «جريت أيري»، وأخذ انعكاس الضوء على السحب يضعف شيئًا فشيئًا، ورُئي أن القرية سوف تغرق بعد قليل في ظلام دامس حتى الصباح.

وفي هذه الأثناء، كانت حشود الفارين قد توقفت على مسافة تجعلها في مأمن من كل خطر. ثم اقتربت، وعاد بعضها إلى قراه ومزارعه قبل انبثاق نور الصباح.

وحوالي الساعة الرابعة، كانت أطراف «جريت أيري» لا تصطبغ إلا بانعكاسات ضوئية ضعيفة، وكان الحريق يوشك أن ينطفئ، لعدم وجود الوقود الكافي في أغلب الظن. وعلى الرغم من أنه لم يكن في الإمكان حتى الآن معرفة سبب الحريق، فقد كان كل ما يُرجى هو ألا يعود مرة أخرى.

وعلى كل حال، لقد بدا من المحتمل أن «جريت أيري» لم تكن أبدًا مسرحًا لظواهر بركانية، وصار من الواضح إذَنْ أن سكَّان المناطق المجاورة لها لم يكونوا مهددين بثورة بركانية، أو زلزال.

بيد أنه حدث حوالي الساعة الخامسة صباحًا، أن سُمع فوق قمم تلك الجبال، التي كانت لا تزال غارقة في ظلام الليل، صوت غريب من خلال طبقات الجو... نوع من الحشرجة المنتظمة، مصحوبة بضربات أجنحة قوية. ولو كان الوقت نهارًا، لربما تأتَّى لسكَّان المزارع والقرى أن يروا طائرًا مفترسًا عملاقًا يعبر المكان، وحشًا من وحوش الهواء يغادر «جريت أيري»، ويتجه ناحية الشرق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني

في «مورجانتون»

في 27 أبريل، وصلتُ إلى «رالي»، وهي المدينة الرئيسة في ولاية كارولين الشمالية، وكنت قد غادرت واشنطن في اليوم السابق.

وقبل ذلك بيومين، كان مدير عام الشرطة قد استدعاني إلى مكتبه. وكان رئيسي هذا ينتظرني في شيء من القلق. وهذا هو الحديث الذي جرى بيننا وأدى إلى رحيلي:

فقد استهل كلامه قائلًا:

- جون ستروك، أأنت لا تزال رجل الشرطة الفطن المخلص، الذي أثبت لنا فطنته وإخلاصه في كثير من المناسبات؟

فأجبته بانحناءة:

- سيدي وارد، لست أنا الذي أؤكد لكم أنني لم أفقد شيئًا من فطنتي.. أما بالنسبة لإخلاصي فأستطيع أن أصرح بأنني محتفظ به دائمًا لكم كاملًا غير منقوص...

فاستأنف السيد وارد قائلًا:

- إني لا أشك في ذلك، وهأنذا أوجه لك سؤالي بشيء من الدقة: ألا تزال ذلك الرجل المحب للاستطلاع، الراغب في أن يكشف أغوار حدث غامض، على نحو ما عرفت عنك حتى الآن؟

- دائمًا يا سيد وارد.

- وتلك الغريزة، غريزة الاستطلاع، ألم يضعفها فيك ذلك التعود الوتير الذي جعل منها مجرد عادة رتيبة...

- كلا بالمرة.

- إذَنْ أَصْغِ إليِّ يا ستروك.

وكان السيد وارد في ذلك الوقت وهو في الخمسين من عمره، في شدة الذكاء، ويلم إلمامًا تامًّا بمهام وظيفته. وقد سبق له مرارًا أن عهد إليِّ بمهام صعبة خَرجتُ منها بفوائد جمة حتى في السياسة، وقد حاز إنجازي لتلك المهمات حسن تقديره. على أنه كانت قد انقضت بضعة أشهر ولم تسنح لي الظروف أن أستأنف نشاطي، وكان ذلك الفراغ مؤلمًا على نفسي، لذلك كنت أنتظر بلهفة ذلك العمل الذي أراد أن يكلفني به السيد وارد. وما كنت أعتقد أن سيعهد إليَّ القيام بعمل خطير.

وهذا ما استدعاني من أجله رئيس الشرطة... إنه موضوع كان في ذلك الوقت يشغل الرأي العام، لا في كارولين الشمالية والولايات المجاورة لها فحسب، ولكن في جميع أنحاء أمريكا. وقال لي:

- إنك لا تجهل بالطبع ما يجري من أحداث في أحد أجزاء جبال «أبالاش» بالقرب من قرية «مورجانتون»؟

وأجبته:

- نعم يا سيد وارد، في رأيي أن من شأن تلك الظواهر الفريدة أن تثير الاستطلاع، حتى عند من ليسوا في مثل فضولي.

- ليس هناك أدنى شك يا ستروك في أنها فريدة في نوعها وغريبة أيضًا، ولكن هناك ما يدعونا إلى التساؤل عما إذا كانت تلك الظواهر الملاحظة في «جريت أيري» لا تشكل خطرًا على سكّان تلك المنطقة، أو أنها ليست نذرًا بحدوث ثورة بركانية، أو زلزال...

- إن هذا ما يُخشى منه يا سيد وارد...

- وإذَنْ فمن المصلحة، يا ستروك، أن نعرف جلية الأمر. وإذا كنا عاجزين عن مواجهة ذلك الحدث الطبيعي، فلا أقل من أن ننبئ من يهمهم الأمر –في الوقت المناسب- بالخطر الذي يهددهم.

فأجبته:

- هذا واجب السلطات يا سيد وارد، يجب التحقق مما يحدث هناك..

- هذا حق، يا ستروك.. ولكن يبدو أن الأمر تكتنفه عقبات جسيمة؛ لأننا نسمع دائمًا أهل البلاد يقولون إنه من المستحيل اقتحام صخور «جريت أيري» والوصول إلى داخلها.. ولكن هل سبق لأحد أن حاول القيام بتلك المهمة في ظروف تمهد له النجاح؟ إني لا أعتقد ذلك؛ ولهذا فإني أرى أنه لو كانت هناك محاولة جادة لأمكن أن تأتي بنتائج طيبة.

- لا شيء يستحيل يا سيد وارد، ولكن يبدو أن الصعوبة في النفقات.

- إنها نفقات لها ما يبررها يا ستروك، ولا يجوز الوقوف عندها إذا كان الأمر يتعلق بتوفير الطمأنينة لسكّان إقليم بأجمعه، أو إذا كان الأمر يتعلق بإنذارهم فيتمكنون من تجنب كارثة تحدق بهم.. ولكن هل من المؤكد يا ترى أنه لا يستطيع أحد أن يخترق نطاق «جريت أيري» كما يزعمون؟ ومن يدري، فربما تكون هناك عصابة من الأشرار، جعلت من ذلك المكان مأوى لها، وتصل إليه بطرق لا يعرفها أحد سواها؟...

- ماذا! هل تشك يا سيد وارد في أن أشرارًا...

- قد أكون مخطئًا يا ستروك، وقد يكون كل ما يحدث هناك راجعًا إلى أسباب طبيعية... وهذا ما نريد تحديده بالضبط في أقصر وقت ممكن.

- هل لي من سؤال يا سيد وارد؟

- تفضل يا ستروك؟

- إذا ما توصلنا إلى الدخول في «جريت أيري»، وعلمنا سبب تلك الظواهر، وعرفنا أن هناك فوهة بركان، وكان على وشك الثوران، فهل يمكننا تجنبه؟

- لا يا ستروك؛ ولكن يمكننا أن نخطر سكّان المنطقة؛ وسيعلم سكّان القرى حقيقة الأمر، وبذلك لا يفاجأون وهم في مزارعهم. فمن يدري؟ فقد يكون هناك في جبال «أليجانيس» بركان يعرض كارولين الشمالية لنفس الكوارث التي تعرضت لها «مارتينيك» تحت نيران «لا منتاني بيليه»؟! وأقل ما يجب هو أن يكون كل هؤلاء السكّان في مأمن من الخطر...

- إنني يا سيد وارد أميل إلى الاعتقاد بأن المنطقة لا تواجه مثل هذا الخطر...

- أرجو ذلك يا ستروك، كما أنه يبدو أن وجود بركان في ذلك الجزء من الجبال الزرق أمرًا بعيد الاحتمال؛ إذ إن سلسلة جبال «أبالاش» ليست ذات طبيعة بركانية... ولكن التقارير التي وصلتنا تقول إنه قد شُوهدت نيران صاعدة من «جريت أيري». ويعتقد الناس أنهم أحسوا، لا أقول بزلزال بل -على الأقل- بهزات في خلال القشرة الأرضية وصل أثرها حتّى قرب «بليزانت جاردن»... فهل يا ترى هذه الوقائع حقيقية أم خيالية؟ من الأوفق التثبت من ذلك..

- هذا عين الفطنة والعقل يا سيد وارد، ولا يجوز الانتظار...

- نعم، لذلك قررنا يا ستروك، أي نجري بحثًا دقيقًا لمعرفة ما يجري في «جريت أيري». ولا بد أن يتوجه شخص ما، في أقرب فرصة، إلى ذلك الإقليم ليجمع المعلومات، ويستجوب سكَّان الضياع والمزارع. ولقد اخترنا لتلك المهمة مندوبًا يعتبر خير ضمان لنا في هذا العمل.. وهذا المندوب هو أنت يا ستروك...

فصحت قائلًا:

- بكل سرور يا سيد وارد. وثق أنني لن أقصر في شيء في سبيل الحصول على رضاكم كاملًا.

- أعرف ذلك يا ستروك، وأضيف أن تلك المهمة لا بد أنها تلائمك.

- أكثر من كل المهام، يا سيد وارد.

- وستكون فرصة جميلة لك لكي تباشر، بل وأتمنى، لكي تشبع تلك الغريزة الخاصة التي هي جوهر مزاجك.

- إن الأمر كما تقول.

- ثم إنه سيكون لك مطلق الحرية في أن تعمل وفق الظروف..

أما عن النفقات التي تلزم في حالة تنظيم مشروع للتسلق والتي لا بد أن تكون جسيمة، فسيكون لك فيها مطلق التصرف.

- سأبذل كل ما وسعي يا سيد وارد، ويمكنك أن تعتمد عليَّ.

- والآن، يا ستروك، أوصيك بالعمل في حذر شديد وأنت تجمع المعلومات من البلاد... فالنفوس لا تزال هناك ثائرة هائجة... لا تُسلِّمْ بكل ما يقال لك، وتجنب ما أمكن إحداث ذعر جديد.

- لك ما تريد.

- وسأرسلك بخطاب اعتماد إلى عمدة «مورجانتون»، الذي سيعمل باتفاق معك... ومرة أخرى، كن حذرًا يا ستروك... ولا تشرك في تحقيقك إلا من ترى أنك في حاجة ماسة إليهم. لقد ثبت لنا ذكاؤك ومهارتك في كثير من المناسبات، وإنا لواثقون من نجاحك، هذه المرة أيضًا...

- إذا لم يُقدَّر لي النجاح يا سيد وارد، فمعنى ذلك أن هناك استحالات قاطعة قد تعترض طريقي، فمن المحتمل مثلًا أن يكون من المستحيل اقتحام مدخل «جريت أيري»، وفي هذه الحالة...

- في هذه الحالة، سنفكر في ما يجب عمله. ولكني أكرر لك أننا نعرف أنك، بحكم مهنتك وبفضل غريزتك، أكثر الناس استطلاعًا، ولذلك نرى أن هذه فرصة هائلة

لإشباع فضولك.

نعم، لقد كان السيد وارد ينطق بالحقيقة.

وحينئذ سألته قائلًا:

- متى يجب عليَّ أن أرحل؟

فأجاب:

- منذ الغد.

- غدًا، سأكون قد غادرت «واشنطن».. وبعد غد، سأكون في «مورجانتون».

- وستوافيني بالأخبار أولًا بأول عن طريق البريد أو بالبرق.

- لن يفوتني ذلك يا سيد وارد... وإني إذ أستأذنك في الانصراف، أكرر لك شكري لاختيارك إياي للقيام بهذا التحقيق الخاص بموضوع «جريت أيري».

ولكن كيف كان يمكنني أن أشك فيما كان يخبئه لي المستقبل!

عدت في الحال إلى منزلي حيث قمت بإعداد لوازم السفر. وفي اليوم التالي كنت أستقل القطار السريع، لدى انبثاق الفجر إلى عاصمة كارولين الشمالية.

ووصلت في نفس المساء إلى «رالي» حيث أمضيت الليل، وفي اليوم التالي، بعد الظهر، كان القطار الذي يسير في الجزء الغربي من الولاية يقف بي في «مورجانتون».

وليست «مورجانتون» في الواقع، إلا قرية صغيرة. ولما كانت مشيدة على أرض جبلية غنية بالفحم على وجه الخصوص، كان استغلال هذه المناجم فيها يجري بنشاط كبير. وهناك أيضًا تتفجر مياه معدنية وافرة تجذب العدد الكبير من مستهلكيها إلى المنطقة أثناء فصل الربيع. والحاصلات الزراعية وافرة حول «مورجانتون»، فالفلاحون يستثمرون بكل نجاح حقول الحبوب القائمة بين المستنقعات العديدة المليئة بالغاب.

أما الغابات ذات الأشجار الدائمة الخضرة فعديدة. ولا ينقص المنطقة إلا النفط (البترول)؛ ذلك المنبع الذي لا يغيض معينه للقوة المحركة والنور والحرارة، والذي يوجد بوفرة في معظم وديان «أليجانيس».

وكان لتركيب التربة ووفرة حاصلاتها أثرهما في كثرة عدد السكَّان في ريف المنطقة. فالقرى والمزارع الغاصة بالحشود تمتد حتى سفح سلسلة جبال «أبالاش»؛ متقاربة بين الغابات، متباعدة كلما قربت من التفرعات الأولى لسلسلة الجبال.

لقد كان هناك إذَنْ الآلاف من السكَّان المهددين تهديدًا خطيرًا لو أن «جريت أيري» كانت فوهة بركان، وغطى ثورانه المنطقة بالحمم والرماد، وغزت سيول تلك الحمم الحقول والمزارع، وامتدت هزات الزلازل حتى مدخل «بليزانت جاردن» و«مورجانتون».

وكان السيد إلياس سميث، عمدة مورجانتون، رجلًا طويل القامة قوي البنية جسورًا يبلغ الأربعين من عمره على أكثر تقدير، يتمتع بصحة تتحدى جميع أطباء الأمريكتين، لا يحفل ببرودة الشتاء وحرارة الصيف، وهما في بعض الأحيان شديدتان في كارولين الشمالية. وكان صيادًا ماهرًا، ولكن فرائسه لم تكن فقط من

تلك الحيوانات ذات الشعر أو ذات الريش، التي تنتشر في السهول المجاورة لجبال «أبالاش»، وإنما كان يهاجم قطعان الدب والبير التي توجد بكثرة خلال أشجار السرو الكثيفة وفي المضايق الموحشة لسلسلتي جبال «أليجانيس».

وكان إلياس سميث من ملاك الأرض الأثرياء، فهو يمتلك عدة مزارع بالقرب من «مورجانتون»، ويستثمر بعضها بنفسه. كان دائم الزيارة لمزارعه حيث يمضي فيها كل الوقت الذي لا يقضيه في القرية، ليباشر هواية الصيد، مدفوعًا بغرائز هذه الهواية المتغلغلة في نفسه.

توجهت بعد الظهر إلى منزل إلياس سميث، وكان قابعًا هناك في ذلك اليوم، إذ كان قد تلقى برقية تنبئه بزيارتي. وسلمته خطاب السيد وارد الذي قدمني إليه فيه، وأوصاه بي خيرًا، فكان أن تعارفنا سريعًا.

وقد استقبلني عمدة مورجانتون في صراحة تامة، وبغير كلفة. وكان غليونه في فمه، وكأس البراندي أمامه على المائدة. وما لبثت الخادمة أن أحضرت كأسًا أخرى، وكان عليَّ أن أجاري مضيفي قبل أن نبدأ الحديث.

قال لي في بشاشة: لقد أرسلك السيد وارد، حسنًا، دعنا أولًا نشرب نخب السيد وارد.

وكان لا بد لنا أن نتقارع الكؤوس ونفرغها في جوفنا تحية لمدير عام الشرطة.

وسألني إلياس سميث:

- والآن، ما هو الموضوع؟

عندئذ أخبرت عمدة «مورجانتون» بالباعث وبالهدف من إرسالي إلى هذه المنطقة من كارولين الشمالية. وذكرته بالأحداث، أو بالأحرى بالظواهر الطبيعية التي كانت تلك المنطقة مسرحًا لها، وذكرت له –وقد اقتنع- إلى أي مدى يجب علينا أن نطمئن سكَّان المنطقة أو على الأقل أن نحذرهم. وقد صرحت له بأن السلطات تهتم اهتمامًا كبيرًا بتلك الأمور، وتريد أن تعالج الموقف بقدر ما في استطاعتها. وأخيرًا، أخبرته بأن رئيسي قد أعطاني مطلق التصرف للقيام بسرعة وبطريقة فعالة بإجراء تحقيق في شأن «جريت أيري». وقلت له إنه لا يجب أن أتراجع أمام أي عقبة أو أي نفقات ما دامت الوزارة هي التي ستتحمل جميع المصروفات التي تتطلبها مهمتي.

وكان إلياس سميث يستمع إليَّ دون أن يتفوه بكلمة واحدة، ولكنه كان أثناء الحديث يملأ كأسي وكأسه كلما فرغتا. لم يتطرق أي شك إلى نفسي وهو يصغي إليَّ من خلال دخان غليونه، لقد كنت أرى ملامح وجهه تتغير بين آونة وأخرى، وعيناه تلمعان تحت حواجبه الكثيفة. وكان جليًّا أن حاكم «مورجانتون» كان قلقًا لما كان يدور في «جريت أيري»، ولم يكن أقل رغبة مني في اكتشاف سبب تلك الظواهر.

وعندما انتهيت من حديثي بقي إلياس سميث صامتًا برهة، وهو يحدق في وجهي، ثم قال:

- أيريدون حقًّا في واشنطون أن يعرفوا ما تحتويه «جريت أيري» في جوفها؟

فأجبته:

- نعم يا سيد سميث.

- وأنت أيضًا؟

- هذا هو الواقع!

- وأنا أيضًا يا سيد ستروك!

وهكذا اتفقت أمزجتنا تمامًا؛ فقد كان عمدة «مورجانتون» محبًّا للإطلاع مثلي.

ثم قال وهو يفرغ رماد غليونه:

- أعتقد أنك تدرك أن حكايات «جريت أيري» تهمني بصفتي من أصحاب الأملاك. أما بوصفي عمدة، فيجب عليَّ أن أهتم بأحوال من أسوس أمورهم.

فأجبته:

- هذان سببان وجيهان يا سيد سميث، وجديران بحملك على البحث عن سبب تلك الظواهر التي قد تقلب المنطقة رأسًا على عقب. وأغلب الظن أن تلك الظواهر تبدو غامضة في نظرك بقدر ما تقض مضاجع سكَّان الإقليم.

- إنها على الأخص غامضة لا تفسير لها يا سيد ستروك، فأنا شخصيًّا لا أعتقد أن «جريت أيري» فوهة بركان ما دامت سلسلة جبال «أليجانيس» ليست بركانية في أي موضع منها. إذ لا توجد في أيّ مكان منها آثار رمال، أو قذائف، أو حمم، أو أي مواد بركانية أخرى، لا في مضايق «كمبرلاند» ولا في وديان «الجبال الزرق»، أو في أيّ مكان آخر. لذلك فإني لا أظن أن منطقة «مورجانتون» مهددة بالخطر من هذه الوجهة.

- هذا هو رأيك يا سيد سميث؟

- نعم، بالتأكيد.

- إذَنْ ما رأيك في تلك الهزات التي يشعر بها سكَّان المناطق المجاورة لتلك السلسلة من الجبال؟

فراح السيد سميث يردد قوله وهو يهز رأسه:

- ... تلك الهزات!... تلك الهزات!

ثم قال:

- ولكن هل من الثابت أنه كان هناك هزات؟ لقد كنت بالتحديد في أثناء ظهور ذلك اللهب المخيف، في مزرعتي في «ويلدون»، أعني على بعد أقل من ميل من «جريت أيري». وإذا كانت قد حدثت في الفضاء ضوضاء ذات طابع خاص، فإنني لم ألحظ أي اهتزازات لا على سطح الأرض ولا بداخلها.

- ومع ذلك، فإنه، بناء على التقريرات المرسلة إلى السيد وارد..

فسارع عمدة مورجانتون قائلًا:

- إنها تقريرات كتبت تحت تأثير الذعر! وعلى كل حال فإني لم أذكر شيئًا عن ذلك في تقريري.

- فلندع ذلك الآن... أما بخصوص ذلك اللهب الذي كان يتعالى فوق الصخور...

- أوه! يا سيد ستروك إن اللهب شيء آخر! لقد رأيته... رأيته بعيني رأسي، وكانت السحب تعكس ضوءه على مسافات بعيدة. وإلى جانب ذلك، فقد كانت ثمة أصوات تسمع عند قمة «جريت أيري» وكأنها صفير... صفير مرجل يفرغ منه البخار.

- أكان هذا إذنْ ما شاهدته؟

- نعم.. وقد أصم آذاني ذلك الصفير!

- وبعد ذلك، ألا تعتقد يا سيد سميث أنه في وسط ذلك الضجيج قد طرقت أذنيك ضربات أجنحة ترفرف؟

- هذا صحيح، يا سيد ستروك. ولكن ماذا يمكن أن يكون ذلك الطائر الجبار، الذي أحدثت ضربات أجنحته تلك الأصوات والذي لا مراء في هذه الحال في أن يكون قد عبر الفضاء بعد انطفاء ألسنة اللهب الأخيرة؟ وبأي نوع من الأجنحة قد زُوِّد ذلك الطائر؟ لذلك أراني أتساءل عما إذا لم يكن ذلك شطحة من شطحات خيالي! أمن الممكن أن تكون «جريت أيري» وكرًا لمسوخ الطير! ولكن إذا صح ذلك، ألم يكن من الممكن رؤيتها منذ أمد طويل وهي تبسط أجنحتها فوق أعشاشها الصخرية الهائلة؟ حقًّا إن في كل ذلك غموضًا لم يُكتشف بعد.

- ولكننا سنوضحه يا سيد سميث إذا صممت حقًّا على أن تمد لي يد المعونة.

- بكل تأكيد يا سيد ستروك، بل وبكل سرور فإنه من الأهمية بأعظم مكان أن يطمئن سكَّان المنطقة.

- إذَنْ سنبدأ العمل غدًا.

- ليكن ذلك.

وافترقنا عند هذه الكلمات.

وعدت إلى الفندق حيث رتبت أموري لإقامة قد تطول تبعًا لمقتضيات البحث.

وبطبيعة الحال لم أقصر أبدًا في الكتابة إلى السيد وارد. فأخطرته بوصولي إلى «مورجانتون»، وأبلغته نتائج مقابلتي الأولى لعمدة القرية، وعزمنا على القيام بكل ما يلزم، حتى نصل في ذلك الأمر إلى نتيجة مرضية في أقصر وقت ممكن. وتعهدت بأن أحيطه بكل محاولاتنا إما بالبريد أو بالبرق، حتى يكون على الدوام ملمًّا بحالة الأهالي في ذلك الجزء من كارولين.

وجمعتنا بعد الظهر مقابلة ثانية أنا والسيد سميث، وقررنا أن نرحل عند انبثاق نور الصباح.

وهذا هو المشروع الذي فضلناه على سواه:

نشرع في تسلق الجبل بإرشاد دليلين يجيدان ذلك النوع من الصعود. ذلك أنه كان قد سبق لهما أن تسلقا قمم الجبال الزرق عدة مرات، ولكنهما لم يحاولا أبدًا الصعود إلى «جريت أيري»؛ لأنهما يعلمان أنها محاطة بإطار صخري لا يمكن اختراقه، ويمنع الدخول إليها، هذا إلى أن «جريت أيري» لم تكن قبل حدوث تلك الظواهر الأخيرة تثير اهتمام السائحين. ولكن، كان يمكننا الاعتماد على هذين المرشدين؛ لأن السيد سميث كان يعرفهما معرفة شخصية، وكانا رجلين مقدامين بارعين مخلصين لا يتراجعان أمام العقبات، فعزمنا على أن نتبعهما.

أضف إلى ذلك أن السبب الذي جعل دخول «جريت أيري» مستحيلًا ربما كان قد زال، كما كان يقول السيد سميث.

ولما سألته عن السبب...

أجابني قائلا:

- لأن كتلة صخرية قد انفصلت من الجبل منذ أسابيع، وربما تكون قد تركت منفذًا يمكن الدخول منه.

فقلت:

- سوف يكون ذلك ظرفًا سعيدًا يا سيد سميث.

- سنعرف ذلك قريبًا يا سيد ستروك، وغدًا على أكثر تقدير.

- إلى الغد إذَنْ!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث

«جريت أيري»

ومنذ فجر اليوم التالي غادرت أنا وإلياس سميث مدينة «مورجانتون» متخذين الطريق الذي يؤدي إلى ضيعة «بليزانت جاردن» في محاذاة الشاطئ الأيسر لنهر «ساروبا».

ورافقنا الدليلان: هاري هورن ويبلغ من العمر ثلاثين عامًا، وجيمس بروك وعمره خمسة وعشرون عامًا، وكلاهما من سكَّان القرية، وكانا يقومان بخدمة السائحين الذين يرغبون في زيارة المواقع الرئيسة للجبال الزرق وكمبرلاند، وهما تكونان سلسلتي جبال «أليجانيس». كانا من متسلقي الجبال الشجعان، مفتولي الذراعين والساقين، بارعين ومحنكين، ويعرفان هذا الجزء من الإقليم حتى سفح سلسلة الجبال معرفة تامة.

وكانت هناك عربة مشدودة إلى حصانين قويين لنقلنا إلى الحد الغربي للولاية. ولم يكن بها من المواد الغذائية إلا ما يكفينا يومين أو ثلاثة أيام، ذلك لأن رحلتنا لم تكن لتستغرق، على ما يبدو، أكثر من هذا الوقت. وكان لا بد لنا أن نعتمد على السيد سميث في اختيار المواد الغذائية التي كانت تتكون من لحم البقر المحفوظ، وشطائر فخذ الخنزير، وفخذ وعل بري مطبوخ جيدًا، وبرميل صغير من الجعة، وعدة زجاجات من الويسكي والبراندي، وكمية وافرة من الخبز. أما بالنسبة للماء، فقد كان في وسع ينابيع الجبل أن تمدنا بالغزير منه، وهذه الينابيع تغذيها مياه السهول المنهمرة التي تكثر في تلك الحقبة من السنة.

ولا حاجة بنا إلى القول بأن عمدة «مورجانتون» وهو صياد ماهر، قد حمل بندقيته، واصطحب كلبه «نيسكو» الذي راح يجري ويقفز بالقرب من العربة. وكان على نيسكو أن يأتي لسيده بالقنص طوال مدة سيرنا داخل الغابة أو في السهول. ولكن كان عليه أن يبقى مع السائق في مزرعة «ويلدون» طول الوقت الذي نمضيه في التسلق، إذ لم يكن في استطاعته أن يتبعنا إلى «جريت أيري» بسبب ما فيها من شقوق لا بد من تخطيها، وصخور يجب تسلقها.

وكانت السماء صافية والهواء ما زال رطبًا في نهاية شهر أبريل الذي يقسو فيه جو أمريكا في بعض الأحايين. وكانت بعض السحب تمرق سريعة بفعل رياح متغيرة تهب من مناطق المحيط الأطلسي الشاسعة، ومن بينها كانت تنفذ خيوط من أشعة الشمس فتضيء المكان كله.

وأتاح لنا اليوم الأول أن نصل إلى «بليزانت جاردن» حيث كان علينا أن نقضي الليل في ضيافة عمدة الضيعة، وهو صديق حميم للسيد سميث. وهناك استطعت بفضولي أن أتأمل تلك المنطقة حيث توجد الحقول خلف المستنقعات، والمستنقعات خلف أشجار السرو. وكان هناك طريق لا بأس بصيانته، يخترقها تارة، ويحاذيها تارة أخرى دون أن تعتريه انحناءات عديدة فتطيل منه. وفي البقاع التي تقل بها المستنقعات، تصطف أشجار السرو رائعة بسيقانها الباسقة المستقيمة التي تنتفخ قليلًا عند قاعدتها، ويظهر بأسفلها نتوءات صغيرة مخروطية الشكل تشبه الركبة، يتخذ منها الأهالي في هذا الإقليم أداة للزينة. وكان النسيم يصفر خلال أوراقها

الباهتة فيؤرجح الألياف الرمادية الطويلة التي يطلقون عليها اسم «اللحية الإسبانية» والتي كانت تتدلى من غصونها الدانية حتى تلمس الأرض.

وكان يعيش في غابات تلك المنطقة عالم آخر راح يفر أمام مركبتنا بأنواعه المختلفة من الفئران والببغاوات ذات الألوان الزاهية وطلاقة اللسان التي تصم الآذان، ومن حيوانات من فصيلة الكانجارو تنطلق في قفزات سريعة حاملة صغارها في جيوبها البطنية، ومن طيور تجول في جماعات لا تُحصى بين أشجار التين الهندي، واللتانيا، والبرتقال التي تتفتح براعمها عندما تهب أولى نسمات الربيع، فضلًا عن مجموعات الأزهار الجميلة التي تبلغ كثافتها في بعض الأحيان حدًّا يتعذر معه على السائر أن يمر بينها.

وحين وصلنا في المساء إلى «بليزانت جاردن» استقر بنا المقام لنقضي بها ليلتنا، فقد كان اليوم التالي كافيًا لكي يوصلنا إلى مزرعة «ويلدون» عند سفح سلسلة الجبال.

وإن «بليزانت جاردن» قرية متوسطة الأهمية. وقد رحب بنا عمدتها ترحيبًا طيبًا كريمًا، وتناولنا طعام العشاء خلال سهرة ممتعة في قاعة المنزل الجميل الذي يقطنه تحت ظلال أشجار الزان الضخمة. وهناك تناول الحديث بطبيعة الحال تلك المحاولة التي نعتزم القيام بها للتعرف على الأوضاع الداخلية «لجريت أيري». فقال لنا مضيفنا: أنتم على صواب؛ لأنه إذا لم ينجح أحد في معرفة ما يحدث أو ما يختفي هناك في أعلى الجبل، فإن فلاحينا لن تطمئن نفوسهم...

وسألته قائلًا:

- ولكن ألم يحدث شيء آخر منذ أن ظهر اللهب آخر مرة فوق «جريت أيري»؟

فأجاب: لم يحدث شيء بالمرة يا سيد ستروك. فنحن نستطيع بسهولة أن نشهد من منطقة «بليزانت جاردن» الحافة العليا للجبل حتى قمة «بلاك دوم» التي تشرف عليه... ولكنا لم نسمع أي صوت مريب، ولم نر أي ضوء... وإذا صح أن قومًا من الشياطين كانوا قد حطوا رحالهم هناك، فإنه يبدو أنهم قد أتموا تدبيرهم الجهنمي ورحلوا إلى مستقرٍّ آخر في جبال «أليجانيس»!

فصاح السيد سميث:

- قوم من الشياطين! شيء جميل! إن هذا يجعلني أميل إلى الاعتقاد بأنه لا يمكنهم الرحيل دون أن يتركوا آثارًا تدل على عبورهم، كقطع من ذيولهم أو من قرونهم! سوف نرى ذلك!».

وفي فجر اليوم التالي وهو التاسع والعشرون، كانت المركبة في انتظارنا. جلس السيد سميث في مكانه، وجلست في مكاني، وانطلقت الخيل مسرعة تحت سوط السائق التي كان يلهبها، وكان علينا، في نهاية اليوم الثاني لقيامنا من «مورجانتون» في رحلتنا هذه، أن نتوقف عند مزرعة «ويلدون» أمام الشعاب الأولى لتفرع الجبال الزرق.

ولم يكن هناك شيء يشير إلى تغيُّر في مظهر الإقليم؛ فالغابات والمستنقعات كانت تتعاقب، وإن كانت المستنقعات قد أخذت تبتعد الواحد عن الآخر نظرًا لزيادة جدب الأرض كلما اقتربت من سلسلة الجبال، وأصبح الإقليم أقل سكانًا، فلم يعد المرء

يقابل سوى عدد قليل من القرى التائهة تحت غصون أشجار الزان القوية، وبعض المزارع المتطرفة التي ترويها بسخاء جداول المياه المنحدرة من الخوانق والتي تكوِّن الفروع العديدة لنهر ساروبا.

وهنا وجدنا أيضًا نفس أنواع الحيوان والنبات التي رأيناها بالأمس، وكان فيها من حيوان الصيد ما يرضي صيادًا ينشد الصيد الغزير.

فقال السيد سميث:

- أشعر برغبة شديدة في أن أتناول بندقيتي وأصفر لنيسكو. إن هذه هي المرة الأولى التي أعبر فيها المكان دون أن أطلق رصاصة على طائر الحجل، وعلى الأرانب البرية! إن هذه الحيوانات الطيبة لن تتعرف عليّ بعد الآن! ولكن أمامنا اليوم عمل آخر.. إن لم يفرغ زادنا.. وذلك هو اصطياد الأسرار...

وقلت:

- ونرجو يا سيد سميث ألا نرجع بخفي حنين!.

وخلال فترة الصباح كان علينا أن نجتاز سهلًا لا نهاية له، تنبت فيه أشجار السرو واللتانيا في شكل مجموعات أو أدغال. وكنا نرى على امتداد البصر مجموعة كبيرة من عشش صغيرة من الطين، مشيدة بطريقة عجيبة، يقطنها عالم من الحيوانات الصغيرة القارضة. وفيها يعيش -في جماعات آلاف من حيوان السنجاب من تلك الفصيلة المعروفة في أمريكا بوجه خاص بالاسم العامي «كلاب المروج»، ولم يطلق عليها هذا الاسم؛ لأنها تشبه أي نوع من أنواع الفصيلة الكلبية. كلا، وإنما يرجع السبب في هذه التسمية إلى أن هذه الحيوانات تصدر أصواتًا كعواء الجراء. وفي الواقع كنا نسمع أصواتها التي كادت تصم آذاننا، ونحن في طريقنا تجرنا الخيل المنطلقة.

وليس من النادر في الولايات المتحدة أن يقابل الإنسان مثل هذه المدن التي تسكنها الحيوانات ذوات الأربع. ويذكر علماء الطبيعة من بين هذه المدن مدينة «دوج فيل» أي مدينة الكلاب التي أطلق عليها هذا الاسم بجدارة، والتي يقدر عدد سكانها بما يزيد على المليون من ذوات الأربع.

وحيوانات السنجاب هذه التي تعيش على الجذور والأعشاب، كما تعيش على الجراد وتجد لذَّتها في التهامه، حيوانات غير ضارة، ولكنها تعوي عواء يصم الآذان.

واحتفظ الجو باعتداله، وكان يسري فيه نسيم جميل. وفي الحقيقة، لا يجوز الاعتقاد بأن المناخ في هذا الإقليم الواقع على خط العرض الخامس والثلاثين حارٌّ نسبيًّا في ولايتي كارولين، فغالبًا ما يكون الشتاء فيهما قاسيًا تمامًا، حيث يذبل الكثير من أشجار البرتقال من شدة البرد، ويمتلئ حوض نهر «ساروبا» بكتل الجليد.

وما إن حان عصر ذلك اليوم، حتى ظهرت سلسلة الجبال الزرق في محيط متسع إذ كنا منها على بعد ستة أميال فقط. وبرزت حافتها العليا بوضوح على سماء منيرة، تسري فيها بعض السحب الخفيفة. وعند قاعدة السلسلة الكثيفة التي تتشابك أمامها فروع الأشجار المخروطية الشكل، كانت بعض هذه الأشجار تبدو منتصبة أمام الصخور السوداء بمظهر غير مألوف. وكانت ترتفع هنا وهناك قمم مختلفة غريبة

الشكل، تشرف عليها جميعًا من ناحية اليمين تلك القبة السوداء «بلاك دوم»(1) برأسها الضخم الذي يتلألأ ما بين لحظة وأخرى تحت وهج الشمس.

(1) يبلغ ارتفاعها 2044 مترًا.

وسألت السيد سميث قائلًا:

- هل سبق لك أن تسلقت هذه القبة؟

فأجابني:

- كلا، ولكنهم يؤكدون أن تسلقها شديد العسر. وعلى العموم، لقد صعد بعض السائحين حتى قمتها، وصرحوا بأن العين لا ترى من أعلى نقطة فيها أي شيء في داخل «جريت أيري».

فقال الدليل هارى هورن:

- تلك هي الحقيقة، وقد تأكدت منها بنفسي.

فأبديت هذه الملاحظة:

- ربما كان الجو في ذلك الحين غير ملائم.

- بل على العكس، لقد كان الجو صافيًا للغاية يا سيد ستروك، ولكن حواف «جريت أيري» مرتفعة تمامًا وتحجب النظر.

فصاح السيد سميث قائلًا:

- «هيا.. فلن أندم على أي حال إذا ما وضعت قدمي في مكان لم يستطع إنسان أن يضع قدمه فيه حتى الآن».

ومهما كان الأمر، فإن «جريت أيري» كانت تبدو في ذلك اليوم هادئة، ولم يكن يتصاعد منها أبخرة أو لهب.

وفي الساعة الخامسة تقريبًا توقفت دوابنا عند مزرعة «ويلدون»، وهرع أهلها لاستقبال عميدهم.

كان علينا أن نمضي ليلتنا الأخيرة في هذا المكان، ففكت أربطة الخيل حال وصولنا، واقتيدت إلى الحظيرة التي كان بها، على ما يبدو، الكثير من العلف، ثم أدخلت العربة في حظيرة العربات. أما السائق فكان عليه أن ينتظر هناك حتى نعود. وفضلًا عن ذلك، فإن السيد سميث لم يكن يخامره أي شك في أن مهمتنا سوف تنتهي بما يرضي الجميع عند عودتنا إلى «مورجانتون».

وقد أكد لنا مستأجر مزرعة «ويلدون» أنه لم يحدث أي شيء غير عادي في «جريت أيري» منذ حين، وتناولنا طعام العشاء على المائدة العامة مع عمال المزرعة، ولم يحدث ما يقلق نومنا في أثناء الليل.

وكان علينا أن نبدأ في تسلق الجبل منذ فجر اليوم التالي. إن ارتفاع «جريت أيري» لا يتجاوز ألفًا وثمانمائة قدم، وهو ارتفاع متواضع، أعني أنه يعادل متوسط ارتفاع سلسلة جبال «أليجانيس». ولذلك كنا واثقين بأن التعب لن ينال منا كثيرًا، فقد كانت تكفينا بضع ساعات للوصول إلى الحافة العليا لهذه المرتفعات. نعم كنا نقدر أنه قد تصادفنا بعض صعوبات الطريق، كتلك الوهاد التي لا بد من عبورها، والعقبات التي يجب تجنبها، مما قد يضطرنا إلى اتباع طريق شاق أو خطر.

ولكن هذا هو المجهول، هو الثمن الذي كان علينا أن نقدمه في سبيل محاولتنا هذه. وكما قلت آنفًا، لم يستطع دليلانا أن يفيدانا بشيء في هذا الشأن. ولكن ما كان يقلقني هو أن سكَّان الإقليم كانوا يعتقدون أن جدار «جريت أيري» لا يمكن عبوره. ولكن أحدًا لم يكن قد أثبت ذلك الأمر، وكان لا يزال أمامنا ذلك الأمل، وهو أن يكون سقوط إحدى الكتل الجبلية قد ترك ثغرة في سمك الإطار الصخري.

قال لي السيد سميث بعد أن أشعل أول غليون له من تلك الغلايين العشرين التي يدخنها في اليوم الواحد:

- وأخيرًا، سنرحل وكلنا عزم أكيد، أما فيما يختص بمعرفة ما إذا كان هذا التسلق سيتطلب وقتًا يطول أو يقصر...

فسألته:

- ألسنا عازمين يا سيد سميث على أن نواصل بحثنا هذا حتى النهاية؟

- أتقول إننا عازمون يا سيد ستروك؟!

- أجل... فقد كلفني رئيسي أن نقف على أسرار ذلك الشيطان، أعني «جريت أيري»...

فأجاب السيد سميث وهو يشهد السماء:

- بل سننتزعها منه إن طوعًا وإن كرهًا، حتى لو اقتضانا الأمر أن نذهب للبحث عنها في أحشاء الجبل.

فأضفت قائلًا:

- وبما أنه من المحتمل أن تطول رحلتنا إلى ما بعد اليوم، فمن الفطنة أن نتزود بالطعام.

- لا تقلق بالك يا سيد ستروك، إن مع كل من دليلينا في جرابه مؤونة تكفيه يومين. أما نحن فإننا لن نرحل وجيوبنا خاوية.. أضف إلى ذلك، أنه إذا كنت أترك كلبي الطيب «نيسكو» في المزرعة فإنني أحمل بندقيتي، ولا بد من وجود بعض حيوانات الصيد في منطقة الغابات، وفي داخل المضايق بين الشعب الأولى للجبل... وسنوقد النار لنطبخ ما نصطاده، اللهم إلا إذا صادفنا هناك في أعالى الجبل نارًا موقدة بالفعل...

- نارًا موقدة... وكيف يكون ذلك يا سيد سميث؟

- ولم لا يا سيد ستروك؟ ألا تذكر ذلك اللهب الهائل الذي ألقى الرعب في قلوب فلاحينا! هل يعلم أحد ما إذا كان أتونه قد خمد تمامًا، أم لا تزال هناك بعض النيران التي تستعر تحت الرماد؟ ثم لو فرضنا أن هناك فوهة داخلية، فمعنى ذلك أنه يوجد بركان، وهل سمع أحد بوجود بركان خامد كل الخمود لم تعد به جمرة مشتعلة؟ إني أقول بصراحة إن البركان الذي لم تعد به نار كافية لسلق بيضة، أو لشيِّ قطعة من البطاطس لبركان تافه! وعلى العموم، أكرر لك القول إننا سوف نرى... نعم، سوف نرى!».

أما أنا فأعترف بأني لم أكن قد كونت رأيًا خاصًّا في هذا الموضوع. وكل ما في الأمر، أني تلقيت أمرًا بالذهاب لمعرفة كنه قمة «جريت أيري» هذه! فإذا اتضح أن

لا خطر هناك ألبتة، علم الجميع ذلك واطمأنت القلوب. ولكن كان يسعدني في قرارة نفسي أن يتبين أن «جريت أيري» مركز لظواهر طبيعية أكتشف أسبابها بنفسي، لما في ذلك من إشباع لرغبتي، ومن شهرة تحظى بها الرسالة التي كلفت بها... أليس ذلك شعورًا طبيعيًّا جدًّا عند شخص يستبد به شيطان الفضول؟!

وهذا هو الترتيب الذي كان علينا أن نتبعه في صعودنا لهذا الجبل: يسير الدليلان في المقدمة، إذ عهدنا إليهما اختيار الدروب الممهدة، وأسير أنا وإلياس سميث متجاورين، أو أحدنا خلف الثاني تبعًا لاتساع الدرب.

وبدأ هاري هورن وجيمس بروك المغامرة بالدخول في عنق ضيق قليل الانحدار، يتوغل في منحدرات وعرة، تتشابك فيها، في خليط معقد؛ شجيرات ذات ثمار مخروطية الشكل وأوراق يميل لونها إلى السواد، ومساحات يمتد فيها نبات السرخس وعنب الذئب البري، وكان يبدو أنه يستحيل على المرء أن يشق لنفسه طريقًا في داخلها.

كانت هناك أسراب كثيرة من الطيور تعيش في هذه الغابات الكثيفة. وكان من أكثر هذه الطيور ضوضاء، ببغاوات تزقزق بملء منقارها، فيدوي صراخها الحاد في الفضاء. وعلى الرغم من أن حيوانات السنجاب كانت تُعَدُّ هناك بالمئات، إلا أنه كان من العسير على أي إنسان أن يسمع لها صوتًا، وهي تنساب هاربة بين الأحراش.

وكان السيل الذي يتخذ من هذا العنق الضيق مجرى له يتلوى في غير انتظام، وهو يجري بين قمم السلسلة. أما في فصل الأمطار أو لدى حدوث عاصفة قوية، فإنه ينهمر في شكل شلالات صاخبة. على أنه لم يكن يمكن له أن يستمد معينه إلا من المياه الهاطلة من السماء. وإذا لم يتأتَّ لنا أن نتتبع أثره، فقد كان هذا دليلًا على أنه لم يكن ينبع من مرتفعات «جريت أيري».

وبعد أن سرنا نصف ساعة أصبح الصعود شاقًّا، وأصبح من الضروري أن ننحرف تارة إلى اليمين وتارة إلى اليسار، وأن يطول بنا السير بسبب تلك المنحنيات العديدة. ذلك أن العنق قد أصبح غير صالح للسير فيه، فلم تعد القدم تجد فيه موضعًا يصلح للارتكاز عليه، فكان لا بد لنا من أن نتعلق بتلك الأعشاب المتجمعة ومن أن نزحف على الركب، وكان لا يمكن في هذه الحال أن ننتهي من صعودنا قبل غروب الشمس.

فصاح السيد سميث وهو يلتقط أنفاسه قائلًا:

- «يا إلهي! لقد فهمت الآن لماذا يندر السياح في «جريت أيري»! إنهم يندرون إلى حد العدم، فعلى حد علمي لم أسمع بسائح زارها!»

فأجبته:

- الواقع أن متاعب هذا الصعود كبيرة جدًّا بالنسبة إلى نتيجته الهزيلة. ولو لم تكن لدينا أسباب خاصة تدعونا للوصول إلى نهاية موفقة في محاولاتنا هذه.

فصارحنا هاري هورن بقوله:

- هذا هو عين الحقيقة، فأنا وزميلاي اللذان صعدنا عدة مرات إلى قمة «بلاك دوم» لم نقابل أبدًا مثل هذه الصعوبات.

وأجاب جيمس بروك:

- إنها صعوبات حتى الآن، وربما أصبحت عقبات مستعصية فيما بعد!

وأصبح الأمر الآن يقتضي منا أن نقرر من أي جانب يمكننا البحث عن طريق مائل، فإلى اليمين، وإلى اليسار ترتفع كتل متكاثفة من الأشجار والشجيرات. وبالاختصار، لم يكن أمامنا إلا أن نجازف بالسير بينها، إذ ربما كانت منحدراتها أقل وعورة. وقد يكون من الممكن أن نستطيع أنا ورفاقي أن نسير بخطوات أكثر ثباتًا داخل تلك المنطقة من الغابات إذا ما تجاوزنا أطرافها. وعلى أي حال، فإننا لم نكن لنسير ونحن مغمضو العينين. ومع ذلك كان علينا ألا ننسى أن الجوانب الشرقية للجبال الزرق غير صالحة للسير فيها على طول السلسلة؛ إذ إنها تنحدر بميل يبلغ خمسين درجة.

ومهما يكن من شيء، فقد كان الأفضل لنا أن نعتمد في هذا الموضوع على غريزة دليلينا الخاصة، ولا سيما المرشد جيمس بروك. فإني أعتقد أن هذا الشاب الطيب له مهارة القرود، وخفة التياتل. ولكننا لسوء الحظ لم نكن لنستطيع، أنا وإلياس سميث، أن نخاطر بالسير في الطريق الذي يسلكه ذلك المقدام.

ومع ذلك فإنني كنت آمل من جانبي ألا أبقى في المؤخرة، إذ كنت أحسن التسلق بطبيعتي، وأجيد التمرينات البدنية. فصممت على أن أمر في كل مكان يسير فيه جيمس بروك، حتى ولو كلفني ذلك أن أسقط وأتدحرج من حين إلى حين. ولكن الأمر كان يختلف عند الموظف الأول في «مورجانتون»، إذ إنه كان أقل مني شبابًا وقوة، وأكثر مني طولًا وسمنة، وأقل ثباتًا في السير. وكان من الواضح، حتى هذه اللحظة، أنه قد بذل كل ما في وسعه لكي لا يتأخر عنا، فقد كان ينفخ أحيانًا كسبع البحر، وكنت أضطره، على الرغم منه، لأن يتوقف حتى يستريح.

وبالاختصار، لقد وضح لنا أن صعود «جريت أيري» يتطلب وقتًا أطول مما قدرنا، إذ كنا نعتقد أننا لا بد واصلون إلى الإطار الصخري قبل الساعة الحادية عشرة. ولكنا أصبحنا الآن على يقين من أنه حين تدق الساعة الثانية عشرة سنكون على بعد بضعة مئات من الأقدام من هناك. إذ إنه في حوالي الساعة العاشرة، وبعد محاولات كثيرة لاكتشاف الطرق الصالحة، وبعد الكثير من اللف والدوران رأينا أحد الدليلين يصدر إشارة بالتوقف. وعندئذٍ أدركنا أننا قد بلغنا الطرف العلوي لمنطقة الغابات، وأمكننا خلال الأشجار -وقد قلت كثافتها- أن نمد بصرنا حتى الطبقات الأولى من الصخور المكونة لقاعدة «جريت أيري».

وهنا قال السيد سميث وهو يتكئ على شجرة لتانيا ضخمة:

- أيها الرفاق! أعتقد أنه لن يضيرني أن أحصل على مهلة قصيرة، وراحة وجيزة، وقليل من الطعام!...

فأجبت:

- على ألا يزيد ذلك على ساعة.

- «حسن، وعلى المعدة الآن أن تشتغل بعد أن اشتغلت الرئتان والساقان!».

وقد اتفقت كلمتنا في هذا الشأن، إذ كان يهمنا أن نسترد قوانا. وكان ذلك المنظر، الذي بدا لنا حينئذٍ من جانب الجبل حتى سفح «جريت أيري»، يسبب لنا بعض

القلق. فمن فوقنا كان يمتد أحد تلك الأجزاء العارية التي يسميها سكان الإقليم «بلادز». ولم يكن يظهر هناك بين الصخور الوعرة أي درب.

ولم يلبث هذا الأمر أن شغل دليلينا، فقال هاري هورن لزميله:

- لن يكون الأمر مريحًا.

وأجابه جيمس بروك:

- وربما كان مستحيلًا!

وقد سبب لي هذا الرأي غمًّا حقيقيًّا. فإني لو نزلت عائدًا أدراجي دون أن أكون قد وصلت حتى إلى «جريت أيري»، فمعنى ذلك أن بعثتي قد فشلت فشلًا ذريعًا، هذا إلى جانب فضولي الذي لن أكون قد استطعت إشباعه! ولا بد أن تبدو على وجهي سيماء الحزن إذا ما عدت لمقابلة السيد وارد في حالة ارتباك وخجل!

فتح كل منا جرابه، وأكل شيئًا من اللحم البارد والخبز، وتناولنا جرعات قليلة من الزمزمية، وعندئذٍ أخذنا نشعر بالانتعاش. وبعد انتهاء هذه الوجبة -ولم تكن قد استغرقت نصف ساعة- نهض السيد سميث مستعدًا لأن يواصل السير من جديد.

وسار جيمس بروك في المقدمة، ولم يكن علينا إلا أن نتبعه باذلين ما في وسعنا أن لا نبقى في المؤخرة.

كنا نتقدم ببطء، ولم يكن دليلانا يخفيان ارتباكهما، وسبقنا هاري هورن للتعرف على الاتجاه الذي يجدر بنا أتباعه.

وغاب عنا حوالي عشرين دقيقة. ولما عاد أشار إلى ناحية الشمال الغربي. وواصلنا السير. ومن هذا الجانب، كانت قمة «بلاك دوم» تشمخ في الفضاء على بعد ثلاثة أميال أو أربعة. وكان من العبث، كما قلت، أن نرتقيها ما دام بصر من يقف عند قمتها لا يستطيع أن يلمح أي شيء داخل «جريت أيري»، حتى ولو نظر الرائي خلال منظار قويٍّ.

وكان الصعود شاقًّا جدًّا وبطيئًا، خصوصًا على طول تلك المنحدرات المنزلقة التي تنمو عليها بعض الشجيرات وأحراش النبات. وما كدنا نصعد مائتي قدم حتى توقف الدليل الذي كان يسبقنا أمام أخدود عميق يشق الأرض في تلك البقعة. وحينئذ شاهدنا هنا وهناك جذورًا نزعت منذ عهد قريب، وأغصانًا مكسورة، وصخورًا قد تحولت إلى رماد، كما لو كان هناك جرف قد انهار وانحدر على ذلك الجانب من الجبل.

وقال جيمس بروك ملاحظًا:

- لا بد أن تكون الصخرة الهائلة التي انفصلت من «جريت أيري» قد سقطت منحدرة من هذا المكان.

فأجاب السيد سميث:

- لا شك في ذلك. لذلك أرى من الأفضل أن نتبع الطريق الذي شقته في سقوطها.

وكان هذا هو الطريق الذي سلكناه. وكنا في ذلك على صواب، إذ كان في استطاعة أقدامنا أن ترتكز على الحفر التي أحدثتها تلك الكتلة الصخرية في الأرض. وهكذا

أخذنا نصعد بأسهل من ذي قبل، متبعين طريقا مستقيمًا على وجه التقريب. ولم تحن الساعة الحادية عشرة والنصف حتى كنا عند الحافة العليا لسفح الجبل.

وعلى بعد مائة خطوة منا فقط كانت تنتصب أمامنا حوائط تشكل إطار «جريت أيري» ويبلغ ارتفاعها حوالي مائة قدم. كان الإطار من هذا الجانب كثير النتوءات، فكانت تُرى هنا وهناك رؤوس وأطراف، من بينها صخر غريب الشكل بدا كما لو كان نسرًا ضخمًا على أهبة الاستعداد للطيران إلى مناطق الجو العليا. وكان واضحًا تمامًا أننا سوف لا نتمكن من اجتياز هذا النطاق من جزئه الشرقي على الأقل.

وقال السيد سميث مقترحًا:

- فلنسترح بضع لحظات، ثم نرى ما إذا كان من المستطاع أن نطوف حول «جريت أيري».

وأبدى هاري هورن ملاحظة أخرى قائلًا:

- «على أي حال، لا بد أن تكون تلك الكتلة الصخرية قد انفصلت من هذا الجانب، ولكننا لا نرى أي ثغرة في هذا الجزء من النطاق».

كانت هذه هي الحقيقة. لذلك لم يكن هناك أدنى شك في أن الكتلة الصخرية لم تسقط من هذا الجانب.

وبعد عشر دقائق من الراحة نهض الدليلان، وسلكا بنا طريقًا وعرًا منزلقًا أسلمنا إلى حافة الهضبة. فلم يعد أمامنا الآن سوى أن نسير محاذين قاعدة الصخور التي ترتفع إلى علو خمسين قدمًا في تفرطح يشبه تفرطح حافة السلسلة، ولذا كان من المستحيل علينا أن نصعد إلى أعلى النطاق حتى ولو كان لدينا سلم يكفي الوصول إليه.

كانت «جريت أيري» تبدو في خاطري في شكل خيالي تمامًا. فكنت أتخيلها آهلة بالأفاعي والوحوش وغيرها من عجائب المخلوقات التي وردت في أساطير الأقدمين، وأن كل هذه المخلوقات تقوم بحراستها.

ومع ذلك، واصلنا الدوران حول هذا الحصن المسور، وكانت الطبيعة تبدو هناك وكأنها من صنع الإنسان، وذلك لما كنت تصطبغ به من ترتيب وانتظام. لم يكن هناك ما يعوق تتابع صخور هذا الجدار، كما لم نجد في أي مكان منه فراغًا بين صخرتين يمكن أن تتسلل منه . فكان من المستحيل علينا أن نجتاز تلك القمة التي ترتفع حوالي مائة قدم.

وبعد أن سرنا على حافة الهضبة لمدة ساعة ونصف الساعة عدنا أدراجنا إلى النقطة التي بدأنا منها، والتي كنا قد توقفنا عندها أخيرًا لدى حدود سفح الجبل.

ولم أستطع أن أخفي غيظي من خيبة الأمل هذه. وقد بدا لي تمامًا أن السيد سميث لم يكن بأقل غيظًا مني، إذ أخذ يصيح قائلًا:

- يا للشياطين! سوف لا نعرف إذَنْ ما يوجد بداخل «جريت أيري» الملعونة، وهل هي فوهة بركان....

فقلت ملاحظًا:

- بركان أو غير بركان... إنه لا يخرج منها أي صوت مريب، ولا يصعد منها دخان أو لهب أو أي شيء يعلن عن ثورة بركانية قريبة!

وفي الواقع كان السكون يخيم على المكان في الخارج، كما كان يسوده في الداخل. لم يكن يتصاعد منه أي بخار أسود، ولم يكن هناك أي ضوء ينعكس على السحب التي يدفعها نسيم الشرق من فوقه، وكانت الأرض ساكنة سكون الهواء. ولم نكن نشعر تحت أقدامنا بأي أصوات باطنية أو اهتزاز. لقد كان هذا هو الهدوء التام الذي يخيم على المناطق المرتفعة.

ويجدر بنا ألا ننسى أن محيط دائرة «جريت أيري» قد يبلغ ألفًا ومائتين من الأقدام أو ألفًا وخمسمائة، مقدرًا بالوقت الذي استغرقناه في إتمام الدورة حوله، ومع حساب الصعوبات التي لاقيناها في السير عند أطراف الهضبة الضيقة. أما عن المسطح الداخلي فكيف كان يتسنى لنا قياس أطواله ونحن لا نعرف شيئًا عن سمك الصخور التي تحيط به؟

ولا جدال في أن الأماكن المجاورة كانت مهجورة، أعني أننا لم نر فيها أي كائن حيٍّ، اللهم إلا زوجين أو ثلاثة أزواج من الطيور الجارحة الكبيرة التي كانت تحلق فوق المنطقة.

كانت ساعاتنا تشير حينئذٍ إلى الثالثة. فصاح السيد سميث يقول بلهجة غاضبة:

- إذا بقينا هنا حتى المساء فلن نعلم شيئًا أكثر مما علمناه! فيجب علينا أن نرحل يا سيد ستروك إذا أردنا أن نعود إلى «بليزانت جاردن» قبل هجوم الليل.

ولمَّا لم أجبه، ولم أترك المكان الذي كنت جالسًا فيه، استطرد يقول وهو يقترب مني:

- ما قولك يا سيد ستروك، إنك لا تجيب بشيء! ألا تسمعني؟

وفي الحقيقة، لقد كان ذلك معناه بالنسبة لي أن أتخلى عن واجبي وأن أعود دون أن أنهي مهمتي! فأخذت أشعر بفضولي يتزايد بعد أن خاب رجاؤه، وبرغبتي الملحة في المقاومة.

ولكن ما العمل؟ هل كان باستطاعتي أن أخترق هذا النطاق السميك وأن أتسلق تلك الصخور العالية؟

كان لا بد من الاستسلام. وبعد أن ألقيت نظرة أخيرة على «جريت أيري» تبعت رفاقي الذين بدأوا ينزلون منحدر الجبل، لم تقابلنا في عودتنا صعوبات أو متاعب كبيرة. وقبل أن تحين الساعة الخامسة كنا قد جاوزنا الدرجات الأخيرة في الجبل، واستقبلنا مدير مزرعة «ويلدون» في القاعة التي كانت تنتظرنا فيها المرطبات والمأكولات الدسمة.

وقال لنا:

- وهكذا لم تستطيعوا النفاذ إلى داخل الجبل؟

فأجاب السيد سميث:

- لا، وسأقتنع في النهاية بأن «جريت أيري» لا وجود لها إلا في مخيلة فلاحينا الطيبين!

وفي الساعة الثامنة والنصف مساء توقفت عربتنا أمام منزل عمدة «بليزانت جاردن» حيث كان علينا أن نقضي الليل.

وبينما كنت أحاول عبثًا أنا أنام، أخذت أفكر فيما إذا كان من الأفضل لي أن أبقى بضعة أيام في الضيعة، وأن أنظم محاولة صعود جديدة.. ولكن هل يقدر لهذه المحاولة تلك المرة أن تلقى النجاح الذي لم تحظ به في المرة الأولى؟

وعلى العموم، كان العقل يملي عليّ أن أعود إلى «واشنطن»، وأن أستشير السيد وارد. ولهذا لم أكد أصل في مساء اليوم التالي إلى «مورجانتون» حتى استأذنت السيد سميث في الانصراف بعد أن دفعت أجر دليلي، وتوجهت إلى المحطة التي كان القطار السريع المسافر إلى «رالي» على وشك الرحيل منها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرَّابع

سباق لنادي السيارات

هل كان من المقدر أن يكشف الستار في يوم من الأيام عن سر «جريت أيري» عقب أحداث لا يمكن التكهن بها؟ هذا هو السر الذي كان يخفيه المستقبل. وهل كانت هناك أسباب هامة تدعو إلى الكشف عن هذا السر؟ لا شك في ذلك لما كان يحتمل من أن سلامة سكَّان هذه المنطقة من كارولين الشمالية يتوقف عليه.

وعلى أي حال فقد مر على ذلك خمسة عشر يومًا، وفي أثناء عودتي إلى «واشنطن»، لاحظت تنبه الرأي العام إلى حادث من نوع آخر. وقد قُدِّر لهذا الحادث هو الآخر أن يستمر غامضًا غموض تلك الظواهر الطبيعية التي كانت جريت أيرى مسرحًا لها.

ففي حوالي منتصف شهر مايو كتبت صحف «بنسلفانيا» تنبئ قرّاءها بذلك الحادث الذي وقع في مواضع مختلفة من الولاية.

فمنذ حين كانت تُشاهد مركبة عجيبة تخترق الطرقات التي تنتشر حول «فيلادلفيا» عاصمة الولاية، ولكن أحدًا لم يستطع التعرف على شكلها أو طبيعتها أو حتى مقاييسها؛ لأنها كانت تنتقل بسرعة كبيرة. وقد اتفق الناس تمام الاتفاق على أنها سيارة. ولكن ما نوع ذلك المحرك الذي كان يدفعها؟ وتشعبت آراء الناس حول هذه الأحداث في فروض، قد تبدو مقبولة إن قليلًا وإن كثيرًا. وكانت كلما ضللها خيال الجماهير ، أصبح من المستحيل وضع حدود صحيحة لها.

وفي ذلك الوقت، لم تكن أحسن السيارات من أي نوع كانت، سواء أكانت تسير ببخار الماء أم بالبترول أم بالكحول أم بالكهرباء، تتجاوز سرعتها في أي حال من الأحوال مائة وثلاثين كيلومترًا في الساعة، أي حوالي ثلاثين عقدة (والعقدة تعادل أربعة كيلومترات)، أي أنها كانت تسير بسرعة ميل ونصف في الدقيقة الواحدة تقريبًا. أما قطارات السكة الحديدية فكانت لا تبلغ هذه السرعة على أحسن الخطوط في أمريكا وأوروبا إلا بصعوبة. ومن المؤكد أن هذا الجهاز الذي نتكلم عنه كان يسير بسرعة تبلغ ضعف هذه السرعة.

وغنيٌّ عن البيان أن سرعة كهذه كانت تمثل خطرًا كبيرًا على المارة في الطرقات وعلى المركبات. فهذه الكتلة المتدحرجة التي كان يسبقها أزيز هائل وتنقض كالصاعقة، كانت تدفع الهواء بقوة كبيرة تئن لها أغصان الأشجار على جانبي الطريق، وترعب الحيوانات التي ترعى في الحقول، وتشتت الطيور التي لا تستطيع أن تقاوم زوابع الرمال التي تثيرها في طريقها.

وكان هناك أمر غريب لفتت الصحف إليه الأنظار بصفة خاصة، وهو أن سطح الطرق لم يكد يتأثر بعجلات الجهاز التي لم تترك وراءها أي أثر من تلك الآثار التي تنتج عادة عن مرور عجلات العربات الثقيلة، اللهم إلا أثرًا خفيفًا أو لمسًا بسيطًا. وكانت السرعة وحدها هي التي تثير الغبار. ومما قالته صحيفة «نيويورك هيرالد» في هذا الشأن: «... وهذا ما يجعلنا نعتقد أن سرعة الانتقال تمحو أثر الثقل!».

وكان طبيعيًّا أن يضج الناس بالشكوى في مختلف المقاطعات بولاية «بنسلفانيا». فكيف تباح مثل هذه السرعات الجنونية التي يقوم بها جهاز يهدد بقلب كل شيء

وسحق كل ما يصادفه في طريقه من أناس وعربات؟ ولكن ما هي الوسيلة التي يمكن اتخاذها لإيقافه؟ ولم يكن أحد يعرف صاحبه ولا من أين يأتي ولا إلى أين يذهب. فلم يكن أحد يلمحه إلا في اللحظة التي يمرق فيها كقذيفة تنطلق بسرعة تبهر الأنظار... وهل يمكن الإمساك بقذيفة مدفع في اللحظة التي تنطلق فيها من فوهة النار؟

وأكرر القول بأنه لم يكن هناك ما يشير إلى طبيعة المحرك الذي يدفع الجهاز، على أن الأمر المؤكد الذي ثبتت صحته هو أن الجهاز لم يكن يترك وراءه أي دخان، أو رائحة بترول، أو أي زيت معدني آخر. وهذا ما أدى إلى استنتاج أن الجهاز يدفعه محرك كهربي له مولدات من طراز غير معروف، تحتوي على سائل نستطيع وصفه بأن لا ينضب معينه.

وعندئذٍ شاء خيال الجماهير، بعد أن استثير إلى أبعد حد، أن يرى في هذه السيارة الغامضة شيئًا آخر: فقد رأى فيها عربة غير عادية، يقودها شبح ليس إلا سائقًا من سائقي الجحيم، أو شيطانًا جاء من العالم الآخر، أو وحشًا أفلت من حظيرة المخلوقات العجيبة، فهو باختصار، إذا شئنا أن نذكره بصفة واحدة، الشيطان بعينه، الشيطان الذي يتحدى كل تدخل آدمي، ويتمتع بقدرته الشيطانية التي لا حد لها والتي لا يدركها أحد!

ولكن إبليس نفسه لم يكن له حق التجول بتلك السرعة في طرق الولايات المتحدة دون أن يكون لديه إذنٌ خاص بذلك، ودون أن يأخذ دوره تحت رقم مسلسل، ودون أن يحصل على ترخيص قانوني بذلك. ولم يكن هناك قطعًا أي بلدية توافق على التصريح له بأن يسير بسرعة مائتين وخمسين كيلومترًا في الساعة. وعلى ذلك فقد كان لا بد من إيجاد وسيلة لوقف نزوات هذا السائق الخفي حرصًا على الأمن العام.

ولم تكن ولاية «بنسلفانيا» هي الميدان الوحيد لحركاته الرياضية الشاذة، فإن تقريرات البوليس ما لبثت أن أشارت إلى مشاهدة الجهاز في ولايات أخرى: في «كانتوكي» قريبًا من «فرانكفورت»، وفي «أوهيو» بجوار «كولومبوس»؛ وفي «التنسي» ناحية «ناشفيل»؛ وفي «الميسوري» بالقرب من «جيفرسون»، وأخيرًا في «إيلنوا» في الطرق المختلفة التي تؤدي إلى «شيكاغو».

والآن، وقد استبانت شارة الخطر، أصبح من واجب السلطات البلدية أن تتخذ كل الإجراءات لدرء هذا الخطر العام. ولم يَدُرْ في خلد أحد ما إذا كان في الإمكان القبض على جهاز منطلق بمثل هذه السرعة. وإنما كانت الوسيلة المؤكدة تتحصر في إقامة سدود متينة على الطرقات لتصطدم بها الآلة إن عاجلًا أو آجلًا فتتهشم.

وقال المتشككون: «حسنًا! إن ذلك المجنون سيعرف كيف يتجنب هذه العقبات».

وأضاف البعض: «وسوف يقفز عند الضرورة من فوق السدود!».

- وإذا كان ذلك هو الشيطان بعينه، فلا بد أن له أجنحة، هي نفس الأجنحة التي كانت له عندما كان ملاكًا، ولن يحدث له أي ارتباك إذا ما تراءى له أن يطير.

هذه كلها من ضروب اللغو الحقيقي، ولم يكن من الممكن إعارتها أي أهمية! فإذا كان لملك الجن هذا زوج من الأجنحة، فلماذا يصر على التجول على الأرض مخاطرًا بدهس المارة بدلًا من أن ينطلق في أجواز الفضاء كالطائر الطليق؟

كان هذا هو الموقف الذي لم يكن من الممكن أن يدوم، والذي كان يقلق الإدارة العليا للشرطة في «واشنطن»، حتى صممت على أن تضع حدًّا له.

وهذا ما حدث في الأسبوع الأخير من شهر مايو، وجعل الجميع يعتقدون أن الولايات المتحدة قد تخلصت من «الوحش» الذي لم يتمكن أحد من القبض عليه حتى ذلك الحين، وبعث على الاعتقاد بأن العالم القديم لن يتعرض لزيارة هذا السائق المتهور الخطر الذي تعرض له العالم الجديد.

ففي هذا الوقت نشرت صحف الاتحاد المختلفة الحادث التالي، ولنا أن نتصور ما أبداه الجمهور بشأنه من مختلف التعليقات.

لقد نظم نادي السيارات في «ويسكونزن» سباقًا في أحد طرق تلك الولاية، وعاصمتها «ماديسون». وكان هذا الطريق حلبة سباق ممتازة ويبلغ طوله مائتي ميل(2)، حيث يبدأ من «بريري دي شيان» وهي مدينة على الحدود الغربية، ويمر «بماديسون»»، ثم ينتهي بعد اجتياز «ميلووكي» بقليل، وهي تقع على شاطئ بحيرة «متشجان»»، وليس في العالم طريق يفوقه سوى الطريق بين «نتكمون» و«نامودي» في اليابان، فهو يمتد في خط مستقيم طوله اثنان وثمانون كيلو مترًا، وتحف به من الجانبين أشجار السرو الضخمة.

(2) حوالي 370 كيلو مترًا.

تقدم للاشتراك في هذه المباراة عدد كبير من الأجهزة من أحسن الماركات. وكان قد تقرر قبول كل أنواع المحركات في السباق، فكان للموتوسيكلات أيضًا أن تنازع السيارات للحصول على الجوائز، وانتظر الناس أن يروا موتوسيكلات هيرتر وديترتش وهي تسير بجوار السيارات الصغيرة الخفيفة التي تخرجها مصانع جوبرون وبربيه وإخوان رينو وريشارد برازيبه وديسكوفيل وداراك وإدر وبايار وكليمونت وشينار رووكر وعربات جيليه -فورست وهاروارد وواطسن، والعربات الكبيرة من طراز موس ومرسيدس وشارون جيراردو فوا وهوتشيكس وبانهار لفاسور وديون بوتون وجاردتر سيربوليت وتيركات ميري وهرشلو ولوبانو وغيرها من جميع البلاد. وكان المبلغ المخصص لمختلف الجوائز كبيرًا جدًّا، إذ لم يكن يقل عن خمسين ألف دولار. ولذلك لم يكن هناك أدنى شك في أن يشتد التنافس للحصول على هذه الجوائز. ومن ثم فقد لبت أحسن المصانع، كما رأينا، نداء نادي السيارات، وأرسلت إليه أجود أنواع سياراتها. وقد كانت تبلغ حوالي أربعين نوعًا من مختلف الأجهزة التي تسير ببخار الماء أو بالبترول أو بالكحول أو بالكهرباء، وسبق لها كلها أن أثبتت صلاحيتها في كثير من المباريات التي تستحق الذكر.

وكانت التقديرات التي تمت على أساس الحد الأقصى للسرعة التي يمكن للسيارات بلوغها وهي بين مائة وثلاثين ومائة وأربعين كيلو مترًا قد قدرت لهذا السباق الدولي أن يستغرق ثلاث ساعات على الأقل في قطع هذه المسافة التي تبلغ مائتي ميل. وفي صباح الثلاثين من مايو منعت السلطات في «ويسكونزن» المرور بين «بريري دي شيان» و«ميلووكي» حتى تتجنب كل خطر.

ولم يكن من المنتظر وقوع أي حادث، اللهم إلا ما قد يقع للمنافسين وهم في معمعة السباق، وهم في هذه الحال المسؤولون عن كل ما هو من هذا القبيل أولًا وأخيرًا،

على حد ما يقال؛ ولكن لن يكون هناك ما يخشى منه على العربات أو على المارة بفضل الإجراءات الحكيمة التي اتُّخذت. وكان الإقبال على مشاهدة ذلك السباق بالغًا، فلم يقتصر على أهل «ويسكونزن»، بل وفد لرؤيته آلاف عديدة من الولايات «إيلينوا»، و«متشجان»، «وإيوا»، و«إنديانا»، كما قدم غيرهم من ولاية «نيويورك».

وكان من الطبيعي أن نجد بين هواة الرياضة هؤلاء عددًا كبيرًا من الأجانب: من إنجليز وفرنسيين وألمان ونمساويين. وكان كل منهم يتمنى النجاح للسائقين من بني وطنه، مدفوعًا بشعوره الطبيعي.

ويجب أن ننوه أيضًا بأنه قد عُقدت مراهنات عديدة لا حصر لأنواعها وذات أهمية بالغة، وليس هذا عجيبًا، فقد كانت تلك المباراة تجري في الولايات المتحدة، ذلك الوطن العجيب لكبار المراهنين في هذا العالم الدنيوي؛ إذ أُقيمت مكاتب خاصة لقبول تلك المراهنات التي ازدادت بدرجة كبيرة في القارة الجديدة منذ الأسبوع الأخير لشهر مايو، حتى بلغ مقدارها مئات الآلاف من الدولارات.

وكان على ضابط التوقيت أن يعطي إشارة القيام في الساعة الثامنة صباحًا. ولكي يمكن تجنب الزحام والحوادث التي قد تنجم عن السباق كان على السيارات أن تتتابع، وبين كل منها والأخرى دقيقتان، على ذلك الطريق الذي اسود جانباه من كثرة المتفرجين.

كانت الجائزة الأولى من نصيب السيارة التي تستطيع قطع المسافة بين «بريري دي شيان» و«ميلووكي» في أقل وقت.

وانطلقت السيارات العشر الأولى التي فازت في الاقتراع بين الساعة الثامنة والثامنة والثلث. وكان من المؤكد أن تصل إلى هدفها قبل الساعة الحادية عشرة إن لم يقع لها حادث. أما السيارات الأخرى فكان عليها أن تتبعها طبقًا لنظام الاقتراع أيضًا. وكان رجال الشرطة يقفون عند منتصف كل ميل يراقبون الطريق. وكان الفضوليون منتشرين على طول المسافة. وإذا كان عددهم كبيرًا في نقطة البداية، فإنهم لم يكونوا أقل عددًا منهم عند «ماديسون» التي تتوسط طريق السباق. وكانوا يشكلون جمهورًا كبيرًا عند «ميلووكي» وهي مكان انتهاء المباراة.

لم تمض ساعة ونصف ساعة حتى كانت بريري دي شيان قد خلت من السيارات ولم تبق فيها سيارة واحدة. وكانت الرسائل التليفونية تعلق كل خمس دقائق على الحالة في ميدان السباق، وعلى الترتيب الذي يتتابع به المتسابقون. كانت تتقدم الجميع عند منتصف الطريق بين «ماديسون» و«ميلووكي» سيارة من طراز إخوان «رينو»، ذات الأربعة «سلندرات» وقوة العشرين حصانًا، أما إطاراتها فكانت من طراز «ميشلان»، تتبعها عن كثب سيارة من طراز «هاروارد واطسون» وأخرى من طراز «ديون –بوتون». وقد وقعت فعلًا بعض الحوادث، إذ كانت بعض المحركات رديئة، كما تعطلت بعض السيارات؛ وأصبح من المحتمل أنه لن يستطيع الوصول إلى الهدف أكثر من اثني عشر سائقًا. وكان الجرحى كثيرين، إلا أن حالتهم لم تكن خطيرة. وعلى العموم حتى لو كان هناك موتى من بين بني البشر، فإن هذا لم يكن ليعتبر أمرًا ذا أهمية في بلاد أمريكا العجيبة!

أين كان فضول الجماهير يزداد، وأين كانت تنطلق مشاعرها بأقصى شدتها؟ كان من الممكن تحديد ذلك.. وكان على وجه التحديد عند أطراف مدينة «ميلووكي». وقد أُقيمت على الشاطئ الغربي لبحيرة «متشجان» لافتة الوصول مزينة بأعلام جميع الدول.

وبالاختصار، أصبح من الواضح بعد الساعة العاشرة أن الجائزة الكبرى ومقدارها عشرون ألف دولار لم يعد يتنافس عليها سوى خمس سيارات، منها اثنتان أمريكيتان واثنتان فرنسيتان وواحدة إنجليزية، وذلك لأنها كانت تسبق الأخريات بشكل واضح، بينما كانت السيارات الأخرى المنافسة تبتعد عنها بمسافات كبيرة بسبب ما وقع لها من حوادث. ومن ثم نستطيع أن نتصور بسهولة ذلك الحماس الشديد الذي اتسمت به المراهنات في هذه المرحلة الأخيرة، فقد كان يثيرها الشعور بالعزة القومية. وقد وجدت وكالات المراهنات صعوبة في إجابة الطلبات، كما أخذت أرقام الرهان ترتفع بسرعة جنونية. وكان وكلاء المصانع الشهيرة للسيارات التي تسير في المقدمة مستعدين للاشتباك بالأيدي، بل لم يكن هناك ما يمنعهم من استعمال المسدسات والخناجر إذا لزم الأمر!

وارتفعت الصيحات:

- واحد مقابل ثلاثة، على سيارة هاروارد –واطسن!

- واحد مقابل اثنين، على سيارة ديون –بوتون!

- واحد مقابل واحد، على سيارة إخوان رينو!

ونستطيع القول بأن هذه الصيحات كانت تدوي على طول الطريق كلما انتشرت الأنباء عن طريق التليفون.

ولكن ما كادت ساعة بلدية «بريري دي شيان» تشير إلى قرب التاسعة والنصف، حتى دوى، على بعد ميلين من هذه القرية، صوت مخيف منبعث من جهاز يجري على الأرض، صوت يخرج من بين سحب كثيفة من الغبار، ويلازمه صفير أشبه بصفير السفن. وقد كان عسيرًا على أولئك الفضوليين المنتشرين على الطريق أن يجدوا من الوقت ما يكفي للابتعاد عن ذلك الجهاز الذي كان من الممكن أن ينقض عليهم وأن يترك مئات الضحايا من البشر. ومرقت السحابة كالإعصار حتى لم يكن في الإمكان تبين ذلك الجهاز الذي انطلق بمثل تلك السرعة الكبيرة.

ونستطيع أن نؤكد من دون أن نُتَّهم بالمبالغة بأن الجهاز كان يسير بسرعة مائتين وأربعين كيلو مترًا في الساعة.

لقد اختفى في لحظة واحدة تاركًا وراءه ذيلًا طويلًا من الغبار الأبيض مثلما يترك القطار السريع خلفه ذيلًا طويلًا من البخار.

كان جليًّا أن الجهاز عبارة عن سيارة زودت بمحرك عجيب. ولو حافظت على هذه السرعة ساعة من الزمن، لأمكن لها أن تلحق بالسيارات التي تتقدم السباق ثم تتجاوزها، بفضل هذه السرعة التي تبلغ ضعف سرعة الأخريات، وبذلك كانت تصل الأولى إلى الهدف.

وبالرغم من أنه لم يعد هناك ما يخشاه المتفرجون المتجمعون على جانبي الطريق، فقد ارتفعت الصيحات الصاخبة من كل مكان:

- هذه هي الآلة الجهنمية التي شوهدت منذ حوالي خمسة عشر يومًا!

- نعم، إنها نفس الآلة التي اجتازت «إيلينوا» و«أهيو» و«متشجان»، والتي لم يستطع رجال الشرطة إيقافها!

- والتي لم يعد أحد يسمع عنها شيئًا، من حسن حظ الأمن!

- والتي اعتقد الجميع أنها انتهت ودمرت واختفت إلى الأبد!

- نعم!... إنها عربة الشيطان، وقودها نار الجحيم، وسائقها إبليس بشحمه ولحمه!.

وإلا فمن يكون إذَنْ ذلك السائق الغامض الذي يقود تلك الآلة التي لا تقل عنه غموضًا بهذه السرعة غير الطبيعية، إذا لم يكن هو الشيطان بعينه؟!

ولم يكن هناك أدنى شك في أن هذا الجهاز الذي كان ينطلق في تلك اللحظة في اتجاه «ماديسون» كان هو نفس الجهاز الذي شاهده الجمهور من قبل، والذي لم يعثر رجال الشرطة بعد ذلك على أي أثر له. فإذا كان رجال الشرطة قد ظنوا أنه لن يصل إلى سمعهم أي خبر عنه بعد ذلك، فها نحن أولاء نرى أنه قد خاب ظنهم! كما يحدث في أمريكا وفي غيرها من البلاد.

وما إن أفاق الجميع من ذهولهم، حتى بادر أولو الأمر إلى التليفون لإنذار المحطات المختلفة حتى يمكن تجنب الأخطار التي تهدد جميع السيارات المشتركة في السباق والمنتشرة على طول الطريق، إذا ما وصل كالسيل الجارف ذلك المخلوق الغامض الذي يقود هذا الجهاز الصاعق، فقد يسحق هذه السيارات ويمحوها من الوجود. ومن يدري؟ فربما خرج هو من هذا الصدام المروع سليمًا معافى!

ولكن لا بد أن يكون أمير السائقين هذا ذا مهارة فائقة، ولا بد أنه يدير آلته وهو مطمئن تمامًا لنظرة عينه وحركة يده؛ ومن ثم يستطيع من دون شك أن يتجنب الاصطدام بأي عائق! ومهما كان الأمر، فإنه إذا كانت سلطات «ويسكونزن» قد اتخذت الإجراءات الكفيلة بقصر الطريق على المتنافسين في المباراة الدولية وحدهم، فإن هذا الطريق لم يعد مقصورًا عليهم.

وهذا ما بُلِّغ به المتسابقون الذين أخطروا بالأمر تليفونيًّا، فاضطروا لإيقاف الصراع للحصول على الجائزة الكبرى التي وضعها نادي السيارات: كانت سرعة تلك المركبة العجيبة، في تقديرهم، تقرب من مائة وثلاثين ميلًا في الساعة. وكانت هذه هي سرعتها في اللحظة التي تجاوزتهم فيها، فأمكنهم بصعوبة بالغة التعرف على شكلها. كانت صاروخية الشكل، مستطيلة، لا يتجاوز طولها عشرة أمتار. وكانت عجلاتها تدور بسرعة لا تجعل في الإمكان رؤية محاورها، أضف إلى ذلك أنها لم تكن تترك وراءها بخارًا أو دخانًا أو رائحة.

أما السائق الذي كان يختفي داخل سيارته، فقد كان من المستحيل رؤيته، بل ظل مجهولًا كما حدث في الوقت الذي شُوهد فيه أول مرة في طرق الاتحاد.

وأخطرت «ميلووكي» عن طريق المحطات التليفونية بوصول هذا الدخيل. وإنه لمن السهل أن نتصور الاضطراب الذي سببه ذلك الخبر. وكان أول شيء عرض على بساط البحث وقف هذه القذيفة، وإقامة عائق بعرض الطريق لكي تصطدم به وتتهشم! ولكن هل كان الوقت يتسع لهذا العمل؟ ألم يكن في وسع هذا السائق أن يظهر من لحظة إلى أخرى؟ ثم ما فائدة ذلك؟ ألن يكون مضطرًّا في نهاية الأمر إلى

التوقف إن طوعًا وإن كرهًا، فالطريق ينتهي ببحيرة متشجان، ولن يستطيع تجاوزها، اللهم إلا إذا تحولت سيارته إلى جهاز للملاحة؟

تلك هي الأفكار التي كانت تراود عقول المتفرجين المتجمعين أمام ميلووكي، بعد أن اتخذوا الحيطة لأنفسهم، فوقفوا بعيدًا عن الطريق بمسافة كافية حتى لا يصدمهم ذلك الإعصار المنطلق.

وهناك أيضًا، كما حدث في بريري دي شيان وفي ماديسون، انتشرت التفسيرات والفروض المبالغ فيها كل المبالغة. أما أولئك الذين لم يشاءوا التسليم بأن السائق الغامض هو الشيطان نفسه، فإنهم لم يستبعدوا أن يروا فيه وحشًا، هرب من حظائر الوحوش الأسطورية.

وأصبح المتفرجون يترقبون ظهور السيارة بين لحظة وأخرى.

ولم تحن الساعة الحادية عشرة حتى سُمِع من بُعْد سير عجلات على الطريق، ورأوا الغبار يرتفع منها على شكل دوامات لولبية. وعندئذٍ أخذت صفارات حادة تمزق أجواز الفضاء، داعية الجميع إلى إفساح الطريق أمام ذلك الوحش، إنه لم يقلل من سرعته... مع أن بحيرة متشجان كانت قد أصبحت على مسافة نصف ميل منه. وكانت سرعته كافية لأن تلقي به في البحيرة!... فهل أفلت الزمام من يد ذلك الميكانيكي ولم يعد مسيطرًا على آلته؟

لم يكن هناك أدنى شك في هذا الأمر، فقد وصلت السيارة في سرعة البرق إلى جوار «ميلووكي». فهل يا ترى سنراها؛ إذا ما جاوزت المدينة، تندفع إلى بحيرة «متشجان» وتبتلعها مياهها؟

وعلى أي حال لقد اختفت عند منحنى الطريق، ثم لم يعثر أحد لمرورها على أثر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس

ما شُوهد على شواطئ «نيو إنجلند»

نُشرت هذه الأحداث في الصحف الأمريكية بعد أن عدت إلى «واشنطن» بشهر. وكنت قد حرصت منذ وصولي على مقابلة رئيسي، ولكن وا أسفاه لم أتمكن من رؤيته، إذ كانت هناك ظروف عائلية اضطرته للتغيب عن مكتبه بضعة أسابيع. ولكن مما لا شك فيه أن السيد وارد كان قد علم بعدم نجاح مهمتي. إذ كانت جميع صحف كارولين الشمالية، قد ذكرت بدقة تفصيلات محاولتي لتسلق «جريت أيري» برفقة عمدة «مورجانتون».

ويمكنك أن تتخيل مدى ما كنت أشعر به من مرارة لفشلي في تلك المحاولة، التي لم تأت بأي فائدة. أما فشلي في إشباعي لغريزة الاستطلاع عندي، فلا داعي لأن أحدثك عنه. والواقع أنني لم أشأ الاستسلام لهذا الفشل، حتى لا يتكرر في المستقبل... ماذا؟ كيف لا يمكنني الوصول إلى أسرار «جريت أيري»؟!! لا.. لن أتقهقر! حتى لو اضطررت لمعاودة المحاولة عشر مرات، أو عشرين مرة، وتحملت الكثير من المخاطر، حتى ولو أدى ذلك إلى سقوطي من أعلى قمة في الجبل!

لقد كان جليًّا أن دخول تلك المنطقة لم يكن فوق طاقة البشر.. فلم يكن من المستحيل إقامة الصقالات التي تصل إلى القمة، أو شق ممر خلال جدار السور السميك. فقد كان مهندسونا يقومون كل يوم بأعمال أكثر من هذه صعوبة. ولكن هذا العمل كان يتطلب المال الوفير، الذي لا يتناسب إطلاقًا مع الفائدة التي يمكن الحصول عليها من ورائه، إذ كان يكلف الآلاف العديدة من الدولارات. ولكن ما الفائدة المرجوة التي كان يمكن أن تعود من ذلك العمل الباهظ النفقات؟ لو كان هناك بركان في ذلك المكان من الجبال الزرق فلن يستطيع أحد إخماده.. ولو كان ذلك البركان يهدد المنطقة بثورانه فلن يتمكن أحد من منعه... وهكذا كان من الواضح أن كل عمل في هذا الميدان لا طائل تحته، ولا نتيجة له إلا إرضاء الاستطلاع.

وعلى كل حال، فمهما كان اهتمامي بذلك الموضوع، ومهما كانت رغبتي في أن أطأ «جريت أيري» بقدمي، فإني لم أكن لأفكر في القيام بذلك العمل على حساب مواردي الخاصة. وقلت لنفسي بحزن عميق:

«كان من الواجب أن يحاول ذلك أحد أصحاب الملايين الأمريكيين! ويجب أن يقوم به أمثال آل جولد، وآستور، وفاندر بلت، وروكفلر، ومكاي، وبيير بونت مورجان! ولكنهم لن يفكروا في ذلك. فهؤلاء المحتكرون تدور في رؤوسهم أفكار كثيرة أخرى!».

آه! لو كان ذلك الجبل يحوي بين أحشائه بعض العروق الثمينة من الذهب، أو من الفضة، لذهبوا إليه سعيًا على الأقدام. ولكن ذلك الفرض لم يكن محتملًا على الإطلاق، فإن سلسلة أبالاش ليست في كاليفورنيا، ولا في كلونديك، ولا في أستراليا، ولا في الترانسفال، تلك البلاد التي تمتاز بمناجم الذهب التي لا تفنى!

كان ذلك في صباح الخامس عشر من شهر يونية عندما استقبلني السيد وارد بمكتبه، وكان على علم بفشل البحث، الذي كان قد عهد به إلي. ومع ذلك فقد أحسن استقبالي، إذ صاح عند دخولي قائلًا:

- ها هو ستروك، ذلك المسكين الذي لم ينجح!

فأجبته:

- تمامًا.. كما لو كنت قد كلفتني بإجراء بحث على سطح القمر؛ لقد فوجئنا في الواقع بعقبات مادية بحتة، ولم يكن في استطاعتنا أن نتغلب عليها في الظروف التي عملنا فيها!

- إني أصدقك يا ستروك، أصدقك من كل قلبي! ولكن الشيء الذي لا شك فيه هو أنك لم تكتشف شيئًا مما يحدث داخل «جريت أيري».

- نعم يا سيد وارد.

- وفي تلك الأثناء، ألم تر أي لهب يظهر؟

- نعم.. لم أر شيئًا.

- ألم تسمع أي صوت يدعو إلى الريبة والشك؟

- نعم،.. لم أسمع.

- وهل ما زلت تريد أن تعرف ما إذا كان هناك بركان أم لا؟

- لا أزال يا سيد وارد؛ ولو كان هناك بركان فإني أعتقد أنه يغط في نوم عميق.

- حسن، ولكن لا شيء يثبت أنه لن يصحو من غفوته يومًا من الأيام! أترى يا ستروك؟ إنه لا يكفي أبدًا أن يكون هناك بركان نائم، بل يجب أن يكون خامدًا! اللهم إلا إذا كان كل ما حدث وكل ما كانت تلوكه الألسن، ليس إلا من صنع خيالات أهل كارولين!

- لا أعتقد ذلك يا سيد وارد. فإن السيد سميث عمدة «مورجانتون»، وصديقه عمدة «بليزانت جاردن»، يؤكدان حقيقة هذا الأمر إذ يقولان: إن ألسنة اللهب ظهرت فوق «جريت أيري»! وقد كانت تنبعث منها أصوات لا يمكن معرفة كنهها في حقيقة واقعة لا مراء فيها!

فأجاب السيد وارد قائلًا:

- حسن، إني أفترض أن العمدتين وسكَّان الإقليم لم يخطئوا، ولكن، مهما كان الأمر، فإن سر «جريت أيري» لا يزال غامضًا.

- إذا كان لا بد من معرفة ذلك السر يا سيد وارد، فيجب تحديد المبلغ المطلوب؛ وإذا ما قدرت النفقات اللازمة، فسنتمكن من عبور تلك الأسوار الضخمة.

فأجاب السيد وارد:

- من دون شك. ولكن هذا العمل لا ضرورة له الآن. ومن الأفضل أن ننتظر. فمن يعلم؟ ربما أتتنا الطبيعة بمفتاح ذلك السر من تلقاء نفسها.

- يا سيد وارد، إني آسف لأني لم أتمكن من إنجاز تلك المهمة، التي عهدت بها إليّ.. أرجو أن تصدقني.

- لا تأسف يا ستروك، وانظر إلى عدم نجاحك هذا نظرة فلسفية. فنحن لا نُوفَّق دائمًا في عملنا، والحملات التي يشنها رجال الأمن لا تكلل دائمًا بالنجاح! خذ مثلًا موضوع الجرائم، ما أكثر المذنبين الذين يهربون منا، بل إني أصارحك أننا لا

نتمكن من القبض على واحد منهم إذا كانوا شديدي اليقظة والتبصر بالأمور، أو حتى إذا كانوا لا يتصرفون بحماقة تحيطهم بالشبهات! ولكنهم يسلمون أنفسهم بأنفسهم إذا ما تكلموا دون تعقل! وفي رأيي أنه لا شيء أسهل من إعداد جريمة سواء أكانت قتلًا أم سرقة، ولا شيء أيسر من تنفيذها دون ترك ما يثير الشكوك والريب، وبذلك يفلتون من كل مطاردة.. ولعلك تفهم يا ستروك أني لست أنا الذي سوف أعطي دروسًا في المهارة والفطنة للسادة المجرمين! هذا إلى أني أكرر لك ثانية أن المجرمين الذين لم يتمكن رجال الأمن من القبض عليهم عديدون!

ولقد كنت حقًّا أشارك رئيسي رأيه في ذلك الموضوع؛ فعالم الجرائم هو ذلك العالم الذي يتقابل فيه أكثر الناس بلاهة!

إلا أن السلطات –سواء أكانت مدنية أم غير مدنية- لم تكن قد ألقت النور بعد على تلك الأحداث التي جعلت من بعض الولايات مسرحًا لها. وأقل ما كان يمكن أن يقال إن ذلك كان يبدو عجيبًا لي، وأخال القارئ يوافقني رأيي. ولهذا لم أتمكن من إخفاء دهشتي البالغة عندما فاتحني السيد وارد في هذا الموضوع.

نعم، كان هذا الموضوع يدور حول العربة التي لم يتمكن أحد من اللحاق بها، والتي أخذت منذ وقت غير بعيد تجري في الطريق، معرضة كل ما يقابلها من مشاة وخيل وعربات للخطر، إذ كانت سرعتها تضرب جميع الأرقام القياسية لسرعة السيارات. ومنذ الأيام الأولى لظهورها، وبعد أن علمت السلطات بأمر خطرها، كانت قد صدرت الأوامر لتحرير مخالفة لذلك المخترع المريع، ووضع حد لنزواته المخيفة، ولكن لم يكن أحد يعرف من أين يظهر! كان يُرى، ويختفي بسرعة البرق! وقد اشترك عدد كبير من رجال الشرطة الممتازين في مطاردته، ولكنهم لم يتمكنوا من اللحاق به، وها هو ذا قد ظهر أخيرًا بين «بريري دي شيان» و«ميلووكي» في غمرة المسابقة التي نظمها نادي السيارات الأمريكي، وقد قطع ميدان سباق المائتي ميل في أقل من ساعتين!

ولكن ماذا حدث لذلك الجهاز بعد ذلك؟ لا أحد يعلم! هل ابتلعته مياه بحيرة «متشجان» عندما وصل إلى نهاية الطريق، مندفعًا بقفزته حتى لم يستطع التوقف؟ أمن الممكن أن يكون قد هلك هو وعربته؟ وأنهما لن يعودا موضوع حديث الناس؟ ولكن الغالبية العظمى من الشعب كانت ترفض قبول ذلك الحل، وإن كان أحسن الحلول المقترحة؛ إذ كانت تتوقع أن تعود إلى رؤيته بين آونة وأخرى!

من المؤكد أن المخاطرة كانت في نظر السيد وارد أمرًا خارقًا للطبيعة، وكنت أشاركه رأيه. وإذا كان هذا السائق الشيطاني لن يعود بعد ذلك إلى الظهور، فيجب إضافة ظهوره إلى تلك الأسرار، التي لم يتمكن الإنسان من أن يعرف كنهها!

وبعد أن تحدثت أنا ورئيسي في ذلك الموضوع، كنت أعتقد أن مقابلتنا ستنتهي. ولكن بعد أن سار بضع خطوات يذرع حجرة مكتبه قال لي:

- حقًّا!.. إن ما حدث على طريق «ميلووكي» أثناء السباق الدولي أغرب شيء في الوجود... ولكن إليك ما لا يقل غرابة عنه!

وأعطاني السيد وارد تقريرًا، كان قد تسلمه من رجال الأمن في «بوسطن»، وكان يتعلق بواقعة أخذت تنشرها الصحف على قرائها منذ هذا المساء نفسه.

وبينما كنت أقرأ التقرير كان السيد وارد جالسًا أمام مكتبه ينجز رسالة كان قد بدأها قبل زيارتي له. أما أنا فكنت جالسًا بالقرب من النافذة أقرأ ذلك التقرير، الذي أخذت كلماته تثير اهتمامي، وكان من بينها: «إن سواحل «نيو إنجلند» من جهة شواطئ «مين» و«كونكتكت» و«ماساتشوستس» أزعجها منذ أيام ظهور شيء لم يتمكن أحد من أن يحدد طبيعته.

«فعلى بعد ميلين أو ثلاثة أميال من شاطئ البحر كانت تُرى على سطح الماء كتلة متحركة ضخمة تقوم بمناورات سريعة، ثم أخذت بعد ذلك تبتعد، وهي تنزلق على صفحة الماء، ولم تلبث أن اختفت بسرعة في عرض البحر.

«كان ذلك الجسم ينتقل بسرعة فائقة، وكان من الصعب ملاحقته بأحسن أدوات الرؤية البعيدة المدى. وطوله لم يكن يتعدى ثلاثين قدمًا. وكان شكله يشبه المغزل، ولونه يميل إلى الاخضرار مما جعل من الصعوبة بمكان تمييزه من مياه البحر. وقد شُوهد عند ذلك الجزء من الساحل الأمريكي الذي يمتد بين «رأس الشمال» من ولاية «كونكتكت»، «ورأس الرمال» الواقعة في أقصى الغرب من «نوفيل إيكوس.

«ولقد حاولت بعض الزوارق البخارية في بروفيدانس وبوسطن وبورتسموث وبورتلاند أن تقترب منه، كما حاولت أيضًا أن تطارده؛ ولكنها لم تستطع اللحاق به. وهكذا أصبحت مطاردته عديمة الجدوى، فقد اختفى عن الأنظار في لحظات.

«ونحن لا نعجب لتلك الآراء التي كانت تتضارب حول التكهن بحقيقة ذلك الشيء، ولكن حتى ذلك الوقت لم يكن فرض واحد يقوم على أساس أكيد، وقد ضل رجال البحر في رأيهم، كما ضل الآخرون.

«وكان البحارة والصيادون يقولون إن ذلك الجسم لا بد أن يكون أحد الحيوانات الثديية من فصيلة الحيتان البحرية. ولكن ما لا يجهله أحد عن تلك الحيوانات أنها تغوص في الماء بطريقة خاصة، وبعد أن تبقى عدة دقائق تحت سطحه تعود إلى الظهور ثانية وهي تقذف بخياشيمها أعمدة من سائل ممتزج بالهواء. وهنا يجب أن تقول: إن كان ذلك الجسم حيوانًا كما يقول صيادو الحيتان، فإنه لم يسبق له أن نزل أعماق الماء مطلقًا، أضف إلى ذلك أنه لا يتوارى أبدًا بالغطس في الماء، كما أن أحدًا لم يشاهد أو يسمع نفثات أنفاسه القوية.

«ولكن إذا كان من غير فصيلة الثدييات البحرية، فهل يمكن أن يكون واحدًا غير معروف، أتى من أعماق المحيطات، مثل تلك الحيوانات التي تصورها لنا أساطير العصور الغابرة؟ وهل يمكن أن يكون من فصيلة الأخطبوط، أو ثعبان البحر، التي لا يجهلها أحد، والتي يخشى الجميع هجومها؟

«وعلى أي حال، وكيفما كان نوع ذلك الوحش، فمنذ أن ظهر في أنحاء نيو إنجلند، لم تعد تجرؤ القوارب الصغيرة ولا سفن الصيد على المجازفة بالدخول في عرض البحر.

«لقد أصبحت تسرع بالوصول إلى أقرب ميناء إذا ما هتف أحد بوجوده. كان الحذر يتطلب ذلك قطعًا، وكان من الحكمة ألا يتعرض أحد لهجمات ذلك الحيوان إذا ما كان من طبيعته الاعتداء.

«أما السفن الشراعية التي تجتاز المسافات الطويلة، والسفن البخارية الكبيرة، فلم تكن تخشى بأس ذلك الوحش، سواء أكان حوتًا أم غير حوت. لقد رآه بحارتها عدة مرات وهو على بعد أميال عديدة منهم؛ ولكنهم ما كانوا يكادون يبدأون محاولتهم للحاق به حتى يبتعد بسرعة فائقة، تحول دون الاقتراب منه. وفي ذات يوم خرج من ميناء بوسطن طراد حكومي، إن لم يكن من أجل اللحاق به، فلتوجيه بعض القذائف نحوه. ولكن لم تكد تمضي لحظات قليلة حتى صار الحيوان بعيدًا عن متناول أيديهم، وكانت تلك محاولة يائسة. وإلى هذه اللحظة لم يكن يبدو أنه يعتزم مهاجمة زوارق الصيادين».

وهنا توقفت عن القراءة، وقلت موجهًا حديثي إلى السيد وارد:

- إذَنْ ليس هنالك من يشكو حتى الآن من وجود ذلك الوحش... فهو يهرب أمام السفن الكبيرة،.. ولا ينقض على السفن الصغيرة... ولهذا فإني أعتقد أن اضطراب سكَّان شاطئ البحر ليس شديدًا.

- بل هو فظيع على الرغم من ذلك يا ستروك، وهذا التقرير خير شاهد على ذلك.

- ولكن لا يبدو على ذلك الحيوان ما يدل على خطورته يا سيد وارد؛ وفضلًا عن ذلك سيتمخض الأمر عن أحد شيئين؛ إما أن يغادر تلك المناطق في يوم من الأيام؛ وإما أن يُقبض عليه في آخر الأمر، وعندئذٍ سنراه بكامل هيئته في المتحف بمدينة واشنطن..

فأجاب السيد وارد:

- وما قولك إذا لم يكن ذلك وحشًا بحريًّا؟

فسألته وأنا في دهشة من إجابته:

- وماذا يكون إذَنْ؟..

فقال:

- استمر في قراءتك!

ففعلت. وهذا ما علمته من قراءة الجزء الثاني من التقرير، الذي أَشَّرَ رئيسي تحت بعض فقراته بالقلم الأحمر:

«ولفترة من الزمن، لم يكن أحد يشك في أنه وحش بحري، وأنه قد ينتهي الأمر بتخليص المناطق من وجوده إذا ما طورد بعنف. ولكن حدث انقلاب مفاجئ في الرأي، إذ إن بعض المطلعين على بواطن الأمور قد أشاروا في نهاية الأمر إلى أنه، بدلًا من أن يكون ذلك الشيء حيوانًا، ربما كان جهازًا جديدًا للملاحة، جاء يشق مياه نيو إنجلند. ولا شك في أن ذلك الجهاز لا بد أن يكون على درجة كبيرة من الكمال والإتقان، وقد أراد مخترعه قبل أن يبوح بسر اختراعه أن يثير الاهتمام العام به، بل ويثير الذعر أيضًا لدى سكَّان الشاطئ. وإن ذلك الضمان في آلاته، وتلك السرعة في مناوراته، وهذه السهولة في الانفلات من المطاردات بفضل قدرته الفائقة على الانتقال من مكان إلى مكان آخر لخير دليل على رغبته في إثارة الاستطلاع!

«لقد تقدمت صناعة السفن الميكانيكية تقدمًا كبيرًا في هذا العصر، وبلغت عابرات المحيطات في السرعة حدًّا فائقًا، حتى أصبحت تكفيها خمسة أيام لعبور المسافة بين

القارتين القديمة والحديثة. وما كان للمهندسين أن يكتفوا بذلك.

«أما البحرية الحربية فلم تتخلف هي الأخرى، إذ إن الطرادات وقاذفات الطوربيد والسفن المضادة لقاذفات الطوربيد أصبحت كلها تنافس أسرع سفن الأطلنطي، والمحيط الهادي، وبحر الهند.

«إلا أنه إذا كان الأمر يتعلق حقًّا بسفينة من طراز جديد، فإنه لم يكن من الممكن بعد ملاحظة شكلها الخارجي. ولكن لا بد أن يكون المحرك، الذي يسيرها ذا قدرة تجعل من المستحيل بمكان على أسرع السفن أن تقترب منها. ولكن.. من أي سائل كانت تستمد قوتها المحركة؟ وبأي شيء كانت تدور؟ أبالبخار؟ أم بالكهرباء؟ كان من المستحيل معرفة ذلك.. ولكن المؤكد أنها لم تكن تعمل بقوة الرياح، إذ لم تكن لها أشرعة، كما أنها لم تكن تسير بالبخار، إذ لم يكن لها مدخنة».

وتوقفت مرة أخرى عن القراءة عند ذلك المكان من التقرير. وأخذت أمعن التفكير فيما قرأت.

وقال لي رئيسي:

- فيمَ تفكر يا ستروك؟

قلت:

- أفكر في ذلك يا سيد وارد... أفكر فيما كُتب عن المحرك المشار إليه للسفينة المذكورة، فله من القوة والغموض ما للمحرك الذي كان للسيارة الخيالية، التي لم نعد نسمع عنها منذ سباق النادي الأمريكي.

- أهذا هو ما وصلت إليه؟

- نعم يا وارد.

وعندئذٍ وجدت نفسي أمام هذه النتيجة: إذا كان ذلك السائق الغامض قد اختفى، وكان قد فقد هو وجهازه في مياه بحيرة متشجان، فيجب الحصول بأي وسيلة على سر ذلك الملَّاح، الذي لا يقل غموضًا عنه، ونرجو ألا يكون قد ابتلعه اليم قبل أن يبوح بسره. أليس في صالح المخترع أن يلقي الضوء على اختراعه؟ أو لن تعطيه أمريكا، أو أي دولة أخرى الثمن الذي يطلبه؟

وإذا كان مخترع الجهاز الأرضي قد ظل مجهولًا إلى الأبد لسوء الحظ، أفلم يكن يخشى أن يحتفظ مخترع الجهاز البحري هو الآخر بسره لنفسه؟ وإذا فرض أن الأول لا يزال حيًّا، فإن أحدًا لم يعد يسمع عنه شيئًا. فهل سيحدث نفس الشيء للمخترع الثاني؟ هل سيختفي هو الآخر بدوره دون أن يترك أثرًا يدل عليه، بعد أن قام بمناوراته في بوسطن، وبورتسمرث، وبورتلاند؟

ومما كان يخلع على ذلك الافتراض وجاهته أنه منذ أن وصل التقرير إلى واشنطن، أي منذ أربع وعشرين ساعة من ذلك الحين، لم تُشِرْ «سيما فوارت» الشاطئ إلى وجود تلك الآلة العجيبة في عرض البحر!

أضف إلى ذلك أنها لم تظهر في جهات أخرى، ولكن إذا كنا نقرر اختفاءها، كان في ذلك من الخطر ما فيه!

ومن المناسب في هذا المقام أن أذكر هذه النقطة: تلك أن الفكرة، التي كانت تقول بظهور أحد الثدييات المائية، أو الحيتان أو الأخطبوط، أو أي حيوان مائي آخر، قد استبعدت تمامًا، إذ أخذت صحف الاتحاد المختلفة تدرس في نفس اليوم ذلك الحدث العجيب، وتعلق عليه. واختتمت مقالاتها بوجود جهاز للملاحة، يمتاز بخواص أفضل من الأجهزة الحالية، من حيث التطور، والسرعة. وكانت الصحف جميعها متفقة على أن ذلك الجهاز لا بد وأن يكون مزودًا بمحرك كهربي، ولكن لم يتمكن أحد من أن يتخيل المنبع الذي كان يستمد منه كهرباءه.

ولكن الأمر الذي لم تكن الصحافة قد لفتت النظر إليه -ذلك الذي لن يغيب عن بالنا طويلًا في أغلب الظن- هو تلك المصادفة الغريبة التي كان لا بد أن تخطر على البال، وقد ذكرني بها السيد وارد في نفس اللحظة التي كنت أنا أفكر فيها بنفسي.

فمنذ أن اختفت تلك السيارة العجيبة، ظهرت هذه السفينة التي لا تقل غرابة عنها... كما أن كلا الجهازين يمتاز بقدرة هائلة على السير.. وإذا ظهر الاثنان من جديد، الأول على ظهر الأرض، والآخر على سطح البحر، أصبحت السفن، والمارة، والسيارات معرضة لنفس الخطر... ولهذا فلا بد أن يتدخل رجال الأمن بطريقة ما لسلامة الأمن العام في الطرقات، وعلى سطح المياه!

ذلك ما حدثني به السيد وارد، وقد كان واضحًا تمام الوضوح... ولكن كيف الوصول إلى هذه النتيجة؟

وأخيرًا، بعد مناقشة استغرقت بعض الوقت، وكنت على وشك الانصراف، أوقفني السيد وارد قائلًا:

- ألم تلاحظ يا ستروك أن هناك شبهًا عجيبًا في طريقة السير بين السفينة، والسيارة؟..».

قلت:

- حقًّا يا سيد وارد!

قال:

- حسن، ومن يدري؟.. فقد يكون الجهازان جهازًا واحدًا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السَّادس

الرِّسَالة الأولى

وبعد أن تركت السيد وارد توجهت إلى منزلي بشارع «لونج»، وهناك استسلمت لخيالاتي دون أن يقطع عليَّ أحد حبل تفكيري، فلم يكن لي هناك زوجة ولا أولاد. ولم يكن بمنزلي إلا خادمة عجوز، كانت في خدمة أمي منذ خمسة عشر عامًا، وظلت بعد ذلك في خدمتي.

كنت قد حصلت على إجازة قبل ذلك بشهر، وكان من الممكن أن تطول هذه الإجازة خمسة عشر يومًا أخرى، إلا إذ جدت ظروف طارئة مهمة لا تحتمل أي تأخير.

ولكنك تعرف أنه قد اقتطع من هذه الإجازة ثلاثة أيام بسبب التحقيق حول الظواهر التي شُوهدت في «جريت أيري».

والآن هل سيعهد إليَّ بإلقاء الضوء على تلك الأحداث، التي كان طريق ميلووكي من جهة، وشواطئ بوسطن من جهة أخرى ميدانًا لها؟ ومن يدري فربما أصل إلى معرفة ذلك... ولكن كيف يمكن العثور على آثار تلك السيارة وتلك السفينة؟ فالمصلحة العامة، وضمان سلامة المياه والطرقات، كل ذلك يتطلب حتمًا استمرار البحث للوصول إلى تلك الغاية... ولكن ما العمل ولا أحد يعرف الوصف الدقيق لهذين السائقين. وحتى لو كنا قد عرفنا، فكيف كان يمكن القبض عليهما لدى مرورهما؟

وبعد أن عدت إلى منزلي وتناولت طعام الغداء، أشعلت غليوني، ثم فتحت صحيفتي.. لم أكن في الواقع أهتم بالسياسة، ولا بذلك الصراع الدائم بين الجمهوريين والديموقراطيين.. لذلك بدأت بصفحة الحوادث.

لا تُدهش أيها القارئ إذا علمت أن اهتمامي كان منصبًّا على العثور على بعض الأخبار الآتية من كارولين الشمالية، وتتعلق بموضوع «جريت أيري»، فربما وجدت أنباء من مورجانتون، أو من بليزانت جاردن.. أضف إلى ذلك أن السيد سميث كان قد وعدني وعدًا قاطعًا، بأن يطلعني أولًا بأول على مجرى الحوادث. وأنه إذا أضيئت المنطقة باللهب، فلن يتردد في أن يبعث إليَّ ببرقية في الحال. وإني أعتقد اعتقادًا راسخًا أن عمدة مورجانتون كان لا يقل رغبة عني في محاولة اقتحام جوف تلك السلسلة من الجبال، إذ كانت عنده الرغبة الأكيدة في أن نستأنف محاولتنا من جديد إذا ما واتتنا الفرصة.. ولكن وا أسفاه! لم تصلني منه أي برقية منذ رحيلي!

ولم أحصل على جديد من قراءتي للصحيفة، فسقطت من يدي دون أن أشعر، وظللت غارقًا في خيالاتي.

كانت تجول بخاطري تلك الفكرة التي أبداها السيد وارد، فمن الجائز أن تكون السيارة والسفينة جهازًا واحدًا. وفي هذه الحالة يحتمل تمامًا أن تكون نفس اليد التي صنعت كلا الجهازين واحدة. ومن المحتمل في هذه الحال أن يكون محرك واحد هو الذي يمدهما بتلك السرعة الفائقة، التي تتجاوز ضعف الأرقام القياسية، التي أمكن الحصول عليها حتى ذلك الوقت في السباقات البرية والبحرية.

وأخذت أعيد تلك الكلمات: «نفس المخترع».

ومن الواضح أن ذلك الافتراض لم يأت بشيء يخالف الاحتمال، كما أن عدم رؤية الجهازين في وقت واحد، كان إلى حد ما يسمح بقبول احتماله، ورحت أقول لنفسي:

«ها هو ذا سر خليج بوسطن يداهمنا بعد سر «جريت أيري»! ولكن هل سيكون مصيره هنا كمصيره هناك؟ ألا يمكن الوصول إلى معرفة ذلك الغموض في كلتا الحالتين؟».

ولكن يجب أن أذكر أن ذلك الحدث الأخير كان له دوي خطير؛ إذ كان يهدد الأمن العام. فسكَّان المنطقة المجاورة للجبال الزرق كانوا هم المعرضون وحدهم للخطر إذا انبعث أن ثوران بركان، أو إذا حدث زلزال. أما إذا عادت تلك السيارة للظهور فجأة في أي طريق من طرق الولايات المتحدة، أو لمحت تلك السفينة من أي شاطئ من الشواطئ الأمريكية، فسيكون ذلك مصدرًا لأخطار حقيقية، يتعرض لها الغالبية من عامة أبناء الوطن.

وهذا ما كانت تبرزه آلاف الصحف التي كان يتهافت الشعب على قراءتها: إنه لو ظهرت تلك المركبة لكانت كالصاعقة التي تهدد بإصابتك دون سابق إنذار! سيكون كل أمريكي موجود خارج منزله عرضة لأن يُفاجأ بغتة بوصول ذلك السائق الذي لا مفر منه! كيف تذهب إذَنْ وتجازف بحياتك في أحد الشوارع، أو في أحد الطرق التي تخترقها طلقات القذائف!

لذلك لم أكن أدهش حين أرى النفوس تضطرب بسبب تلك الإذاعات، وخاصة نفس خادمتي العجوز، التي كانت تعتقد اعتقادًا راسخًا في الأساطير الخارقة للطبيعة. ففي ذلك اليوم، بينما كانت ترفع ما على المائدة من أدوات بعد العشاء، توقفت «جراد» فجأة وفي إحدى يديها إبريق، وفي الأخرى طبق، وأخذت تحملق في وجهي، ثم تقول:

- هل من جديد يا سيدي؟

فأجبتها وقد فطنت إلى ما كان يشير إليه سؤالها.

- لا شيء.

قالت:

- ألم تعد تلك العربة.

- لا يا جراد.

- ولا السفينة؟

- ولا السفينة، حتى في الصحف ذات المصادر الموثوق بها!

- ولكن بالنسبة لموظفي مكتبك!

- إنهم لا يعلمون عن هذا الموضوع أكثر من ذلك!

- خبِّرني إذَنْ من فضلك يا سيدي، ما فائدة رجال الأمن؟

- هذا سؤال كثيرًا ما وجَّهته لنفسي في مناسبات كثيرة!

- إن ذلك لمما يطمئن حقًّا، وذات صباح سنجد السائق اللعين قد أتى دون إخطار، وسيُرى في واشنطن، وهو ينطلق في «لونج ستريت» مجازفًا بسحق المارة...

- أوه! في هذه المرة يا جراد ستكون هناك فرصة للقبض عليه.

- لن يتمكن أحد من ذلك يا سيدي!

- ولماذا؟

- لأن هذا السائق هو الشيطان بعينه، ولا يمكن لأحد أن يقبض على الشيطان!

فقلت لنفسي: حقًّا إن الشيطان عريض الجدار، وإني أعتقد أنه لم يخترع إلا ليفسر به السذج تفسير ما لا يمكن تفسيره؛ فهو الذي أشعل لهيب «جريت أيري»! وهو الذي ضرب الرقم القياسي في السرعة على طريق وسكونزن الفسيح! وهو الذي يقوم بالمناورات في أنحاء كونكتكت وماساتشوستس!

ولكن فلنترك جانبًا تدخل تلك الروح الشريرة، الذي هو كما أعتقد، صدى لأفكار بعض العقول غير المثقفة! فإن الذي لا شك فيه هو أن كائنًا بشريًّا، يستحوذ الآن الى جهاز أو جهازين للمواصلات، يفوقان أحسن الآلات الموجودة على ظهر الأرض وعلى سطح البحر.

ولكني سألت نفسي قائلًا:

لماذا لم يعد يسمع عنه أحد؟ أكان يخشى أن ينتهي الأمر بالقبض عليه واكتشاف سر اختراعه الذي كان يحاول في أغلب الظن أن يحتفظ به لنفسه؟ إلا أننا كنا نعود دائمًا -إن طوعًا وإن كرهًا- إلى ذلك الحل؛ ربما يكون قد أصيب في حادث ما وحمل معه سره إلى العالم الآخر! ولكن إذا كان هلك في مياه بحيرة «متشجان» أو في مياه «نيو إنجلند» فكيف يمكن الوقوف على أثره؟ إنه سيكون كما لو كان شهابًا أو نيزكًا سرى خلال الفضاء، وتكون مغامرته بعد ألف عام أسطورة تقصها أمثال خادمتي جراد خلال القرن الثلاثين.

اهتمت صحف أمريكا؛ ثم صحف أوروبا وقتًا طويلًا بذلك الحدث، وكَتَبَتْ في شأنه مقالات تلو مقالات! وأخبارًا خاطئة تلو أخبار خاطئة! وراجت حوله الإشاعات من كل جنس! فقد كانت شعوب القارتين تهتم به اهتمامًا بالغًا له معناه. ومن يدري، فقد تكون دول أوروبا المختلفة تشعر ببعض الغيرة من أن ذلك المخترع قد اختار أمريكا حقلًا لتجاربه الخاصة، ولو كان هو أمريكيًّا لأفاد وطنه باختراعه العبقري الفذ! ولو حصلت عليه بلاده دون أي مقابل بدافع من وطنيته، أو حصلت عليه بأي ثمن، أفلا يضمن امتلاك ذلك الجهاز للاتحاد الأمريكي تفوقًا لا نزاع فيه؟

وللمرة الأولى نشرت صحيفة نيويورك في العاشر من يونية مقالًا مثيرًا بخصوص ذلك الموضوع. وكانت وهي تقارن أسرع الطرادات البحرية للدولة بذلك الجهاز الجديد للملاحة تبرهن على أنه إذا ما حصلت أمريكا على ملكيته؛ أمكنها أن تصل إلى أوروبا بفضل سرعته الفائقة خلال ثلاثة أيام، لا خمسة كما هو حادث اليوم.

وإذا كان رجال الأمن قد سعوا في تحديد سبب تلك الظواهر التي شوهدت في «جريت أيري»؛ فإنهم يظهرون رغبة حادة لا تقل عن تلك في معرفة ذلك السائق الذي لم يعد أحد يسمع عن أخباره. وكان ذلك موضوعًا للحديث يعود إليه السيد وارد بين حين وحين. وكان رئيسي يعلق أحيانًا على مهمتي في كارولين، وعدم توفيقها؛ ولكنه، كما أعلم، لم يكن يفعل ذلك لكي يسبب لي أي كدر، فقد كان يعلم علم اليقين أنه لا يد لي إطلاقًا في ذلك الإخفاق... فإذا كان لا بد من سلم لارتقاء جدران

بلغت الغاية في الارتفاع، فمن الواضح أنه لا يمكن القيام به ما لم يوجد ذلك السلم، اللهم إلا إذا عملت في هذه الجدران ثغرة تؤدي إلى الداخل... ولكن ذلك لم يكن يمنع السيد وارد من أن يقول لي أحيانًا:

- وأخيرًا يا ستروك، أيها المسكين، لقد أخفقت؛ أليس كذلك؟

- من دون شك يا سيد وارد، كما يخفق أي شخص في مكاني.. الحقيقة أن الأمر يتعلق بالنفقات، فهل أنت مستعد لذلك؟

- يا ستروك، إن ذلك لا يهم.. نعم لا يهم.. وإني أرجو أن تسنح الفرصة لمفتشنا العام الباسل لكي يسترد اعتباره من جديد.. ولتعلم أنك إذا نجحت في إزاحة الستار عن سر السيارة والسفينة، فسيكون في ذلك إرضاء عظيمًا لنا، وشرفًا كبيرًا لك!

- أجل، يا سيد وارد، وكم أود، لو صدر لي الأمر بالرحيل مرة ثانية.. وفي الحال.

- ومن يدري يا ستروك؟ يستحسن أن نتريث!

هكذا كانت تسير الأمور، حتى كانت صبيحة اليوم الخامس عشر من شهر يونية فجاءتني جراد برسالة مسجلة، كان عليّ أن أدفع غرم التخليص عليها.

ألقيت نظرة على عنوانها، وكان مكتوبًا بخط أجهل صاحبه. كانت الرسالة مؤرخة بتاريخ ما قبل أمس وتحمل طابع بريد «مورجانتون».

من «مورجانتون»؟ وعندئذٍ لم أشك في أن هذه الرسالة كانت من السيد إلياس سميث.

وقلت لخادمتي العجوز:

- نعم، إنها من السيد سميث.. ولا يمكن أن تكون إلا منه؛ فهو الوحيد الذي أعرفه في «مورجانتون».- وإذا كان يكتب لي الآن فلا بد أن عنده من الأخبار الهامة ما يريد أن يحيطني علمًا بها كما اتفقنا.

قالت جراد:

- «مورجانتون»؟ أليس ذلك هو المكان الذي أشعل فيه الشياطين نار جهنم؟

- نعم يا جراد.

- أرجو أن لا يعود سيدي إلى هناك مرة أخرى؟

- ولِمَ لا؟

- لأنه سينتهي بك الأمر بالبقاء في مرجل « «جريت أيري»» هذه، وأنا لا أريد لسيدي أن يبقى هناك!

- اطمئني يا جراد، وهيا لنعرف أولًا موضوع الرسالة.

وأزلت أختام الغلاف الذي كان من ورق سميك جدًّا. كانت الأختام بارزة بالشمع الأحمر، وتمثل ترسًا عليه شعار الشرف ومحلى بثلاث نجوم. أخرجت الرسالة من غلافها، ولم تكن إلا ورقة بسيطة، مطوية أربع طيات، كُتب على جانب واحد منها فقط.

وكان أول همي أن أنظر إلى التوقيع.

والحقيقة أنه لم يكن هناك توقيع غير ثلاثة حروف كتبت بالخط الكبير بعد السطر الأخير.

عندئذ قلت: ليس الخطاب من عمدة مورجانتون.

فسألت جراد:

- ممن إذَنْ؟

وكان فضولها مزدوجًا! لكونها امرأة أولًا، ولأنها امرأة عجوز ثانيًا.

وبينما كنت أمعن النظر في تلك الحروف الأولى، التي استعملت كتوقيع، كنت أقول لنفسي:

«إني لا أعرف أحدًا تدل عليه تلك الحروف، لا في «مورجانتون» ولا في أي بلد آخر!».

وكانت الرسالة مكتوبة بحروف ضخمة نوعًا ما، وبخط يدعو إلى الريبة، وتتكون من عشرين سطرًا.

وهذه هي صورة تلك الرسالة التي احتفظت بها بعناية؛ لأنها مؤرخة من «جريت أيري» الغامضة، وكان ذلك مما أدهشني دهشة لا حد لها:

« «جريت أيري» -الجبال الزرق»

كارولين الشمالية

13 من يونية

إلى السيد ستروك

مفتش عام الشرطة

34، لونج ستريت،

واشنطن.

سيدي،

لقد كنت مكلفًا بعمل معين ألا وهو الدخول إلى أعماق « «جريت أيري» ».

وقد حضرت في 28 أبريل، ومعك عمدة مورجانتون ومرشدان وصعدت حتى السور، ثم تجولت حول الجدران الضخمة، التي لا يمكن لإنسان ارتقاؤها لشدة ارتفاعها.

وحاولت العثور على ثغرة، لكي تنفذ منها، ولكن ذلك كان دون جدوى. فاعلم أنه لا يمكن لأحد أن يدخل إلى أعماق «جريت أيري»، وإذا حدث ودخل فيها أحد، فإنه لا يمكنه أن يخرج منها.

لا تحاول أن تعيد محاولتك مرة ثانية؛ لأنك لن تنجح فيها أكثر من الأولى، وستعود عليك بعواقب وخيمة.

استفد من هذا الإنذار، وإلا فستحدث لك مصيبة!

«م. د. م»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السَّابع

ومن ثلاثة

وأعترف أولًا وقبل كل شيء، أن دهشتي كانت كبيرة عندما قرأت هذه الرسالة، فانفلتت من بين شفتي صيحات تعجب، ونظرت إليّ الخادمة العجوز، وهي حائرة الفكر وقالت: «هل تلقى سيدي نبأً سيئًا؟».

وأجبتها -إذ لم أكن أخفى عنها سرًّا- بأن سردت عليها الرسالة من السطر الأول فيها حتى السطر الأخير.

وأنصتت جراد وهي تنظر إليَّ بقلق حقيقي. فقلت وأنا أهز كتفي: «إنه إنسان مشعوذ دون شك!».

وعقبت جراد قائلة، وقد سيطرت عليها فكرة الأعمال الشيطانية: «هذا إن لم يكن هو الشيطان بعينه، ما دامت الرسالة آتية من بلاد الشيطان!»..

ولما خلوت إلى نفسي، أعدت قراءة الرسالة غير المتوقعة. وبعد أن استغرقت في التفكير فترة ما، تأكد لي أن محررها إنسان هازل. ولم أجد في هذه الفكرة أي خطأ محتمل... فمغامرتي قد ذاع نبأها. ولما كانت الصحف قد روت بالتفصيل أنباء بعثتنا في «كارولين الشمالية»، والمحاولة التي قمنا بها لعبور نطاق «جريت أيري»، فقد عرف الجميع الأسباب التي لم أستطع من أجلها أن أنجح أنا والسيد سميث في عملنا. ومن ثم فإن شخصًا عابثًا، من أولئك العابثين الذين نجدهم في كل مكان من العالم، حتى في أمريكا، فقد تناول ريشته، وكتب هذه الرسالة التهديدية الشديدة اللهجة، ليسخر مني.

فإذا فرضنا أن هذا الوكر يأوي إليه عصبة من الأشرار، فلن يكون أحدهم هو الذي ارتكب تلك الحماقة، فيكشف بذلك عن الوكر ويؤدي ذلك إلى إقدام رجال الشرطة على اقتحامه... ألم تكن مصلحتهم الكبرى أن يظل وجودهم في هذا المأوي مجهولًا؟ ألا تحمل هذه الرسالة رجال الشرطة على القيام بأبحاث جديدة في تلك المنطقة، منطقة الجبال الزرق؟ فإذا كانت المسألة تنحصر في القبض على خليط من المشبوهين، فمن شأن هذه الرسالة أن تسهل الوصول إليهم! ومن الممكن شق الجبل بالمواد المتفجرة كالميلينيت والديناميت.

ولكن كيف استطاع هؤلاء الأشرار حقًّا أن يدخلوا بطن الجبل، اللهم إلا إذا كان هناك ممر لم نصل نحن إلى اكتشافه؟ ومهما كان الأمر، وحتى لو أيدنا هذا الفرض، فلن يصل الحمق بأحدهم إلى أن يبعث إليَّ بهذه الرسالة.

يبقى إذَنْ هذا التفسير؛ وهو أن الرسالة قد حررها مشعوذ أو مجنون، وقر في رأيي أنه لا داعي للاهتمام بها، ولا داعي حتى لأن أشغل بها فكري.

ولذلك فإنه حين خطر ببالي في لحظة ما أن أبلغ الأمر إلى السيد وارد، قررت ألا أفعل ذلك. فمن المؤكد أنه لن يعير هذه الرسالة أي أهمية.

ومع ذلك فقد أحجمت عن تمزيقها، وخبأتها في درج مكتبي حتى إذا وصلتني رسائل أخرى من هذا القبيل، تحمل نفس الحروف الأولى، ألحقتها بها دون أن أعيرها أي أهمية.

ومرت على ذلك عدة أيام كنت أتوجه في أثنائها كالمعتاد إلى مقر الشرطة، حيث كان عليّ أن أنهي بعض التقارير. ولم يكن هناك ما يجعلني أتنبأ بقرب مغادرتي واشنطن. والواقع أن الإنسان في مهنتنا هذه لا يستطيع أن يتأكد مما سوف يحدث له في غده. فقد تعرض له قضايا، تضطره إلى أن يجوب الولايات المتحدة من «أوريجون» حتى «فلوريدا»، ومن «مين» حتى «تكساس».

وكثيرًا، ما كانت تراودني هذه الفكرة فأقول في نفسي: إذا كلفت بعمل جديد لا أنجح فيه كما حدث لي في «جريت أيري»، فإنه لن يبقى أمامي سوى أن أستقيل أو أطلب إحالتي إلى المعاش!

أما بخصوص السائق، أو السائقيْن، فإنه لم يعد أحد يسمع عنهم شيئًا. وقد كنت أعلم أن الحكومة قد أمرت بمراقبة الطرق، والأنهار، والبحيرات؛ وكل المياه الأمريكية من أجل ذلك. ولكن هل يمكن القيام بمراقبة فعالة لقُطر يمتد من خط الطول، الستين إلى الخامس والعشرين بعد المائة، ومن خط العرض، الثلاثين إلى الخامس والأربعين؟! ومع وجود المحيط الأطلنطي من جانب، والمحيط الهادي من جانب آخر، والخليج المكسيكي فسيح الأرجاء الذي يغمر سواحله الجنوبية، ألا تجد تلك السفينة التي ضاع كل أثر ينم عنها، ميدانًا فسيحًا لمناوراتها ويكون من الاستحالة القبض عليها هناك؟

ولكني أكرر القول بأن أحدًا لم يعد يرى هذا الجهاز أو ذاك. كما كان الجميع يعرفون أن المخترع عندما ظهر في المرتين الأخيرتين لم يختر مطلقًا الأماكن التي لا يرتادها إلا القليل من الناس، بل تعمد السير في الطريق الكبير في وسكونتزن وفي يوم سباق، ثم نواحي بوسطن التي تجوبها آلاف السفن بلا انقطاع!

فإذا لم يكن ذلك المخترع قد مات حقًّا. وهذا احتمال يمكن التسليم به، فإنه إما أن يكون الآن خارج أمريكا، وربما في بحار القارة القديمة، وإما أنه قد اختفى في مأوى لا يعرفه أحد سواه، إن لم تكن الصدفة قد...

وكنت أقول لنفسي أحيانًا: «إن هذا الشخص الخيالي لا يمكنه أن يجد مأوى سريًّا منيعًا أفضل من «جريت أيري»! والواقع أنه لا يمكن لأي سفينة، أو لأي سيارة أن تدخله! إنما تستطيع الطيور الكبيرة وحدها، كالنسور وطير الرخ أن تبحث عن أوكار لها فيه!».

ويجب أن أذكر أنه منذ عودتي إلى واشنطن، لم تنبثق ألسنة لهب جديدة تخيف سكَّان المنطقة. ولما لم يكن السيد إلياس سميث قد كتب لي أي شيء في هذا الموضوع، فقد كان من حقي أن أستنتج أنه لم يحدث هناك شيء غير عادي. وكانت كل الظواهر تبعث على الاعتقاد بأن المشكلتين اللتين كان قد تعلق بهما ذلك الفضول والقلق العام بدرجة مثيرة، سوف ينتهي بهما إلى النسيان التام.

وفي اليوم التاسع عشر من يونية بينما كنت خارجًا من منزلي حوالي الساعة التاسعة للذهاب إلى مكتبي، لاحظت شخصين يديمان النظر إليَّ بإمعان. ولما لم أكن أعرفهما، فإنني لم أهتم بأمرهما. وإذا كان شيء ما قد لفت نظري إلى ذلك الموضوع، فذلك أن خادمتي جراد كانت قد حدثتني بشأنهما عند عودتي إلى المنزل.

فقد لاحظت خادمتي العجوز منذ بضعة أيام رجلين يبدو عليهما أنهما يراقبانني في الشارع، وكانا يتسكعان أمام مسكني، ويبدو أنهما كانا يتبعانني حينما أسير في شارع «لونج» متجهًا إلى مقر الشرطة.

وسألتها: «هل أنت واثقة مما تقولين؟» فقالت:

- نعم يا سيدي. وأمس أيضًا، كان هذان الشخصان يقتفيان أثرك حين عودتك، وقد انصرفا بمجرد إغلاق بابك!

- فلنتدبر الأمر يا جراد، ولكن ألم يلتبس عليك الأمر؟

- كلا يا سيدي.

- وإذا قابلت هذين الرجلين، فهل يمكنك التعرف عليهما؟

- نعم، أستطيع ذلك.

فقلت لها ضاحكًا: «هيا.. هيا يا جراد، فإني أرى أن لديك الحاسة الخاصة برجال الشرطة! وسألحقك بفرقة الأمن العام!».

- لك أن تهزل يا سيدي وتمزح! ولكن ما زلت عيناي قويتين، ولست في حاجة إلى منظار لكي أرى الناس! هناك من يتجسس عليك، هذا أمر لا شك فيه، ويجدر بك أن تطلق بعض رجال الشرطة في أثر هؤلاء الجواسيس!

وأجبت لكي أرضي هذه المرأة العجوز: «أعدك بذلك يا جراد، وسأستعين بأحد المخبرين، لأكشف أمر هذين الشخصين المشتبه فيهما».

ولم أكن في الواقع جادًّا في حديثي.

ومع ذلك فقد استطردت قائلًا: «وسألاحظ المارة عند خروجي ملاحظة أدق».

- هذا يا سيدي هو عين الفطنة!

ولا أعرف لماذا لم أكن أود أن أعلق أهمية على كلام جراد، مع أنها كانت في غاية الانزعاج.

ثم استدركت جراد قائلة: «إذا رأيتهما ثانية يا سيدي فسأخطرك قبل أن تخرج».

- ليكن.. اتفقنا!

وقطعت الحديث خوفًا من أنه إذا استمر، انتهى الأمر بأن تؤكد لي جراد بأن من كان يتبعني هو إبليس نفسه ومعه أحد أعوانه.

وفي اليومين التاليين لم أر أحدًا يراقبني، سواء عند خروجي، أو عند دخولي. واستنتجت من ذلك أن جراد كانت مخطئة.

إلا أنه في صباح اليوم الثاني والعشرين من يونية، بعد أن صعدت جراد السلم بالسرعة التي يسمح لها بها سنها المتقدم، جاءت تدفع باب غرفتي، وتقول لي وهي تلهث:

- سيدي... سيدي..

- ما الأمر يا جراد؟

- إنهما هناك!

وظننت أن الأمر يتعلق بأي شيء آخر غير مسألة اقتفاء الأثر التي حدثت لي، فسألتها:

- من هما؟

- الجاسوسان.

- آه!. هذان الجاسوسان الشهيران!

- هما بالذات.. أمام نوافذك، يراقبان المنزل، في انتظار خروجك!

واقتربت من النافذة، ورفعت الستارة قليلًا حتى لا ألفت إليَّ الأنظار، فلمحت رجلين على الإفريز.

وكانا رجلين متوسطي القوام، قويي البنيان، عريضي الأكتاف تتراوح سنهما بين الخامسة والثلاثين والأربعين، يلبسان لباس أهل الريف؛ قبعة من اللباد تظلل الرأس، وسروالًا من الصوف السميك، وحذاء متينًا، ويمسك كل منهما عصا في يده.

ولم يكن هناك شكٌّ في أنهما كانا يفحصان باب مسكني ونوافذه بكل دقة.

وبعد أن تبادلا بعض العبارات، سارا بضع خطوات على الإفريز، ثم عادا إلى مكانهما الأول.

فسألت جراد قائلًا: «هل هذان الشخصان اللذان سبق لكِ أن رأيتهما يا جراد؟»..

- نعم بالتأكيد يا سيدي!

وقصارى القول، إني لم أعد أعتقد في خطأ خادمتي العجوز، وقررت أن أجلو هذا الأمر. ولكن هل أتبعهما بنفسي؟ لا.. لأنهما قد يتعرفان عليَّ في الحال. ثم، ماذا أستفيد لو ذهبت إليهما وخاطبتهما؟ فمنذ اليوم سيقف واحد من رجال الشرطة للحراسة أمام منزلي. وإذا ظهرا في المساء، أو في اليوم التالي، فإنه سوف يقتفي أثرهما، وسوف يتبعهما حتى المكان الذي يحلو لهما الذهاب إليه، وسوف ينتهي الأمر إلى معرفة شخصيهما.

والآن أتراهما في انتظاري كي يسيران خلفي إلى دار الشرطة؟ هذا ما سوف أتبينه. وإذا فعلا ذلك، فربما أتيحت لنا الفرصة لنقدم إليهما الضيافة التي لن يشكرانا عليها.

وتناولت قبعتي؛ وبينما كانت جراد قابعة بجوار النافذة، نزلت، وفتحت الباب، وخرجت إلى الشارع.

ولم أجد الرجلين!

غير أن صورتهما التي انطبعت في ذاكرتي، لم يعد من السهل محوها منها. وعلى الرغم من يقظتي الشديدة، فإني لم أستطع أن ألمحهما.

ومنذ ذلك اليوم، لم نعد نراهما أمام المنزل، لا أنا، ولا جراد، ولم يظهرا بعد ذلك في طريقي.

وعلى العموم، ربما كانا قد استطاعا، بعد أن رأياني رأي العين، أن يحصلا على كل ما كانا يريدان معرفته عني، إذا كنت أنا المقصود حقًّا بهذا التجسس. أما بالنسبة إليَّ فقد انتهى الأمر عند هذا الحد، ولم أعد أهتم بهذا الموضوع أكثر من اهتمامي بالرسالة التي تحمل الحروف الثلاثة م. د. م.

ولكن فضول الجماهير قد أثير من جديد، وفي ظروف غير عادية.

وجدير بنا أن نذكر أولًا وقبل كل شيء أن الصحف لم تعد تشغل قرَّاءها بظواهر «جريت أيري»، التي لم تكن قد عادت إلى الظهور؛ كما لم تعد تذكر شيئًا عن السيارة والسفينة اللتين لم يستطع حتى خير رجال شرطتنا أن يعثر لهما على أثر. وكان من المحتمل تمامًا أن ينسى القوم كل ذلك، لو لم يقع أمر جديد يعيد هذه الحوادث إلى الأذهان، ذلك أن آلاف القراء طالعوا في عدد 24 يونية المقال التالي، الذي نشرته صحيفة «إيفننج ستار»، والذي أعادت نشره في اليوم التالي جميع صحف الاتحاد، وهذا نصه:

«إن بحيرة كيردال الواقعة في ولاية كنساس على بعد ثمانين ميلًا من غرب «توبيكا»، ليس لها من الشهرة إلا القليل. ومع ذلك فإنها تستحق أن يكون لها من الشهرة أوفر مما لها الآن، بل سيتوافر لها ذلك دون شك؛ لأن الرأي العام قد التفت إليها بشكل خاص...

«فهذه البحيرة» المحصورة في منطقة جبلية، لا يبدو أن هناك صلة ما تربطها بالشبكة المائية للولاية، وما تفقده من المياه عن طريق البحر، تستعيده، من الأمطار الغزيرة التي تهطل في هذا الجزء من كنساس.

«وتقدر مساحتها بخمسة وسبعين ميلًا مربعًا، ويبدو منسوبها أعلى قليلًا من متوسط ارتفاع سطح الأرض. ولما كانت محصورة داخل إطارها الجبلي، فإنه يصعب الوصول إليها من خلال بعض المضايق الضيقة. ومع ذلك فقد قامت عدة قرى على شواطئها، إذ تغزر فيها الأسماك، وتذرعها سفن الصيد في جميع الاتجاهات.

«نضيف إلى ذلك، أن عمق بحيرة كيردال يتفاوت إلى حد كبير، وهو لا يقل عند الشواطئ عن خمسين قدمًا. وتتكون ضفاف ذلك الحوض فسيح الأرجاء من صخور تكاد تكون عمودية. وتصطدم بالشاطئ أحيانًا، في ثورة عنيفة، تلك الأمواج المضطربة، التي تثيرها الرياح، فتغرق برذاذها المساكن الساحلية، كما لو كانت هذه تحت وابل من أمطار ساقتها العواصف. وعلى الرغم من أن هذه البحيرة عميقة عند محيطها، فإن مياهها تزداد عمقًا كلما اتجهت نحو المركز، إذ سجلت مقاييس العمق في بعض المواضع ما يبلغ ثلاثمائة قدم.

«والمياه التي تملأ تلك البحيرة صافية عذبة، ولا يوجد فيها بطبيعة الحال أي نوع من الأسماك البحرية، ولكنها تحتوي على كميات هائلة ذات أحجام غير عادية من سمك القشر، والنفط، والبلطي، والبوري، والبساريا، والثعابين... إلخ.

«ويفهم من ذلك أن صيد السمك فيها مربح تمامًا، وكثيرًا ما يزاوله الصيادون؛ إذ لا يمكن تقدير عدد من يمارسون الصيد فيها بأقل من عدة آلاف، ولا عدد السفن التي يستخدمونها بأقل من عدة مئات. ويجب أن نضيف إلى هذا الأسطول عددًا آخر من السفن ذات الشراعين والزوارق البخارية يبلغ حوالي العشرين، تقوم بالعمل في البحيرة لربط القرى المختلفة بعضها ببعض. كما أن هناك شبكة من الطرق الحديدية تعمل من وراء الإطار الجبلي في تصريف منتجات هذه الصناعة في ولاية كنساس، والولايات المجاورة لها.

وهذا الوصف لبحيرة كيردال ضروري لفهم الأحداث التي سوف نقصها».

وهذا ما قصته صحيفة «الإيفننج ستار» في هذا المقال المثير: «لقد لاحظ الصيادون منذ حين حدوث اضطراب على سطح البحيرة، ولكنهم لم يتمكنوا من الوقوف على أسبابه. ففي بعض الأحيان، يرتفع سطح البحيرة كرد فعل لموجة عميقة. ويحدث هذا التراوح في منسوب المياه وسط خليط من الزبد، على الرغم من هدوء الجو وسكون النسيم وزرقة السماء، وعندئذٍ لا تستطيع السفن أن تواصل سيرها، بل تضطرب بسبب تلك الاهتزازات العرضية والطولية التي تحدث في آن واحد، فتصطدم السفن بعضها ببعض، وتتعرض للانقلاب، ويؤدي ذلك إلى خسائر فادحة.

«ومن المؤكد أن ذلك الاضطراب في المياه آت من الطبقات السفلى لبحيرة كيردال، وهي ظاهرة حاول البعض تفسيرها بوسائل مختلفة.

«فتساءل البعض أول الأمر عما إذا لم يكن هذا الاضطراب ناتجًا من حركة زلزالية تغير أعماق البحيرة تحت تأثير القوى البركانية. ولكن لم يكن هناك بد من استبعاد هذا الفرض عندما عُلم أن الاضطراب لم يكن مركزًا في موضع واحد؛ بل كان ينتشر على كل امتداد البحيرة في الشرق والغرب، كما في الشمال والجنوب، وفي الوسط كما في الشواطئ. ويمكن القول إنه كان ينتشر من مكان لآخر بانتظام، وهذا ما يستبعد كل فكرة عن زلزال، أو عن فعل بركاني.

«ولم يلبث أن قام فرض آخر حيث قيل: أليس من الجائز أن يكون هناك وحش بحري يتسبب في قلب مياه بحيرة كيردال بذلك العنف؟ ولكن إذا لم يكن ذلك الوحش قد ولد في هذا الوسط ونما حتى أصبح ضخم الحجم، وهو أمر قليل الاحتمال، فإنه لابد، إذا كان قد جاء من الخارج، أن يكون قد استطاع دخول البحيرة من مكان ما... ولكن بحيرة كيردال لا صلة لها بالخارج. أما افتراض وجود قنوات تحت الأرض تغذيها أنهار ولاية تكساس، فإن هذا التفسير لم يكن ليستحق البحث. هذا إلى أنه، لو كانت تلك الولاية تقع بالقرب من ساحل المحيط الأطلسي أو المحيط الهادي، أو بجوار ساحل الخليج المكسيكي، لأمكن وجود تعليل لتلك الظاهرة التي حدثت في مياه البحيرة! ولكنها تقع وسط البلاد، وعلى مسافة كبيرة من البحار الأمريكية.

«وبالاختصار، تعتبر المسألة غير سهلة الحل، كما أن استبعاد الفروض الخاطئة خطأً بيِّنًا أسهل من محاولة اكتشاف الحقيقة الخالصة.

«ولكن إذا ثبت أن وجود وحش في بحيرة كيردال أمر مستحيل، أفليس من الأفضل القول بوجود غواصة تقوم بمناورات في أعماق البحيرة؟ ألا يوجد في عصرنا هذا عدد من هذا النوع من الأجهزة؟ ألم يقوموا منذ بضع سنين بإنزال جهاز في بريدج بورت، على وجه التحديد، بمقاطعة كونيكتكت، جهاز يُسمى «بروتكتور»، كان في مقدوره الملاحة فوق الماء، وتحت الماء، والسير أيضًا على الأرض؟ وكان قد صنعه مخترع يُدعى «ليك» وزوده بمحركين، أحدهما كهربي وقوته خمسة وسبعون حصانًا، يحرك بمروحتين متشابهتين، والآخر يعمل بالبترول وقوته مائتان وخمسون حصانًا؛ كما كان مزودًا إلى جانب ذلك بعجلات من الحديد الزهر، قطر كل منها متر واحد، تسمح له بالسير في الطريق وفي قاع البحار.

«كل هذا جميل، ولكن إذا سلمنا بأن الاضطرابات التي لُوحظت قد نتجت عن مرور غواصة من طراز «ليك»، بعد أن أُدخل عليها من التحسينات ما وصل بها إلى أعلى مراتب الكمال. فإنه يبقى أمامنا دائمًا هذا السؤال، وهو: كيف استطاعت

الغواصة أن تدخل بحيرة كيردال، ومن أي طريق سفلي وصلت إليها؟ إننا نكرر القول بأن هذه البحيرة المحاصرة من جميع الجهات، تقع في دائرة من الجبال، لا يمكن أن تدخلها أي سفينة أو أي وحش بحري.

«يبدو إذَنْ أن الرد على مثل هذا الاعتراض أمر مستحيل. ومع ذلك، فإن الفرض الوحيد الذي يمكن قبوله هو أن جهازًا من هذا القبيل يتجول تحت مياه بحيرة كيردال، غير أنه لم يظهر أبدًا على سطحها.

«هذا إلى أنه لم يعد هناك الآن مجال للشك في ذلك بعد هذا الذي حدث في اليوم العشرين من يونية الماضي.

«ففي عصر ذلك اليوم، بينما كانت السفينة ذات الشراعين «ماركيل» تسير بسرعة في اتجاه الشمال الغربي، إذا اصطدمت بجسم كان يطفو بين القاع والسطح، مع أنه لا يوجد أي صخر في هذا الموضع، الذي يقدر عمقه بين ثمانين قدمًا وتسعين قدمًا.

«ولما كانت الصدمة قد أصابت السفينة في جانبها الأيسر، فقد تعرضت للامتلاء بالماء، والغرق خلال دقائق. ولكن رجالها استطاعوا أن يتخبطوا بها في ذلك الطريق المائي، وأن يرسوا في أقرب ميناء، وهو يقع على بعد ثلاثة أميال من ذلك الموضع.

«وعندما سُحبت السفينة «ماركيل» إلى الساحل بعد تفريغ حمولتها، فُحصت الإصابة من الخارج، فظهر أنها تلقت في هيكلها ضربة من محرك.

«وبعد هذا الفحص أصبح من الاستحالة إنكار وجود غواصة تحت مياه كيردال، تتحرك بسرعة فائقة.

«ولكن هناك ما يدعو إلى إبداء هذه الملاحظة: ذلك أننا إذا سلمنا بأن جهازًا من هذا النوع قد استطاع النفاذ إلى داخل البحيرة، فلأي غرض جاء؟ وهل هذا مكان ملائم للقيام بمثل هذه التجارب؟ ثم لماذا لا يصعد هذا الجهاز مطلقًا إلى السطح؟ ولماذا يفضل أن يبقى مجهولاً؟».

وانتهى مقال صحيفة «الإيفننج ستار» بهذه المقابلة العجيبة حقًّا:

«بعد ظهور السيارة الغامضة، ظهرت السفينة الغامضة.

«وبعد السفينة الغامضة، جاءت الغواصة الغامضة.

«فهل يمكن أن نستنتج من ذلك أن هذه الأجهزة الثلاثة ثمرة لعبقرية مخترع واحد، وأن الثلاثة كلها ليست إلا جهازًا واحدًا؟».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن

بأي ثمن كان

وبدت هذه الفكرة نوعًا من الكشف، بل كان أثرها كبيرًا. ويمكن القول بأن العقول قد قبلتها بالإجماع. ولما كان العقل البشري ينزع دائمًا إلى ما هو غريب، بل وأحيانًا إلى ما هو مستحيل، فإنه لم يعد باستطاعة أحد أن يشك في حقيقة هذا الأمر. ولم يتجه التفكير فقط إلى أن المخترع رجل واحد، بل إن الأجهزة الثلاثة ليست إلا جهازًا واحدًا. ولو سلمنا بذلك، فكيف أمكن من الناحية العملية أن يتم هذا التحول في سيارة، فتصبح سفينة ثم غواصة؟ وهل تم صنع هذا الجهاز كي يسير على الأرض، وفوق الماء، وتحت الماء؟ إنه لم يعد ينقصه إلا أن يطير في أجواز الفضاء!

ولكن، حتى إذا اقتصرنا على المعلومات التي وصلت إلى عالمنا، وعلى ما أصبح ثابتًا بصورة قاطعة، وعلى تلك الوقائع التي قامت عليها كثير من البراهين التي لا تقبل الجدل، فإن ذلك الأمر يعتبر شيئًا خارقًا للطبيعة تمامًا. ولهذا فإن الجمهور الذي كان قد اعتراه الملل من الأحداث الأخيرة، قد وجد فيها الآن مجالًا جديدًا لإشباع فضوله.

ولابد لي أن أذكر قبل كل شيء تلك الملاحظة الصحيحة التي أبدتها الصحف وهي: «إذا سلمنا بأن هناك ثلاثة أجهزة مختلفة، فإن كل الشواهد تدل على أنها تشتغل بمحرك له قوة تفوق قوى المحركات المعروفة كلها. فهذا المحرك قد قدَّم الدلائل على قدرته وتفوقه، ويا لها من دلائل! إنه يولد هذه السرعة التي تبلغ ميلًا ونصف ميل في الدقيقة الواحدة!

لقد أصبح من الضروري الآن شراء هذا الاختراع من صاحبه بأي ثمن. وليس المهم أن يكون هذا الاختراع قد نُفذ في ثلاثة أجهزة، أو في جهاز واحد، وأنه قادر على السير في أماكن متغايرة؛ وإنما الأمر يقتضي ضرورة الحصول على المحرك، الذي أعطى مثل هذه النتائج، وضمان استغلاله استغلال من يملكه.

فإنه لمن الواضح أن الدول الأخرى لن تدخر وسعًا في سبيل حيازة جهاز له قيمته الكبرى في الجيش وفي البحرية. وكلنا يعرف تلك المزايا التي تستطيع أمة أن تحصل عليها من مثل هذا الجهاز على الأرض وفوق البحر! إذ كيف يمكن منع آثاره المدمرة، ما دام كان من المستحيل الوصول إليه! إنه لمن الضروري إذَنْ إنفاق الملايين لامتلاكه. ولن تستطيع أمريكا أن تستغل ملايينها فيما هو أحسن من هذا الاختراع».

وبهذه الصورة كانت الأمور تبدو أمام الجهات الرسمية والشعبية معًا. وامتلأت الصحف بمقالات في هذا الموضوع المثير. ولقد كان من المؤكد قطعًا أن أوروبا لن تبقى متخلفة عن الولايات المتحدة في مثل هذه الظروف.

إلا أنه كان لا بد من العثور على المخترع حتى يمكن شراء اختراعه. وهنا ظهرت الصعوبة الحقيقية؛ إذا كان قد أجري البحث في بحيرة كيردال والتنقيب في مياهها بالمجس، ولكن دون طائل! فهل كان هناك ما يدعو إلى الاستنتاج بأن الغواصة لم تعد تجول في أعماق البحيرة؟ ولكن إذا كان ذلك قد حدث بالفعل فكيف رحلت؟ بل كيف أتت؟ إنها مشكلة لا حل لها! إن الغواصة لم تعد تُرى في أي مكان، تمامًا كما

كان الحال بالنسبة للسيارة التي لم تعد تظهر في طرق الاتحاد، وبالنسبة للسفينة التي لم تعد تبدو في بحار أمريكا!

وكثيرًا ما كنت أتحدث مع السيد وارد، خلال زياتي له، عن هذا الموضوع الذي كان يشغله كثيرًا. فهل يا ترى سيواصل رجال الشرطة أبحاثهم أم لا، فقد كانت أبحاثهم حتى ذلك الوقت غير مجدية؟

ولكني في صباح اليوم السابع والعشرين من يونية استدعيت إلى ديوان الشرطة، وما كدت أدخل إلى مكتب السيد وارد حتى قال لي:

- ما قولك يا ستروك؟ ألا يمكن أن يكون فيما استدعيتك من أجله فرصة جميلة لكي تأخذ بثأرك؟

- أتعني الثأر من «جريت أيري»؟

- تمامًا.

فسألته وأنا لا أدري إن كان رئيسي جادًّا في كلامه أم لا:

- وأي فرصة تقصد؟

فاستطرد قائلًا:

- ألا تحب أن تكشف الستار عن مخترع هذا الجهاز الثلاثي الأهداف؟

فأجبته قائلًا:

- لاشك في ذلك يا سيد وارد! أعطني أمرًا بالقيام بالحملة، وسأبذل المستحيل حتى أنجح! مع أني في الحقيقة أعتقد أن الأمر سيكون صعبًا...

- هذا هو الواقع يا ستروك، وقد يكون أصعب من اختراق «جريت أيري»!

لقد كان واضحًا أن السيد وارد يمزح معي، كما كان يحلو له أن يفعل في موضوع بعثتي السابقة. ومع ذلك فإنه لم يكن سيئ القصد، بل كان يرمي إلى إثارة اهتمامي بالموضوع. فقد كان يعرفني حق المعرفة، وكان يدري أنني على استعداد لأن أبذل كل ما أملك لأعاود محاولتي التي فشلت. ولم أكن أنتظر سوى تعليمات جديدة.

عندئذ قال لي السيد وارد بلهجة ودية للغاية: «إنني أعلم يا ستروك أنك فعلت كل ما كان في وسعك، وليس هناك ما ألومك عليه... ولكن المسألة لا تتعلق الآن «بجريت أيري»... وفي اليوم الذي تصمم فيه الحكومة على اختراق جدارها، لن تراها تبالي بالنفقات، وسيتم لها ما تنشد مقابل بضعة آلاف من الدولارات.

- هذا هو رأيي.

واستطرد السيد وارد قائلًا:

- ومع ذلك فإني أعتقد أنه من المفيد لنا الآن أن نقبض على ذلك الشخص الغامض الذي كان يفلت منا في كل مرة! وسيقوم بذلك رجال الشرطة، بل ورجالها الحاذقون!

- ألم تعد التقريرات تشير إليه؟

- كلا، ومع أن كل شيء كان يدعو إلى الاعتقاد بأنه يقوم بمناوراته تحت مياه بحيرة كيردال، فإنه قد استحال العثور على أي أثر له. وفي هذا ما يدعو إلى التساؤل عما

إذا كان لدى هذا الميكانيكي المتقلب القدرة على حجب نفسه عن الأنظار!

وأجبت قائلًا:

- وعلى كل حال إذا لم تكن له هذه الموهبة، فمن المحتمل أنه لن يكشف عن نفسه إلا إذا رأى في ذلك ما يناسبه.

- هذا صحيح يا ستروك، وفي رأيي أنه لا توجد إلا وسيلة واحدة للخلاص من هذا الشخص الغريب الأطوار، وذلك أن نعرض عليه ثمنًا باهظًا لجهازه، حتى لا يستطيع أن يرفض بيعه!

وكان السيد وارد محقًّا في ذلك، فالحكومة كانت عازمة على أن تقوم بمحاولة للدخول في مفاوضات من هذا القبيل مع «بطل الساعة» هذا. وهذا وصف لم يستحقه أبدًا أي مخلوق بشري بقدر ما استحقه هذا الشخص! ولن يلبث هذا المخلوق العجيب أن يعلم عن طريق الصحافة ما يراد منه... وسيعرف الشروط الاستثنائية التي تعرض عليه كي يسلم من شره.

واختتم السيد وارد حديثه قائلًا: «ولكن، ما الفائدة التي يرجوها هذا الشخص من اختراعه؟ أليس في مصلحته أن يربح من ورائه؟ إنه لا يوجد أي سبب يبرر الاعتقاد بأن هذا الشخص المجهول شرير، يتحدى بآلته كل مطاردة!».

ومع ذلك، وكما قال لي رئيسي، فقد قررت الجهات العليا استخدام وسائل أخرى للوصول إلى غرضها؛ لأن المراقبة التي قام بها عدد كبير من رجال الشرطة في الطرق والأنهار الكبيرة والصغيرة والبحيرات، وكذلك في المناطق المجاورة لم تأت بأي نتيجة! وإذا لم يكن المخترع قد هلك مع آلته أثناء القيام بمناورة خطرة، فلا بد أن يكون ذلك لأنه كان يتعمد ألا يراه أحد... ثم إنه منذ حادث السفينة «ماركيل» في بحيرة كيردال، لم يصل إلى ديوان الشرطة أي خبر جديد –ولم تتقدم القضية خطوة واحدة. هذا ما قاله لي السيد وارد، ولم يكن يحاول أبدًا أن يخفي عني خيبة أمله.

نعم! وإنها لخيبة أمل حقًّا. وبالإجمال كانت العقبات تتزايد خطورة في سبيل حفظ الأمن العام! وهل يمكن مطاردة الأشرار بعد أن يصبحوا بعيدي المنال على الأرض وفوق البحر! ومن باب أولى أيمكننا مطاردتهم تحت الماء! وهل نستطيع تعقب العصابات وهي في أجواز الفضاء إذا ما بلغت البالونات الموجهة أقصى درجات الإتقان!

وانتهيت من هذا التفكير إلى التساؤل عما إذا كان سيأتي اليوم الذي تنحدر فيه حالتي أنا وزملائي من رجال الشرطة إلى العجز التام وإلى البطالة! وإذا أصبح جميع رجال الشرطة عديمي الفائدة، فإنهم سيحالون حتمًا إلى المعاش!

وفي تلك اللحظة تذكرت تلك الرسالة التي تسلمتها منذ عشرة أيام، الرسالة التي أرسلت إليَّ من «جريت أيري»، حيث يهددني كاتبها في حريتي، بل وفي حياتي إذا عاودت محاولتي! كما تذكرت حالة التجسس الغريب الذي كنتُ موضوعًا لها.

ومنذ ذلك الحين لم تصلني أي رسالة أخرى من ذلك النوع. أما عن الشخصين المشتبه في أمرهما، فإنني لم أقابلهما بعد ذلك. وأما جراد اليقظة التي ما فتئت تقف لهما بالمرصاد، فإنها لم ترهما يعودان إلى الظهور أمام المنزل.

وتساءلت عما إذا كان من الأوفق أن أفضي بهذا الأمر إلى السيد وارد. ولكني بعد أن أمعنت في التفكير، رأيت أن «جريت أيري» لم يعد لها أي أهمية، فإن المسألة الأخرى قد مسحت حتى ذكراها. ومن المحتمل تمامًا أنه لم يكن فلاحو المنطقة يفكرون الآن فيها على الإطلاق، ما دامت الظواهر التي كانت السبب في هلعهم لم تتجدد، وأنهم قد انصرفوا بهدوء إلى مشاغلهم المعتادة.

ولذلك عولت على ألا أسلم الرسالة إلى رئيسي، إلا إذا اقتضت الظروف ذلك فيما بعد. وفي هذه الحال لعله لن يرى فيها إلا دعابة صادرة من مازح ثقيل.

واستأنف السيد وارد حديثه بعد أن توقف بضع دقائق، فقال لي: «سنحاول أن نتصل بذلك المخترع، وأن نساومه... لقد اختفى، وهذه هي عين الحقيقة، ولكن ليس هناك ما يدعو إلى عدم ظهوره ثانية في يوم من الأيام، وإعلان وجوده في بقعة ما من بقاع الوطن الأمريكي... وقد اخترناك يا ستروك لهذا العمل، وعليك أن تستعد للرحيل فورًا وعند أول إشارة، دون أن تضيع لحظة واحدة. لا تخرج من منزلك إلا لتأتي إلى ديوان الشرطة؛ لكي تتسلم أوامرنا الأخيرة، إذا ما دعا الأمر إلى ذلك».

فأجبته قائلًا: «سأنفذ كل أوامرك يا سيد وارد، وسأكون مستعدًّا لمغادرة واشنطن والذهاب إلى أي مكان عند أول إشارة... ولكن اسمح لي أن أسألك سؤالًا: هل من الضروري أن أعمل وحدي؟ أم من الأوفق أن أضم إليَّ....؟».

فقاطعني السيد وارد قائلًا: «هذا ما أقصده. اختر شرطيين تثق بهما كل الثقة».

- هذا أمر سهل يا سيد وارد. والآن، إذا وجدت نفسي ذات يوم أمام رجلنا هذا، فماذا يجب عليَّ أن أعمله؟

- عليك أولًا ألا تجعله يغيب عن بصرك، وعليك أيضًا عند الضرورة أن تتثبت من شخصه؛ لأنك سوف تُزود بأمر للقبض عليه.

- هذا احتياط مفيد يا سيد وارد. ولكن إذا حدث أن قفز في سيارته، وهرب بها بالسرعة التي تعرفها! فكيف نحاول القبض على شخص مغامر ينطلق بسرعة مائتين وأربعين كيلو مترًا في الساعة؟!

- لذلك فمن الضروري يا ستروك عدم تمكينه من فعل ذلك، وعليك بمجرد القبض عليه أن ترسل لنا برقية، ونحن نتكفل بالباقي.

- اعتمد عليَّ يا سيد وارد... وسأكون مستعدًّا في أي لحظة من الليل أو النهار للرحيل مع رجالي.. وإني أشكرك على تكليفي بهذا العمل الذي لو نجحت فيه لأكسبني شرفًا عظيمًا.

فأضاف رئيسي قائلًا وهو يودعني: «وفائدة كبيرة... يا ستروك».

ولما عدت إلى منزلي، أخذت أعمل مع جراد في الاستعدادات لرحلة قد تستغرق وقتًا طويلًا. ولعل جراد كانت تتخيل أنني سأعود إلى «جريت أيري». وإنك لا تجهل ما كانت تعتقده في هذا المكان الذي يؤدي إلى الجحيم. ومع كل، فإنها لم تُبْدِ لي أي ملاحظة. وقد فضلت من جانبي عدم الإفضاء إليها بأي شيء، على الرغم من ثقتي بحرصها على الكتمان.

وفيما يختص بالشرطيين اللذين كان عليهما أن يرافقاني، فقد وقع عليهما اختياري مقدمًا. وكانا كلاهما من رجال فرقة الاستعلامات، ويبلغ أحدهما الثلاثين من عمره

والآخر الثانية والثلاثين. وقد برهنا في ظروف كثيرة، وتحت إمرتي، على تمتعهما بالقوة والذكاء والجرأة. ويُدعى أحدهما جون هارك، من ولاية «إيلنوا»؛ والآخر ناب ووكر، من «ماساتشوستس». ولم يكن في استطاعتي أن أُوفَّق في هذا الاختيار أكثر مما وُفِّقتُ.

وانقضت بضعة أيام. ولم يرد أي خبر عن السيارة أو السفينة أو الغواصة. وإذا كانت بعض المعلومات قد وصلت إلى ديوان الشرطة، فقد اتضح خطؤها، ولم يكن هناك ما يدعو للاهتمام بها. أما أخبار الصحف فلم يكن لها أي قيمة، فمن المعروف أن الصحف جميعًا، حتى تلك التي تستقي أخبارها من أوثق المصادر، لا يمكن دائمًا الاعتماد عليها. ومع ذلك فلم يكن هناك شك في صدق خبرين: ذلك أن رجل الساعة قد ظهر من جديد مرتين، المرة الأولى في إحدى طرق «أركنساس» في ضواحي «ليتل روك»، والمرة الثانية في المناطق الجنوبية للبحيرة العليا.

ولكن الأمر الذي لم يمكن تفسيره هو أن ظهوره الأول قد تم في عصر اليوم السادس والعشرين من يونية، والثاني في مساء اليوم نفسه. وبما أن المسافة بين هذين الموقعين من الإقليم لا تقل عن ثمانمائة ميل، فإنه إذا كان في وسع السيارة أن تقطع هذه المسافة بسرعتها الخيالية في وقت قصير، فقد كان من المتوقع رؤيتها وهي تجتاز «أركنساس»، و«ميسوري»، و«وسكونزن».

والواقع أن السائق لم يكن يستطيع أن يتم هذه الرحلة إلا على الأرض، وليس عن طريق آخر، ومع ذلك فإنه لم يشاهد وهو يمر في أي مكان.

ويجب الاعتراف بأن هذا كان أمرًا عسير الفهم، وأنه لم يتأتَّ لأحد أن يفهمه بالفعل. وفضلًا عن ذلك فإنه بعودته إلى الظهور مرتين في طريق «ليتل روك»، ثم بالقرب من ساحل البحيرة العليا، لم يعد أحد يلمحه. ولذلك فإنني ومساعداي لم نحاول الرحيل.

ومن المعروف أن الحكومة كانت تحرص على الاتصال بذلك الشخص الغامض. إلا أنه كان يجب التخلي عن كل فكرة للقبض عليه، والاستعانة بوسائل أخرى للوصول إلى الغرض المنشود. فإن أهم شيء كان يشغل أذهان الجمهور بوجه خاص هو أن تصبح الولايات المتحدة المالكة الوحيدة لجهاز يضمن لها تفوقًا لا نزاع فيه على البلاد الأخرى، وخصوصًا في وقت الحرب. وكان من المعتقد فضلًا عن ذلك أنه لا بد أن يكون المخترع أمريكي الأصل، ما دام لم يظهر إلا في الوطن الأمريكي، وأنه لذلك يفضل التعامل مع أمريكا بلا شك.

وها هي ذي مذكرة نشرتها جميع صحف الولايات المتحدة في اليوم الثالث من يولية، وقد كتبت بلغة رسمية بحتة وتقول:

«خلال شهر أبريل من العام الحالي، تجولت سيارة في طريق ولايات بنسلفانيا؛ وكنتوكي وأوهيو، وتينسي، وميسوري، وإلينوا. وفي اليوم السابع والعشرين من مايو، ظهرت في أثناء سباق النادي الأمريكي في طرق وسكونزن، ثم اختفت. وخلال الأسبوع الأول من شهر يونية اجتازت سفينة منطلقة بسرعة كبيرة نواحي «نيو إنجلند» بين رأس الشمال ورأس الرمال، وعلى وجه الخصوص بالقرب من بوسطن، ثم اختفت.

«وفي النصف الثاني من الشهر نفسه تجولت غواصة تحت مياه بحيرة «كيردال» في ولاية «كنساس»، ثم اختفت.

«وكل شيء يدعو إلى الاعتقاد بأن هذه الأجهزة من صنع مخترع واحد، وربما كانت جميعها جهازًا واحدًا في استطاعته السير على الأرض، والملاحة على سطح الماء وتحت الماء.

«وعلى ذلك، فإننا نقدم عرضًا إلى المخترع المذكور، كائنًا من كان، لنحصل منه على الجهاز المذكور.

«وفي الوقت الذي ندعوه فيه إلى الكشف عن شخصيته، نرجوه أن يحدد الثمن الذي يرضاه أساسًا للتعامل مع الحكومة الأمريكية، وأن يرسل إجابته في أقرب وقت ممكن إلى ديوان الشرطة في «واشنطن» بمقاطعة كولومبيا بالولايات المتحدة الأمريكية».

هذه هي المذكرة التي نُشرت بحروف كبيرة في الصحف. ومن المؤكد أنها كانت لن تلبث أن تقع تحت بصر الشخص المقصود في المكان الذي هو فيه مهما كان، وسيقرؤها، ولن يفوته الرد عليها بأي وسيلة من الوسائل، وأنه لن يرفض الموافقة على مثل هذا العرض، ولم يعد هناك سوى انتظار الرد.

ومن اليسير أن نتصور نوبة الاستطلاع التي تملكت الجمهور في ذلك الحين. فمنذ الصباح حتى المساء كان جمهور متلهف صاخب يتدافع أمام ديوان الشرطة، يترقب وصول رسالة أو برقية. ورابط مراسلو الصحف في المراكز التي احتلوها. فأي شرف عظيم وأي صدفة سعيدة تحظى بهما الصحيفة التي تسبق غيرها بنشر هذا النبأ الهام! فهل سنعرف أخيرًا اسم وصفات ذلك الشخص المجهول، الذي لم يتمكن أحد من العثور عليه؟ وهل سنعرف ما إذا كان يوافق على الاتصال بالحكومة الاتحادية؟

ومن البديهي أن أمريكا ستكون سخية في معاملته؛ فهي لا ينقصها المال الكثير، ولو تطلب الأمر، فإن أصحاب الملايين سوف يفتحون له خزائنهم التي لا تنفذ!

وانقضى يوم، وقد بدا لكثير من الأشخاص المرهفي الأعصاب، القليلي الصبر أن اليوم يحتوي على أكثر من أربع وعشرين ساعة، وأن الساعة تستغرق أكثر من ستين دقيقة!

ولم يأت رد، ولم تصل أي رسالة أو برقية. ولم تأت الليلة التالية هي الأخرى بجديد. واستمرت الحال على هذا المنوال ثلاثة أيام أخرى!

وعندئذٍ حدث ما كان متوقعًا. لقد نقلت أسلاك البرق إلى أوروبا ما عرضته أمريكا، وحاولت مختلف دول القارة القديمة أن تستفيد مثلها من هذا الاختراع! ولماذا لا تنازعها حيازة جهاز، يعطيها مثل تلك المزايا الهائلة! ولماذا لا تلقي بنفسها في ذلك الصراع متسلحة أيضًا بالملايين؟

وتدخلت الدول الكبيرة في الموضوع، تدخلت فرنسا وإنجلترا وروسيا وإيطاليا والنمسا وألمانيا. أما الدول الصغيرة التي في المرتبة الثانية، فإنها لم تحاول أن تلقي بنفسها في الصراع على حساب ميزانياتها. وقد نشرت الصحف الأوروبية مذكرات مماثلة لمذكرة الولايات المتحدة. وأصبح الأمر كله بيد ذلك السائق العجيب لكي

يصير منافسًا لأصحاب الملايين من أمثال آل جولد، ومورجان وآستور، وفاندربلت، وروتشلد الذين ينتشرون في فرنسا وفي إنجلترا وفي النمسا!

ولما كان الشخص المذكور لم يعط أي إشارة تنم عن وجوده، فقد قدمت إليه عروض ضخمة، لكي يضطر إلى إزاحة الستار عن ذلك الغموض الذي يحيط به. وأصبح العالم كله سوقًا عامة، أو بورصة عالمية تجري فيها مزايدات لا يصدقها العقل. وكانت الصحف تنشر الرقم النهائي لها مرتين في اليوم. وكانت هذه الأرقام تتضخم باضطراد، وتتزايد بالملايين!

وأخيرًا فازت الولايات المتحدة في هذا المضمار بعد جلسة مشهورة لأعضاء مجلس الاتحاد (الكونجرس)، وافقوا فيها بالتصويت على تقديم مبلغ عشرين مليونًا من الدولارات، أي مائة مليون من الفرنكات.

ومع ذلك لم يكن هناك أمريكي واحد، من أي طبقة كانت، يعتبر هذا الرقم مبالغًا فيه، فقد كان الجميع يعلقون أهمية كبرى على حيازة ذلك الجهاز العجيب للنقل. أما أنا، وقد كنت أول الراغبين في ذلك، فلم أكن أكف عن القول لجراد الطيبة: «إن قيمته أكثر من ذلك!».

ولكن الأمم الأخرى لم تكن تأخذ بهذا الرأي، إذ إن مزايداتها قد توقفت تحت هذا الرقم. وعندئذٍ انفجرت كل أنواع التعليقات من أولئك المنافسين الذين غلبوا على أمرهم.. فكانوا يقولون: «لن يكشف المخترع عن شخصيته»، «إنه لا وجود له»، «بل لم يسبق له وجود على الإطلاق»، «إنه مشعوذ كبير يلعب لعبة السرعة الكبيرة!»، ثم «هل تأكد أحد من أنه لم يهلك مع آلته في قاع هاوية سحيقة أو يغرق في أعماق البحر؟». وقد تنافست صحف القارة القديمة في الإدلاء بهذه الأفكار.

ولسوء الحظ أخذ الوقت يمر حثيثًا، ولم يرد أي خبر عن رجلنا هذا، ولم يصل منه أي رد... ولم يعد أحد يشاهده في أي مكان منذ مناورته الأخيرة في أرجاء البحيرة العليا!

أما من جهتي، فقد شل تفكيري تمامًا، ولذا بدأت أفقد كل أمل في الانتهاء إلى حل لهذه القضية الغريبة.

وإذا بنا في صباح اليوم الخامس عشر من يولية نعثر في صندوق رسائل ديوان الشرطة على رسالة من دون طابع للبريد.

وبعد أن اطلعت عليها السلطات المختصة، أرسلتها إلى صحف واشنطن التي نشرتها في عدد خاص، طبعت فيه صورة «طبق الأصل» للرسالة.

وكانت الرسالة محررة بالعبارات التالية:

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل التّاسع

الرسالة الثَّانية

من فوق ظهر «الرعب»

في 15 يولية

إلى العالم القديم والعالم الحديث:

إن العروض المقدمة من دول أوروبا المختلفة، وتلك التي أصدرتها الولايات المتحدة الأمريكية أخيرًا، لا يمكن أن يرد عليها إلا بإجابة واحدة، وهي، رفض تام وأكيد للجائزة المعروضة لاقتناء جهازي.

فلن يكون هذا الاختراع فرنسيًّا، ولا نمساويًّا، ولا روسيًّا، ولا إنجليزيًّا، ولا أمريكيًّا.

سيظل الجهاز ملكًا خاصًّا لي، وسأستعمله كما يحلو لي. به سأسيطر على العالم أجمع، ولن تستطيع قوة بشرية مقاومته مهما كانت الظروف.

لا تحاولوا الحصول عليه، فهو أبعد من أن يناله أحد، وسيظل كذلك، وإذا ما فكرتم في إلحاق أي أذى بي، رددت إليكم مثله مئات المرات.

أما الجائزة التي عُرضت عليَّ فأنا أحتقرها، ولست في حاجة إليها. ومع ذلك ففي اليوم الذي أجد نفسي فيه راغبًا في الحصول على الملايين أو المليارات، فلن يكون لديَّ إلا أن أمد يدي للاستيلاء عليها.

فلتعرف القارتان القديمة والحديثة أنه لا يمكنهما أن ينالا مني شيئًا، ولكني أنا قادر على إيذائهما.

وهأنذا أوقع هذه الرسالة.

(سيد العالم).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل العاشر

الخارج على القانون

كانت هذه هي الرسالة الموجهة إلى حكومة الولايات المتحدة، والتي أُودعت إدارة الأمن العام دون الالتجاء إلى مصلحة البريد. أما عن الفرد الذي كان قد حملها ليلة 15 من يولية، فإنه لم يره أحد على الرغم من أن عددًا كبيرًا من الأشخاص الذين نفد صبرهم كانوا يطوفون باستمرار حول إدارة الأمن منذ غروب الشمس إلى شروقها. ولكن كيف كانوا يستطيعون رؤية حامل هذه الرسالة الذي قد يكون هو كاتبها نفسه، وهو يتسلل على طول الرصيف ليلقي بها في الصندوق، وقد كان الليل مظلمًا، لا يتبين فيه المرء حتى من يعبر الشارع من أحد جانبيه إلى الآخر؟

قلت من قبل إن الصحف قد نشرت صورة مطابقة للأصل من هذه الرسالة نقلتها إليها السلطات منذ الساعة الأولى. ولكن لا يصح أن يخطر بالبال أن الأمر الذي تركته هذه الرسالة في نفوس الناس للوهلة الأولى كان ينحصر في القول:

«إن هذا لمن صنع مازح سخيف!».

لا، بل كان هذا هو ما أحسست به أنا عندما وصلتني رسالة «جريت أيري» منذ خمسة أسابيع مضت. ولكن هل كان هذا هو نفس الإحساس الذي ما زال يستقر في نفسي حتى الآن؟ ألم يكن قد تغير، ولو قليلًا بسبب تلك البراهين العديدة؟ ومهما كان الأمر، فلقد تزعزع هذا الإحساس في نفسي بعض الشيء، ولم أعد أعرف عن الحقيقة شيئًا سوى أن أواصل التفكير.

كما أن ذلك لم يكن ما عبرت به النفوس عما دار في خواطرها في «واشنطن»، أو في أي جزء من الاتحاد الأمريكي. وهذا أمر جد طبيعي. بل إن الغالبية العظمى من الناس الذين قيل لهم إنه لا يصح أن يعيروا هذه الرسالة أي أهمية كانوا يجيبون بقولهم:

«إنها ليست من عمل مشعوذ! بل إن كاتبها هو مخترع ذلك الجهاز الذي لم يتمكن أحد من القبض عليه!».

لم يكن يبدو إذَنْ أن الموضوع يثير شكًّا عند أحد، وذلك بفضل ما وصلت إليه تلك العقليات المستطلعة من تفسيرات يمكن تعقلها. فقد راح الناس في ذلك الوقت يتداولون تفسيرًا معينًا لتلك الأحداث الغريبة، التي لم يكن ينقصها إلا المفتاح.

وها هو تفسيرهم:

إذا كان ذلك المخترع قد اختفى منذ مدة، فقد عاد إلى الظهور من زمن قريب بحدث جديد... وإذا كنا لا بد أن نستبعد فناءه إثر حادث ما، فمعنى ذلك أنه كان قد انزوى في مكان لم يتمكن رجال الأمن من اكتشافه، وهناك كتب تلك الرسالة لكي يجيب على عرض الحكومة... ولكنه بدلًا من أن يضعها في صندوق البريد في منطقة ما لتصل منها إلى هدفه، حضر إلى عاصمة الولايات المتحدة ليودعها بنفسه إدارة الأمن العام. وذلك ما أوضحته المذكرة الرسمية.

وإذا كان ذلك الشخص قد وضع في حسابه أن ذلك الدليل الجديد على وجوده سيثير ضجة في العالمين القديم والجديد، فقد بلغ مراده. إن ملايين القراء الذين قرأوا

صحيفتهم في ذلك اليوم وأعادوا قراءتها كانوا -كما يُقال- «لا يريدون أن يصدقوا أعينهم» فيما يقرأونه.

إن هذه الرسالة -التي لم أتوقف لحظة عن فحصها- كانت تتكون من كلمات مكتوبة بقلم قد ضغط عليه الكاتب بشدة، ولو كنا قد لجأنا إلى خبير في الخطوط لميز بكل جلاء في تلك السطور علامات تدل على مزاج حاد، وشخصية متعبة.

وخرجت مني إذ ذاك صيحة لم تسمعها جراد لحسن الحظ. إذ كيف لم أتمكن قبل الآن من ملاحظة ذلك التشابه الكبير بين الخط الذي كتبت به هذه الرسالة وخط الرسالة التي جاءتني من مورجانتون؟

ثم ذلك التطابق ذو المعنى الكبير أيضًا الذي أشارت إليه الحروف الأولى، التي مهر بها الخطاب الأول.. ألم تكن هذه الحروف الكبيرة هي نفس الحروف الأولى من كبمات «ميتر دي موند» (سيد العالم)؟ وأين كُتبت هذه الرسالة؟ ألم تُكتب على ظهر جهاز «الرعب»؟ وقد كان ذلك هو الاسم الذي يطلق على الجهاز الثلاثي الذي يتولى قيادته ذلك الربان المحير!

لقد كُتبت إذَنْ تلك السطور بنفس اليد التي سطرت الرسالة الأولى التي كانت تهددني إذا ما جرؤت على تكرار محاولتي في «جريت أيري»!

فوقفت وأخرجت من مكتبي رسالة 13 من يونية، ثم قارنتها بالصورة المطابقة للأصل الموجودة في الصحيفة.. وعندئذٍ لم أتردد مطلقًا! فقد كان الخط هو نفس الخط الفريد في نوعه، كما كانت اليد التي كتبت الرسالتين واحدة!

عندئذ لم يتوقف تفكيري عن الدوران، وحاولت أن أستخرج النتائج المترتبة على ذلك التقارب، الذي لم يكن يعلمه أحد سواي، وعلى ذلك التشابه في خط الرسالتين اللتين لم يكن من الممكن أن يكون كاتبهما سوى قائد ذلك الجهاز الذي يسمى «الرعب»، ذلك الاسم الفظيع الذي برهنت على صدقه أعماله بصورة قاطعة!

وعندئذٍ أخذت أتساءل عما إذا كان من الممكن أن يسمح ذلك التشابه باستئناف الأبحاث في ظروف أفضل؟ وقلت: هل في استطاعتنا أن نُلقي برجالنا لاقتفاء أثره في مكان قد يكون خطيرًا، ولكنه قد يصل بهم إلى الغرض المنشود؟.. ولكن ما هي العلاقة بين ذلك «الرعب» «وجريت أيري»؟.. وما هي الصلة بين تلك الظواهر التي شُوهدت عند الجبال الزرق، وبين ظهور ذلك الجهاز العجيب، وهو لا يقل غرابة عنها؟

فعلت ما كان لا بد أن أفعله، إذ ذهبت إلى إدارة الأمن العام والرسالة في جيبي.

سألت عما إذا كان السيد وارد في مكتبه. ولما أكد أتلقى الجواب، حتى اندفعت ناحية الباب.. ولعلي أكون قد طرقت الباب بشدة غير لائقة. ولم أكد أسمع كلمة «ادخل»، حتى قفزت أمام المكتب وأنا ألهث.

كان السيد وارد في ذلك الوقت يقرأ الرسالة التي نُشرت في الصحف. ولكنه لم يكن يقرأ الصورة المطابقة للأصل، بل كان يقرأ الأصل نفسه، الذي كان قد أُودع صندوق بريد الأمن العام.

فسألني:

- أعندك من جديد يا ستروك؟

فأخرجت من جيبي الرسالة الموقعة بالحروف الثلاثة وقلت له:

- ما حكمك على هذا يا سيد وارد؟

فأخذ السيد وارد الرسالة وفحص الصفحة الأولى! ثم قال لي قبل أن يقرأ:

- ما هذه الرسالة؟

- إنها كما ترى رسالة موقعة بالحروف الأولى من الاسم.

- ومن أي مكتب بريد أرسلت؟

- من مكتب «مورجانتون» في كارولين الشمالية.

- متى تسلمتها؟

- في 13 يونية الماضي.. منذ شهر تقريبًا.

- وماذا فكرت في بادئ الأمر؟

- أن من كتبها مازح سخيف..

- واليوم.. يا ستروك؟

- إني أظن ما يحتمل أن تظنه أنت يا سيد وارد بعد أن تلم بالموضوع.

وأمسك السيد وارد بالرسالة مرة ثانية وقرأها حتى السطر الأخير، ثم أبدى تلك الملاحظة:

- إنها مُوقَّعة بحروف ثلاثة؟

- نعم يا سيد وارد، وهي الحروف الأولى للكلمات المُوقَّعة بها الصورة التي نشرتها الصحف..

فوقف السيد وارد وأجابني قائلًا:

- وها هو ذا الأصل.

فأضفت قائلًا:

- من الواضح أن الرسالتين كتبتهما نفس اليد.

- أجل يا ستروك... نفس اليد.

- أترى يا سيد وارد تلك التهديدات الموجهة إليَّ إذا حاولت دخول «جريت أيري» مرة أخرى؟

- نعم، تهديدات بالموت! ولكنك يا ستروك قد استلمت هذه الرسالة منذ شهر.. فلم لم تظهرها لي قبل الآن؟

- لأني لم أكن أعلق عليها أي أهمية.. أما اليوم بعد هذه الرسالة الآتية من «الرعب»، فقد أصبح من الضروري أن يُؤخذ الأمر مأخذ الجد.

- إني أوافقك على هذا يا ستروك.. إذ يخيل لي أن الأمر جد خطير. وإني لأتساءل عما إذا لم يكن من الممكن أن نستدل منها على مكان تلك الشخصية العجيبة.

- هذا ما تساءلت عنه يا سيد وارد.

- ولكن... ما العلاقة التي يمكن أن توجد بين «الرعب» و«جريت أيري»؟

- لا أعرف بماذا أجيب.. ولا يمكنني أن أتخيل تلك العلاقة.

فاستأنف السيد وارد قائلًا:

- ربما لا يكون هناك إلا تفسير واحد لذلك، وهو في الحقيقة قليل الاحتمال، إن لم يكن مستحيلًا.

- وما هو ذلك التفسير؟

- ذلك أن «جريت أيري» ربما تكون قد اتخذت مكانًا مختارًا لذلك المخترع يحفظ فيه أجهزته.

فصحت قائلًا:

- عجبًا! وبأي وسيلة يدخل إليها ويخرج منها؟ إني –بعد الذي شاهدته- أرى أن تفسيرك غير مقبول يا سيد وارد.

- إلا إذا يا ستروك...

- إلا إذا؟ ماذا؟

- إلا إذا كان جهاز سيد العالم هذا مزودًا بأجنحة تسمح له بالوصول إلى وكره في «جريت أيري»!

ولم أتمكن من إخفاء حركة انفعال بدرت مني، وتدل على عدم تصديقي لفكرة أن يكون جهاز «الرعب» قادرًا على مزاحمة الصقور والنسور... ولكن لا شك أن تفكير السيد وارد لم يتوقف عند ذلك الفرض...

فقد تناول الرسالتين من جديد، وأخذ يقارن كلًّا منهما بالأخرى مرة ثانية، وبفحص الكتابة بعدسة صغيرة ليتحقق من ذلك التماثل الذي جمع بينهما. لم تكن نفس اليد هي التي كتبتهما فحسب، بل كانت الكتابة بنفس القلم... كما كانت هناك علاقة وثيقة بين الحروف الموقع بها في الرسالة الأولى (م. د. م.) وكلمات «ميتر دي موند» التي وقعت الرسالة الثانية!

وبعد تفكير دام بضع لحظات، قال لي السيد وارد:

- إني سأحتفظ برسالتك يا ستروك، وأعتقد أن الفرصة أصبحت سانحة أمامك لكي تقوم بدور هام في ذلك الأمر العجيب.. أو بالأحرى في هذين الأمرين! ولكن ما هي الصلة التي تربطهما؟ لا يمكنني تخمين ذلك، غير أني أعتقد تمامًا أن هناك رابطة.. وبما أنك اشتركت في الأمر الأول، فليس من المستغرب أن تقوم بالأمر الثاني.

- أتمنى ذلك يا سيد وارد.. وينبغي ألا يكون في ذلك ما يدهشك من جانب شخص محب للاستطلاع...

- إنك لكذلك حقًّا يا ستروك! حسن، ليس أمامي الآن إلا أن أكرر لك: كن مستعدًا للرحيل عند أول إشارة.

وغادرت إدارة الأمن العام وأنا واثق تمام الثقة من أني سأدعي للمشاركة في هذا العمل في أقرب فرصة، بل ربما أُطلب للرحيل أنا ومساعدايَّ بعد أقل من ساعة. وهذا ما كان السيد وارد قد اعتزم تنفيذه بالفعل.

وكانت النفوس قد ازدادت اضطرابًا منذ أن رفض قائد جهاز «الرعب» عروض الحكومة الأمريكية. وكذلك كانت حال «البيت الأبيض» والوزراء، إذ كان الرأي

العام لا يكف عن المطالبة بالعمل الحاسم... ولكن بأي طريقة كان يمكن أداء هذا العمل حقًّا؟ وأين يمكن العثور على سيد العالم؟ وحتى إذا عاد ثانية إلى الظهور في مكان ما، فكيف يمكن القبض عليه؟ لقد كان في تصرفاته دائمًا أشياء لا يمكن شرحها. نعم، لقد كانت آلته تمتاز بسرعة فائقة، هذا ما لا شك فيه، ولكن كيف أمكنه أن يدخل بها في بحيرة كيردال التي لا تتصل بالخارج، ثم كيف خرج منها؟ وكيف ظهر أخيرًا على سطح (البحيرة العليا) دون أن يراه أحد على طول المسافة التي تفصل بين البحيرتين والتي تبلغ ثمانمائة ميل!

إنه لأمر عجيب حقًّا، وإنها لأشياء بلغت الغاية في الغموض! كان لا بد من وضع حد له... وبما أن ملايين الدولارات كانت قد أخفقت في إرضائه، فقد أصبح من الضروري الالتجاء إلى القوة... لم يكن من الممكن شراء المخترع واختراعه، وكلنا يعرف عبارات التهديد المتعجرفة التي عبر بها عن رفضه! فليكن! سيعتبر شقيًّا خارجًا على القانون، وستصبح جميع الوسائل التي تتخذ ضده لتكف أذاه وسائل قانونية! لقد كان الأمن يتطلب هذا الإجراء لا في أمريكا وحدها، بل في العالم أجمع. فمنذ رسالته المشهورة في 15 يولية لم يعد افتراض هلاكه في كارثة أمرًا مقبولًا.. لقد كان لا يزال حيًّا... نعم، كان حيًّا ما في ذلك من شك، وكانت حياته في حد ذاتها خطرًا عامًّا، خطرًا يهدد الجميع في كل لحظة!

وبناءً على ذلك نشرت الحكومة المذكرة التالية:

«بما أن قائد جهاز «الرعب» يرفض التنازل عن سره، بكل الملايين التي قدمت له، وبما أن استعماله لذلك الجهاز يشكل خطرًا لا يمكن تجنبه، فقد اعتُبِرَ ذلك القائد المذكور خارجًا على القانون، ونوافق مقدمًا على كل الوسائل التي تؤدي إلى هلاكه هو وجهازه».

وأعلنت الحرب، الحرب التي لا هوادة فيها ضد ذلك الرجل الذي يطلق على نفسه لقب «سيد العالم»، والذي يعتقد أن لديه من القوة ما يمكنه من مواجهة شعب بأكمله، شعب ليس أقل من الشعب الأمريكي!

وخصصت الدولة منذ ذلك اليوم جوائز ضخمة لمن يتمكن من اكتشاف مخبئه، أو من ينجح في القبض عليه، أو يريح البلاد منه.

هكذا كان الموقف أثناء الخمسة عشر يومًا الأخيرة من شهر يولية. إلا أننا إذا أمعنا التفكير فيه فماذا نتوقع بالنسبة لحله، إلا أن يكون هذا الحل من بنات الصدفة؟ فلكي يقبض على ذلك الخارج على القانون، ألم يكن من المحتم أن يعود أولًا إلى الظهور في مكان ما، ثم يشاهده أحد الأشخاص، ويرشد إلى مكانه، فتعد الفرص الملائمة للقبض عليه؟ ذلك أنه لا يمكن القبض عليه بمجرد أن يصبح جهازه سيارة تجري على الأرض أو باخرة تمخر عرض البحر، أو غواصة تسبح تحت الماء! لا... إنه من الضروري أن يُقبض عليه فجأة قبل أن يتمكن من الهرب بتلك السرعة التي لا يمكن أن تدانيها سرعة أي آلة أخرى للنقل.

وكنت والحالة هذه يقظًا جدًّا، أترقب، وأنتظر من السيد وارد أمرًا بالرحيل مع مساعدَايَّ؛ ولكن ذلك الأمر لم يصل لسبب وجيه، وهو أن من كان يتعلق به ذلك الأمر ظل بعيدًا عن الأنظار.

وكان آخر شهر يولية يقترب، والصحافة لم تكن تتوقف عن مواجهة قرائها بذلك الموضوع. وكانت تنشر أحيانًا أخبارًا جديدة تثير الفضول العام -فضول الشعب- وكانت تحدد أماكن أخرى ظهر فيها ذلك القائد. ولكن لا شيء من ذلك كان صحيحًا. وكانت البرقيات تعبر طول البلاد وعرضها، وتتضارب في أقوالها، ثم تمزق. وفضلًا عن ذلك، فنحن نعلم أن طعم الجوائز الضخمة لم يكن ليولد إلا الأخطاء، ولو بحسن النية.. فيومًا كنا نسمع أن المركبة رُؤيت تمر كالزوبعة، ويومًا يُقال: لقد كانت السفينة تسبح على سطح البحيرات الموجودة في أمريكا، أو لقد كانت الغواصة تتحرك بالقرب من الشاطئ.. وكان ذلك مجرد نتيجة لخيال يعمل عند بعض النفوس المذعورة الهائجة، التي كانت ترى كل تلك الأوهام من خلال كأس الجوائز الضخمة!

وأخيرًا في اليوم التاسع والعشرين من يولية تسلمت من رئيسي الأمر بالمرور عليه بمكتبه فورًا ودون إضاعة لحظة واحدة.

وبعد عشرين دقيقة كنت معه.

فقال لي:

- ستسافر بعد ساعة يا ستروك...

- إلى أين؟

- إلى توليدو.

- وهل شاهده أحد هناك؟

- نعم... وستحصل على المعلومات التي تريدها من هناك.

- سنكون بعد ساعة في طريقنا أنا ومساعدايَّ.

- حسن يا ستروك، وإني أصدر إليك الأمر الصريح القاطع.

- أي أمر يا سيد وارد؟

- بأن توفق هذه المرة... بأن توفق!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الحادي عَشر

الحملة

وهكذا عاد إلى الظهور في مكان ما من أراضي الولايات المتحدة ذلك القبطان الزئبقي. لم يحدث له أن ظهر في طرق أوروبا ولا في بحارها. فإن لم يكن قد تجاوز المحيط الأطلسي الذي كان في استطاعته أن يعبره في أقل من أربعة أيام... أكانت أمريكا إذَنْ هي القارة الوحيدة التي جعل منها ميدانًا لتجاربه؟ وهل لنا أن نستنتج من ذلك أنه كان أمريكيًّا؟

لا تدهش إذا كنت أهتم بهذه النقطة. وهي أنه كان من الممكن للغواصة أن تطوي البحر الواسع، الذي يفصل بين القارة الجديدة والقارة القديمة. فلم يكن هناك ما تخشاه من تلك الأحوال الجوية الرديئة التي تعكر صفو تلك الجهات، فضلًا عن أن سرعتها التي لا تقارن بها سرعة أفخم البواخر الإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية كان من شأنها أن تضمن لها رحلة قصيرة المدى الزمني. كما لم يكن يهمه أيضًا اضطراب الأمواج، إذ كان يكفيه أن يترك سطح الماء ليجد الراحة التامة تحته بعشرات الأقدام. ولكنه لم يكن قد حاول القيام بهذه الرحلة عبر الأطلنطي. فإذا أمكن القبض عليه، فربما كان ذلك في ولاية أوهيو، ما دامت توليدو إحدى مدنها.

ومع ذلك كان هذا السر محصورًا بين إدارة الأمن العام وذلك المساعد الذي أتى بالخبر، والذي سألحق به عن قريب. لم تكن أي صحيفة قد حصلت على بشائر ذلك الخبر –وقد كانت الصحف كلها على استعداد لشرائه بأعلى ثمن؛ ذلك إنه كان يهمنا ألا يتسرب الخبر قبل أن تتم الحملة، لذلك قررنا أنا وزملائي ألَّا نبوح بالسر.

وكان المساعد الذي توجهت للقائه بتفويض من السيد وارد يُدعى آرثر ويلز، وكان ينتظرني في توليدو.

وكانت معدات الرحلة قد جُهزت –كما تعلم- منذ وقت قليل، وكان كل ما أخذناه معنا من أمتعة ثلاث حقائب ممتلئة إلى حد ما، ذلك لأننا كنت نتوقع أن يطول غيابنا. وتزود جون هارت وناب ووكر بمسدسات للجيب، وفعلت أنا أيضًا مثلهم، فقد يتطلب الأمر منا هجومًا أو دفاعًا عن أنفسنا!

إن مدينة توليدو مشيدة في الطرف الأقصى من بحيرة إيريه، التي تغطي مياهها شواطئ أوهيو الشمالية. وكانت قد حُجزت لنا مقاعد ثلاثة بالقطار السريع، الذي عبر بنا أثناء الليل فيرجينيا الشرقية وأوهيو، إذ لم تكن مهمتنا لا تحتمل أي تأخير. وعندما بلغت الساعة الثامنة صباحًا كانت القاطرة تقف في محطة توليدو.

وكان آرثر ويلز ينتظر على الرصيف، وعندما أُنبئ بوصول المفتش العام، سارع –كما أخبرني- لمقابلتي بكل لهفة، وكنت أبادله أنا أيضًا نفس الشعور.

وما كدت أضع قدمي على الأرض، حتى عرفت رجلًا كان منهمكًا في فحص وجوه المسافرين.

اقتربت منه وقلت له:

- السيد ويلز؟

فأجابني:

- السيد ستروك؟

- نعم، أنا بعيني.

فأردف قائلًا:

- إني طوع أمرك.

فسألته:

- هل لا بد لنا أن نبقى بضع ساعات في توليدو؟

- لا، بعد الاعتذار إليك يا سيد ستروك.. فهناك عربة يجرها حصانان قويان تنتظرنا في فناء المحطة، ويجب الرحيل في الحال حتى نصل إلى المكان المنشود قبل المساء.

فأجبته وأنا أشير إلى مساعدَيَّ أن يتبعانا:

- نحن مستعدون لمرافقتك.. ولكن هل سنذهب بعيدًا؟

- حوالي العشرين ميلًا.

- وما اسم المكان.

- مضيق الصخرة السوداء.

ولكن لما كان لا بد لنا أن نصل سريعًا إلى ذلك المضيق، فكان من المستحسن أن نختار فندقًا لنترك به حقائبنا. وبفضل السيد آرثر ويلز كان هذا الاختيار سهلًا في مدينة بها من السكَّان مائة وثلاثون ألف نسمة.

وأوصلتنا العربة إلى هوايت أوتيل (الفندق الأبيض)، وبعد وجبة سريعة، كنا في طريقنا إلى هدفنا منذ الساعة العاشرة.

كانت العربة تحتوي على أربعة مقاعد غير مقعد السائق. وكان من الممكن أن تكفينا المؤونة المحفوظة في صناديقها عدة أيام إذا ما اقتضى الأمر ذلك، إذ لم يكن بمضيق الصخرة السوداء أي نوع من الطعام. فهو مكان مهجور تمامًا، لا يتردد عليه فلاحو المنطقة المجاورة ولا الصيادون. كما لا توجد به حانة واحدة يمكن لأحد أن يتناول طعامه فيها، أو حجرة ينام فيها إنسان. لقد كنا إبَّان الفصل الحار في شهر يولية، ذلك الشهر الذي تسخر فيه الشمس بحرارتها، ولذا لم يكن هناك ما نخشاه من تغير حالة الجو، إذا كان لا بد لنا أن نبيت ليلة أو ليلتين تحت النجوم.

إلا أنه كان من المحتمل جدًّا إذا قُدِّر لنا النجاح في محاولاتنا ألا نقضي هناك إلا بضع ساعات. فقد نقبض على قائد جهاز «الرعب» قبل أن يتمكن من الهرب، وقد يفلت منا، فنفقد كل أمل في القبض عليه.

لقد كان آرثر ويلز –وهو يبلغ من العمر أربعين عامًا- من أحسن رجال شرطة الاتحاد. كان قويًّا حازمًا، جسورًا مقدامًا، رابط الجأش، وقد برهن على كل ذلك في مناسبات عديدة مخاطرًا بحياته في بعض الأحيان. لقد كان يُوحي بالثقة لرؤسائه، الذين كانوا يقدرونه أحسن التقدير. وكان في توليدو مكلفًا بالقيام بمهمة أخرى عندما ساقته الظروف إلى مكان «الرعب».

وألهب السائق ظهور الخيل بضربات سوطه، فأخذت العربة تجري بسرعة على طول ساحل بحيرة إيريه، وتتجه ناحية الطرف الجنوبي الغربي عند ذلك السهل الفسيح المنساب الذي يقع بين الأراضي الكندية في الشمال وولايات أوهيو

وبنسلفانيا ونيويورك في الجنوب. وإذا كنت أتكلم عن التكوين الجغرافي لتلك البحيرة من ناحية عمقها ومساحتها، ومجاري المياه التي تغذيها، والقنوات التي بفضلها تتدفق مياهها الغزيرة، فذلك لما لكل هذا من أهمية في القصة التي ستأتي بعده.

إن مساحة إيريه لا تقل عن 24768 كيلو متر مربع، وارتفاعها يقرب من 1000 قدم فوق مستوى سطح البحر، وتتصل من الشمال الغربي ببحيرة هورن وبحيرة سانت كلير ونهر ديتروا، وهي التي تمدها بالمياه، كما أنها تتلقى بعض الماء من روافد قليلة الأهمية مثل روكي وجويا هوجا وبلاك.

وهي تصب في الشمال الشرقي في بحيرة أونتاريو بين ضفاف نياجرا عند المساقط المشهورة.

ويبلغ أكبر عمق حدده المقياس في إيريه 135 قدمًا، مما يدل على كميات المياه الهائلة، التي تضمها تلك البحيرة، ولا غرابة في ذلك؛ فهنا توجد منطقة تلك البحيرات الهائلة، التي تتعاقب بين الأراضي الكندية والولايات المتحدة الأمريكية.

ولما كانت تلك المنطقة تقع على خط عرض 40 درجة شمالًا، فالجو فيها بارد جدًّا في الشتاء، إذ تهب عليها بشدة بالغة تيارات المناطق القطبية الشمالية، التي لا تعترضها أي عقبة. ولذلك لن يُدهش المرء إذا ما علم أن سطح بحيرة إيريه يتجمد تمامًا فيما بين شهري نوفمبر وأبريل من كل عام.

أما البلاد الرئيسة التي توجد على ضفاف تلك البحيرة الكبرى فهي: بافالو التي تتبع ولاية نيويورك، وتوليدو. أما إحداهما ففي الشرق، وأما الأخرى ففي الغرب. وكليفلاند وساندوسكي وهما يتبعان ولاية أوهيو في الجنوب. وهذه غير ضياع قليلة الأهمية، وقرى متواضعة على الساحل. كما أن نشاط إيريه التجاري عظيم إذ لا يقدر دخل المرور السنوي بأقل من 2.200.000 دولار.

وأخذت العربة تسير بنا في طريق صخري، ينحني مع تعاريج الشاطئ الكثيرة.

وبينما كان السائق يطلق لخيله العنان، كنت أتبادل الحديث مع آرثر ويلز، فوقفت منه على باعث تلك البرقية التي أرسلها إلى إدارة الأمن العام في واشنطن.

وخلاصة الأمر أن ويلز كان قبل ذلك بثمان وأربعين ساعة، أي بعد ظهر 27 من يولية، ممتطيًا جواده، ويسير ناحية ضيعة هيرلي الصغيرة. ولم يكد يصل على بعد خمسة أميال منها حتى كان يعبر غابة صغيرة، فرأى غواصة تصعد فوق سطح البحيرة. وتوقف عن السير، ونزل من فوق صهوة جواده، واختبأ خلف الأغصان. فرأى بعينيه تلك الغواصة، وهي تقف عند طرف مضيق الصخرة السوداء. فهل كانت هي ذلك الجهاز الذي لم يتمكن أحد من القبض عليه، والذي ظهر من قبل على وجه الماء، ثم اقترب من الشاطئ في بحيرة كيردال وبالقرب من بوسطن؟

وعندما وصلت تلك الغواصة إلى أسفل الصخور، قفز منها رجلان إلى الساحل.. فهل كان أحدهما هو سيد العالم، الذي لم يعد يسمع عنه أحد شيئًا منذ أن ظهر في البحيرة العليا؟! وهل كانت هذه الغواصة هي جهاز «الرعب» الخفي، وقد عاد من أعماق بحيرة إيريه؟

قال ويلز:

- كنت وحدي في أقصى ذلك المضيق... ولو كنتَ هنا يا سيد ستروك أنت ومساعداك لكنا أربعة ضد اثنين، ولقمنا بدورنا، ولأمكننا أن نقبض على هذين الرجلين قبل أن يتمكنا من الإبحار، ويتخذا طريق الفرار.

فأجبته:

- هذا طبيعي، ولكن ألم يكن يوجد بالغواصة أحد غيرهما؟ ولكن مهما كان الأمر، فإننا لو كنا قد قبضنا عليهما، لأمكننا أن نعلم من هما.

فأضاف ويلز قائلًا:

- وخاصة إذا كان أحدهما هو ربان ذلك «الرعب»!

- إني يا ويلز لا أخشى سوى شيء واحد، وهو أن تكون تلك الغواصة قد غادرت المضيق بعد رحيلك.

- سنعرف ذلك بعد بضع ساعات، وندعو الله أن نجدها هناك! وبعد ذلك، عندما بدأ الليل يرخي سدوله!

فسألته:

- ولكن ألم تمكث في الغابة الصغيرة حتى المساء؟

- لا.. غادرتها حوالي الساعة الخامسة، وفي الليل وصلت إلى توليدو، ومن هناك أرسلت برقيتي إلى واشنطن.

- وهل عدت بالأمس إلى مضيق الصخرة السوداء؟

- نعم.

- أكانت الغواصة لا تزال هناك؟

- في نفس المكان.

- والرجلان؟

- والرجلان أيضًا.. وفي رأيي أن عطبًا ما أتى بهما إلى ذلك المكان المهجور... إذ كان لا بد من إصلاحه.

فقلت:

- يحتمل ذلك.. وقد يكون ذلك العطب قد منعهما من أن يصلا إلى مخبئهما المعتاد.. أرجو أن يكون الأمر كذلك!

- إني أميل إلى هذا الرأي، فقد كانت هناك بعض الأدوات موضوعة على الساحل، وعلى قدر ما أمكنني أن أشاهده، دون أن أثير انتباههما، خُيِّل إليَّ أنهما كانا يعملان على ظهر الغواصة.

- هذان الرجلان فقط؟

- فقط.

ثم أبديت تلك الملاحظة:

- ولكن أكان ذلك الطاقم كافيًا لإدارة جهاز له مثل تلك السرعة الفائقة، ويكون طورًا سيارة وطورًا سفينة أو غواصة؟

- لا أظن ذلك يا سيد ستروك.. ولكني في ذلك اليوم لم أشاهد غير من رأيتهما البارحة.. فقد أتيا إلى الغابة الصغيرة، حيث كنت أختبئ.. كانا يقطعان بعض الأغصان، ويشعلان النار على الرمال. إن ذلك المضيق مهجور تمامًا، حتى أنه كان من المحال أن يقابلهما أحد، ولا بد أنهما كانا يعلمان ذلك.

- أيمكنك التعرف عليهما؟

- نعم.. فأحدهما متوسط القامة، قوي البنيان، عليه سيمات الحزم والصرامة، تام اللحية.. والآخر سمين وأقصر منه قامة... وبعد ذلك غادرت المكان كما غادرته البارحة حوالي الساعة الخامسة. وعند عودتي إلى توليدو استلمت برقية السيد وارد التي أنبأني فيها بميعاد وصولك، فذهبت إلى المحطة لاستقبالك.

هذا إذَنْ ما كان مقطوعًا به: -كانت الغواصة قد توقفت منذ ست وثلاثين ساعة عند مضيق الصخرة السوداء، وربما كان ذلك للإصلاحات اللازمة، وقد نجدها هناك إذا أسعدنا الحظ. أما بالنسبة لوجود جهاز «الرعب» على بحيرة إيريه، فقد كان من السهل تفسيره بصورة طبيعية، وكان علينا أنا وآرثر ويلز أن نقتنع بذلك. إن آخر مرة شُوهد فيها ذلك الجهاز من قبل كان على سطح البحيرة العليا- فهو إما أن يكون قد اجتاز المسافة بين تلك البحيرة وبحيرة إيريه عن طريق البر، حيث يكون قد سار في طريق متشجان حتى الضفة الغربية من البحيرة، وإما أن يكون قد اجتازها عن طريق الماء، حيث يكون قد سلك مجرى نهر دترويت أو سار تحت الماء. غير أن أحدًا لم يشاهد مروره أبدًا على الطريق، على الرغم من أن رجال الشرطة كانوا يقومون بمراقبة تلك الولاية بمثل الدقة التي كانوا يراعونها في مراقبتهم لأي ولاية أخرى من ولايات الأراضي الأمريكية... يبقى إذَنْ ذلك الفرض القائل بأن السيارة قد تحولت إلى سفينة، أو غواصة. وفي هذه الأحوال أصبح من الممكن للقائد ومرافقيه أن يبلغوا مناطق إيريه دون أن يشعر بهم أحد.

والآن، إذا كان جهاز «الرعب» قد غادر المضيق، أو إذا فلت منا ونحن نحاول القبض عليه، فهل سنفقد كل أمل في الإمساك به؟ لست أدري! وعلى كل حال سيكون الجهاز تحت مراقبة شديدة.

لم أكن أجهل أنه كانت توجد في ذلك الوقت مدمرتان في مياه بافالو في الطرف الأقصى من بحيرة إيريه. إذ كان السيد وارد قد أنبأني بوجودهما قبل رحيلي، وما كان علينا إلا أن نبرق إلى قائدي هاتين المدمرتين، إذا ما اقتضت الحاجة استدعاءهما لمطاردة جهاز «الرعب». ولكن كيف كان يمكن اللحاق به وهو بهذه السرعة المذهلة، ثم إذا تحول إلى غواصة، كيف كان يمكن مهاجمتها في مياه بحيرة إيريه إن لجأت إليها؟ لقد كان من رأي آرثر ويلز أنه لا يمكن أن تكون الغلبة للمدمرتين في ذلك الصراع غير المتكافئ. لذلك كان من رأيه أنه إذا لم يقدر لنا النجاح منذ الليلة القادمة، فلن توفق الحملة!

وكان ويلز قد أخبرني أن مضيق الصخرة السوداء غير مطروق، كما أن الطريق الذي يصل توليدو بضاحية هيرلي، وهي على بعد أميال منها، يبتعد عن ذلك المضيق عند نقطة معينة، وأنه إذا وصلت عربتنا إلى أعلى المضيق أصبحت رؤيتها من الشاطئ غير ممكنة. وإذا ما وصلت إلى طرف الغابة الذي يحجبها عن الأنظار أصبح من السهل عليها أن تحتجب تحت الأشجار. فإذا ما أتى الليل أمكننا

أنا وزملائي أن نتخذ لنا مكانًا على حافة الغابة المجاورة لبحيرة إيريه. ومن هناك يكون السهل علينا تمامًا أن نلاحظ ما يحدث داخل المضيق.

وقد كان ويلز يعرف جيدًا ذلك المضيق. فقد سبق له أن تردد عليه أكثر من مرة أثناء إقامته في توليدو. وكان المضيق محاطًا بصخور مخروطية ترتطم بها مياه البحيرة. ويبلغ عمقه على طول محيطه ثلاثين قدمًا.

فكان جهاز «الرعب» يستطع إذَنْ أن يقترب من طرف المضيق غائصًا في الماء أو عائمًا على وجهه. وكان ذلك الشاطئ الكثير الثغرات يتلاقى عند مكانين أو ثلاثة مع الساحل الرملي، الذي كان يمتد حتى حافة الغابة الصغيرة على مسافة طولها مائتا قدم، أو ثلاثمائة.

وبعد استراحة قصيرة في منتصف الطريق وصلت عربتنا إلى طرف الغابة، وكانت الساعة قد بلغت السابعة مساء. كان الوقت لا يزال نهارًا وكنا عرضة لأن نُرى إذا ما حاولنا أن نصل إلى أول المضيق حتى ولو سرنا في حمى الأشجار. ولو فرضنا أن الجهاز كان لا يزال في ذلك المكان، فإنه كان لا بد أن يعمل -إذا ما رآنا- على الابتعاد سريعًا عن الشاطئ، في حالة ما إذا كانت إصلاحاته قد انتهت.

وعندما وقفت بنا العربة عند طرف الغابة، سألت ويلز قائلًا:

- هل سنتوقف هنا؟

فأجابني:

- لا يا سيد ستروك، بل يستحسن أن نعسكر في الداخل حتى نطمئن إلى أن أحدًا لن يقف على مكاننا.

- وهل يمكن للعربة أن تسير تحت هذه الأشجار؟

فقال ويلز:

- يمكنها، فقد سبق لي أن جبت هذه الغابة وزرت كل نواحيها. فعلى بعد خمسمائة أو ستمائة خطوة من هنا يوجد مكان خال من الأشجار، ويمكن لخيولنا أن تجد به المرعى... فإذا ما خيم الظلام نزلنا إلى الساحل حتى أسفل الصخور التي تحيط بنهاية المضيق.

ولم يكن لنا إلا أن نتبع نصائح ويلز. فعبرنا طرف الغابة سيرًا على الأقدام -أنا ورفاقي- ونحن نقود الخيول من لجمها.

وكانت أشجار الصنوبر البحرية والبلوط الأخضر والسرو، المتجمعة بغير نظام، كثيفة داخل الغابة. وكان يمتد على الأرض بساط كثيف من الأعشاب المخلوطة بالأوراق الجافة. وكانت أوراق الأغصان العليا من الكثافة بدرجة جعلت الأشعة الأخيرة لشمس الغروب تعجز عن اختراقها. كما أنه لم يكن من الممكن رؤية الطرق أو الممرات. وعلى الرغم من ذلك، وبعد أن توقفنا عن المسير بضع مرات، تمكنت العربة من الوصول إلى المكان الخالي من الأشجار في أقل من عشر دقائق.

وكان ذلك المكان، المحاط بالأشجار الضخمة، بيضاوي الشكل، يكسوه العشب الأخضر. وكان الوقت لا يزال نهارًا، ولم يكن في مقدور الظلام أن يخيم عليه إلا بعد ساعة. ومن ثم فقد كان الوقت ملائمًا للتوقف من أجل أن نستريح من عناء تلك الرحلة التي قمنا بها عبر طرق غير مستوية.

نعم، لقد كانت رغبتنا شديدة في الوصول إلى ذلك المضيق، لنرى إذا كان جهاز «الرعب» لا يزال هناك.. ولكن الفطنة والتبصر بعواقب الأمور منعتنا من العجلة. فصبرنا قليلًا حتى يسمح لنا الظلام ببلوغ المضيق دون أن يرانا أحد، تلك كانت نصيحة ويلز، ورأيت من الصواب أن أقبلها.

واتفقنا على أن نطلق سراح الخيل في المرعى، وأن نبقيها في حراسة السائق أثناء غيابنا. بعد ذلك فتحنا الصناديق، وأخرج منها جون هارت وناب ووكر المؤونة التي نشرناها على العشب تحت شجرة سرو كبيرة كانت تذكرني برائحة غابات مقاطعتي «مورجانتون» «وبليزانت جاردن». كنا جائعين وظمأى، فأكلنا وشربنا ما شئنا، ثم أشعل كلٌ منا غليونه في انتظار لحظة الرحيل.

وكان الهدوء تامًّا داخل الغابة، إذ كانت الطيور قد توقفت عن تغريدها. وبمجيء الليل بدأ النسيم يهب قليلًا قليلًا، وأخذت أوراق الأشجار تهتز اهتزازًا خفيفًا على أطراف الأغصان العليا. وعندما غربت الشمس أظلمت السماء سريعًا، فقد أقبل الظلام بعد الغسق.

ونظرت إلى ساعتي، وكانت تشير إلى الثامنة والنصف.

فقلت:

- لقد حان الوقت يا ويلز.

- كما يحلو لك يا سيد ستروك.

- فلنرحل إذَنْ.

وأوصينا السائق بألا يترك الخيل تبتعد عن المرعى أثناء غيابنا. وسار ويلز في المقدمة، وسرت أنا خلفه يتبعني جون هارت وناب ووكر. ولولا أن ويلز قد قام بدور الدليل لصادفتنا صعوبات كبيرة في اختيار الطريق الصحيح.

ووصلنا أخيرًا عند طرف الغابة حيث يمتد أمامها الساحل الرملي حتى مضيق الصخرة السوداء.

وكان كل شيء هادئًا، والمكان خاليًا تمامًا. وقد حانت الفرصة لكي نقوم بمغامرتنا دون خطورة. ولا شك أنه إذا كان جهاز «الرعب» لا يزال هناك، فلا بد أن يكون قد اتخذ مرساه خلف الصخور. ولكن هل لا يزال هناك؟ هذا هو السؤال الوحيد. وإني لأعترف أن قلبي أخذ يدق في صدري وأنا اقترب من نهاية ذلك الأمر المثير.

وأشار ويلز بأن نتقدم... وكان رمل الساحل يئن تحت أقدامنا.. ولم يعد أمامنا إلا مائتا خطوة تكفي بضع دقائق لقطعها.. وها نحن الآن عند مدخل أحد الممرات التي تؤدي إلى شاطئ البحيرة...

ولكن لم نر هناك شيئًا! فالمكان الذي ترك فيه ويلز جهاز «الرعب» قبل أربع وعشرين ساعة أصبح خاليًا! ولم يعد سيد العالم يوجد في مضيق الصخرة السوداء!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثانِي عشر

مضيق الصخرة السَّوَداء

كلنا نعلم إلى أي حدٍّ تركن الطبيعة البشرية إلى الأوهام. فلا شك أنه كان من المحتمل أن يكون الجهاز الذي نبحث عنه قد غادر ذلك المكان... هذا إذا سلمنا بأنه هو نفس الجهاز الذي كان ويلز قد لاحظ صعوده إلى سطح الماء عصر اليوم السابع والعشرين. فإذا صح أنه كان هناك تلف ما أصاب هذا الجهاز ذا المحرك الثلاثي الأغراض فمنعه من العودة إلى مأواه برًّا أو عن طريق الماء، واضطره إلى الرسو في طريق مضيق الصخرة السوداء، فماذا كان يجب أن يخطر ببالنا إذا لم نجده هناك؟ كان الأقرب أن نقول إنه رحل بعد أن أُصلح، وإنه غادر مقره في بحيرة إيريه.

فهذه الفروض مع أنها كانت كبيرة الاحتمال، لم نشأ التسليم بها بعد أن قارب اليوم على الانقضاء. كلا! لم نعد نُسلِّم بأن هذا الجهاز كان جهاز «الرعب»، ولا بأنه رسا عند قاعدة الصخور حيث قال ويلز إنه رآه...

فيا لخيبة الأمل؛ بل ويا لليأس! هذه حملتنا وقد أصبحت بلا جدوى.. وحتى إذا كان جهاز الرعب ما زال يمخر سطح البحيرة أو تحت مائها، فقد كان فوق طاقتنا أن نعثر عليه، أو أن نلحق به، أو أن نقبض عليه. ثم لماذا نجري في هذا الأمر وراء الأوهام؟ إنه فوق طاقة البشر!

وبقينا هناك أنا وويلز خائري القوى، بينما أخذ جون هارت وناب ووكر يتنقلان بين مواضع الخليج المختلفة، وهما لا يقلان عنا سخطًا.

كانت هذا حالنا، رغم أننا كنا قد اتخذنا إجراءات دقيقة كان مقدرًا لها كل فرص النجاح. فلو كنا في لحظة وصولنا قد وجدنا على الساحل الغربي هذين الرجلين اللذين شاهدهما ويلز لاستطعنا أن نصل إليهما زحفًا وأن نقبض عليهما قبل أن يصعدا إلى سفينتهما، ولو كانا على سطح السفينة خلف الصخور، لانتظرنا نزولهما إلى البر، ولكان من السهل علينا أن نقطع عليهما خط الرجعة! وبما أن ويلز لم يكن قد رأى في هذا اليوم واليوم الثاني سوى هذين الرجلين، فكان من المحتمل ألا يكون في «الرعب» أكثر من رجلين! ذلك ما كنا قد فكرنا فيه، وتلك هي الطريقة التي كنا نريد تنفيذها! ولكن لسوء الحظ لم يكن «الرعب» هناك! فجلست في نهاية المضيق دون أن أتبادل مع ويلز إلا بضع كلمات. وهل كانت هناك حاجة للحديث ليعرف أحدنا ما كان يجيش بصدر الآخر! إننا بعد أن كنا حانقين بدأ الغضب يستولي علينا شيئًا فشيئًا، وشعرنا بالعجز عن الاستمرار في حملتنا أو استئنافها من جديد! ذلك لأننا لم نتمكن من تنفيذ خطتنا.

وانقضى ما يقرب من الساعة.. لم نكن نفكر في مبارحة المكان.. ولم تكن أعيننا تكف عن البحث في أعماق تلك الظلمات الكثيفة.. كان يهتز أحيانًا على سطح البحيرة بريق من النور، كما لو كان هناك ضوء قد انعكس على المياه، ولكن سرعان ما كان يتلاشى حاملًا معه أملًا سرعان ما خاب.. وكان يبدو لنا أيضًا في بعض الأحيان أننا نرى خيالًا يرتسم خلال الظلام كما لو كان خيال سفينة تقترب... وأحيانًا أخرى كانت تبدو هناك بعض الدوامات، كما لو كانت ناجمة عن اضطراب

في أعماق مياه الخليج! ولكن هذه الدلائل الغامضة كانت تسارع بالاختفاء.. ولم يكن هذا كله سوى وهم من عقولنا وضلال من خيالنا المضطرب!

ولكن ها هم أولاء رفاقنا يعودون إلينا، فكان أول سؤال وجهته إليهم:

- أليس هناك من جديد؟!

أجاب جون هارت: لا شيء!

فسألته: وهل تجولت في أنحاء الخليج؟

وأجاب ناب ووكر: نعم، ولم نر شيئًا، لم نر أي أثر للأدوات التي شاهدها ويلز!

فقلت لهم: «فلننتظر»؛ ذلك لأنه لم يكن في استطاعتي أن أقرر العودة إلى الغابة.

إلا أنه في تلك اللحظة حدث ما استرعى انتباهنا.. فقد حدث اضطراب في المياه أخذ ينتشر حتى وصل إلى أسفل الصخور.

فأبدى ويلز ملاحظته قائلًا:

- كأن هذا تلاطم أمواج!

فأجبت وأنا أخفض من صوتي بحكم الغريزة:

- هذا صحيح. ومن أين يأتي؟ والريح قد أصبحت رخاء! أهو اضطراب في سطح البحيرة يا تُرى!

فأضاف ويلز الذي كان قد انحنى ليحسن الاستماع:

- أو تحت سطحها؟

وفي الواقع، كان هناك ما يبعث على التساؤل عما إذا كانت هناك سفينة ما تتجه إلى أعماق الخليج، وقد أثار محركها هذا الاضطراب.

كنا نحاول ونحن صامتون جامدون أن نخترق بنظرنا ذلك الظلام العميق، بينما أخذ تلاطم الأمواج يزداد على صخور الساحل.

وفي هذه الأثناء كان جون هارت وناب ووكر قد تسلقا القمة العليا من الناحية اليمنى. أما أنا، فقد انحنيت على سطح البحيرة وأخذت أراقب اضطراب الماء الذي لم يكن يهدأ، بل على العكس من ذلك أخذ يبدو لي أكثر وضوحًا. وبدأت أسمع نوعًا من الدق المنتظم يشبه الصوت الذي يصدر عن محرك يدور.

وصرخ ويلز وهو يميل نحوي قائلًا:

- لم يعد هناك شك، فهذه سفينة تقترب.

فأجبت قائلًا:

- بالتأكيد، إلا إذا كان في بحيرة إيريه حيتان أو بعض أسماك القرش.

فكرر ويلز قائلًا:

- كلا! إنها سفينة! ولكن أهي تتجه نحو قاع الخليج، أم هي تحاول الرسو في مكان آخر؟

- هل رأيتها هنا في المرتين السابقتين؟

- نعم هنا يا سيد ستروك.

- حسن، وإذا كانت هي نفس السفينة –ولا يمكن أن تكون سواها- فليس هناك من سبب يبرر عدم عودتها إلى نفس المكان.

وعندئذٍ قال ويلز وهو يمد يده في اتجاه مدخل الخليج:

- انظروا.. انظروا!

وكان رفاقنا قد انضموا إلينا. وأخذنا ننظر نحن الأربعة في الاتجاه المشار إليه، ونحن نكاد نكون راقدين على حافة الساحل.

وأخذنا نميز في غير وضوح كتلة سوداء تتحرك في وسط الظلام. كانت تتقدم ببطء شديد. وكان يبدو أنها لا تزال على بعد يزيد على خمس الميل البحري(3). ولقد أصبح من العسير في ذلك الوقت سماع صوت محركها. فهل معنى ذلك أن المحرك كان قد أُوقف وأصبحت السفينة لا تسير إلا بقوة الدفع؟

(3) أي حوالي 370 مترًا.

وفي هذه الحال سيقضي الجهاز ليلته إذَنْ، كما فعل بالأمس، في قاع الخليج! فلماذا إذَنْ غادر هذه المرساة التي يعود إليها الآن؟ هل أصابه عطب جديد منعه من الإبحار إلى عرض البحر؟ أو أنه وجد نفسه مضطرًّا إلى الرحيل قبل إتمام إصلاحاته؟ ما الذي أوعز إليه باللجوء إلى هذا المكان؟ وأخيرًا هل هناك من الأسباب القوية ما جعله غير قادر على الانطلاق في طرق «أوهيو» بعد أن يتحول إلى سيارة؟

تتابعت كل هذه الأسئلة على خاطري. وسيعلم القارئ أنه كان هناك ما يحول بيني وبين الإجابة الصحيحة عنها.

وفضلًا عن ذلك، فإننا كنا نفسر هذه الأمور دائمًا أنا وويلز على أساس اعتقادنا بأن هذا الجهاز هو جهاز سيد العالم، ذلك الذي أسماه صاحبه بجهاز «الرعب» والذي حرر فيه رسالة رفضه لعروض الدولة.

ومع ذلك، فإن هذا الاعتقاد لم يصل أبدًا إلى درجة اليقين على الرغم من أنه بدا لنا كذلك!

وعلى كل حال، فقد أخذت السفينة أخيرًا تقترب. ومن المؤكد أن ربانها كان يعرف تمامًا مسالك الصخرة السوداء ما دام قد جازف باجتيازها في الظلام الدامس.

لم يكن على سطح السفينة مصباح، ولم يكن في داخلها قبس من النور ينفذ من خلال طاقاتها. كنا نسمع من آن لآخر صوت الآلة وهي تعمل في هدوء. ثم أخذت الأمواج تزداد اضطرابًا، وشعرنا بأنه قد لا تمر بضع دقائق إلا وتكون السفينة قد وصلت إلى «الرصيف».

وإذا كنت قد استعملت ذلك الاصطلاح المعروف في الموانئ، فإني لم أكن مخطئًا. فالواقع أن الصخور في ذلك الموضع تكوِّن مصطبة ارتفاعها خمسة أقدام أو ستة فوق مستوى سطح البحيرة، وهو مكان مناسب كل المناسبة لرسو السفن.

وقال لي ويلز وهو يمسك بذراعي:

- فلنغادر هذا المكان.

فأجبته قائلًا:

- كلا.. لأننا لو فعلنا ذلك لخاطرنا بالكشف عن أنفسنا، يجب عن أن ننزوي إلى جانب الشاطئ... ونختبئ عند إحدى التعاريج، وننتظر..

- سنتبعك.

ولم يكن لنا أن نضيع دقيقة واحدة. فقد أخذت الكتلة تقترب رويدًا رويدًا، وظهر شبح رجلين فوق السطح الذي كان يعلو قليلًا عن سطح الماء. فهل من المؤكد أنه لم يكن في السفينة سوى شخصين؟

وعدنا أنا وويلز وجون هارت وناب ووكر إلى ارتقاء المضيق، ثم أخذنا نزحف على طول الصخور. كانت التجاويف منتشرة هنا وهناك. فانزويت أنا وويلز في واحد منها. وقبع الشرطيان الآخران في واحد آخر.

وبذلك لم يصبح في وسع الرجلين، إذا غادرا جهاز الرعب، أن يريانا. ولكن سوف يكون في مقدورنا أن نراهما، وبذلك، يتاح لنا التصرف تبعًا للظروف.

ومن الضوضاء التي كانت تصدر من ناحية البحيرة، ومن الأحاديث المتبادلة باللغة الإنجليزية التي كانت تنبعث منها، وضح لنا أن السفينة قد رست لتوها. وفي الحال ألقت بحبل الرسو إلى نهاية ذلك الجزء من المضيق الذي غادرناه منذ لحظة.

وبما أن ويلز كان قد زحف حتى زاوية ذلك التجويف الذي كنا نقبع به، فقد شاهد أن أحد الملاحين كان يسحب الحبل بعد أن قفز إلى البر. وقد تمكنا من سماع الخطاف وهو يضرب في الأرض.

وبعد دقائق سمعنا وقع خطوات تئن تحت وطأتها رمال الشاطئ.

واتجه الرجلان نحو أطراف الغابة الصغيرة بعد أن ارتقيا المضيق. وكان يسيران متقاربين في ضوء مصباح.

فلماذا كانا يسيران في هذه الناحية؟! هل كان مضيق الصخرة السوداء هذا مكانًا لرسو جهاز «الرعب»؟ وهل كان لربانه في هذا المكان مخزن للمواد الغذائية أو للأدوات والأجهزة؟ وهل كان من عادته أن يأتي إلى هذا المكان ليتزود بالزاد كلما دفعته نزوات رحلاته المليئة بالمخاطرات إلى العودة إلى هذا الجزء من أراضي الولايات المتحدة؟ وهل كان يعرف أنه مكان قفر وخال من السكَّان تمامًا حتى وثق بأنه لن يستطيع أحد أنه يراه فيه؟

وسأل ويلز:

- وما العمل؟

فأجبت:

- فلنترك هؤلاء الناس حتى يعودوا، وحينئذ...

وقطعت حديثي فجأة بسبب مفاجأة وقعت أمامي.

كان الرجلان على بعد يقل عن ثلاثين خطوة منا، حين استدار أحدهما وسقط نور المصباح الذي كان يحمله على وجهه تمامًا...

كان هذا هو وجه أحد الشخصين اللذين كانا يراقبانني أمام منزلي في «لونج ستريت»... ولم يكن من الممكن أن أخطئه فقد كنت أعرفه كما أعرف خادمتي العجوز.. لقد كان هو، هو بنفسه، أحد هذين الجاسوسين اللذين لم أستطع أن أعثر

لهما على أثر! لم يكن هناك من شك في أن الرسالة التي تلقيتها كانت آتية منهما، تلك الرسالة التي كان خطها مماثلًا «سيد العالم»! لقد حُررت إذَنْ في سفينة الرعب كما حررت رسالة «سيد العالم»! حقًّا كانت التهديدات التي تحويها تلك الرسالة تتعلق «بجريت أيري»، ولهذا فقد سألت نفسي مرة أخرى: وما هي العلاقة التي يمكن أن توجد بين «جريت أيري» وبين جهاز «الرعب»؟

وأحطت ويلز علمًا بهذا الأمر في بضع كلمات، فأجابني باقتضاب:

- كل هذا غير مفهوم!

وفي هذه الأثناء كان الرجلان يواصلان سيرهما نحو الغابة الصغيرة، ولم يلبثا أن اجتازا أطرافها.

وهمس ويلز قائلًا:

- نرجو ألا يكتشفا عربتنا!

- لا خوف من ذلك إذا لم يجتازا الصفوف الأولى من الأشجار... ولكن ماذا يحدث إذا اكتشفانا؟

- سيعودان لركوب السفينة، وعندئذٍ تكون الفرصة مواتية لنا لنقطع عليهما خط الرجعة.

ولكننا لم نكن نسمع أي صوت يأتي من ناحية البحيرة حيث كانت السفينة راسية. فغادرت التجويف، واتخذت طريق المضيق، ثم وقفت في الموضع الذي غرس فيه الخطاف في الرمل.

كان الجهاز قابعًا هناك في هدوء مربوطًا بطرف الحبل. لم يكن هناك ضوء بالسفينة، ولم يكن أحد على ظهرها أو على الهضبة. ألم تكن الفرصة إذَنْ متاحة لنا لنقفز إلى السفينة وننتظر عودة الرجلين؟

«سيدي ستروك.. سيدي ستروك!».

لقد كان ويلز يناديني.

فعدت أدراجي بسرعة، وجثمت بالقرب منه.

فهل فات الأوان يا تُرى للاستيلاء على السفينة؟ وهل قدر أيضًا لمحاولتنا هذه أن تفشل لأن هناك أشخاصًا آخرين على ظهرها؟

ومهما كان الأمر، فإن ذلك الشخص الذي كان يحمل المصباح ظهر ثانية عند أطراف الغابة هو وزميله، وأخذ الاثنان ينحدران إلى الساحل. حينئذٍ تأكدنا أنهما لم يكتشفا أي شيء يدعو إلى الريبة. لقد سلكا طريق المضيق وحمل كل منهما لفافة، ثم توقفا عند أسفل الهضبة.

عندئذٍ سمعنا صوت أحدهما يقول:

- هيا أيها الرئيس!

ورد عليه الآخر قائلًا:

- هاأنذا!

ومال ويلز على أذني قائلًا:

- إنهم ثلاثة..

فأجبت:

- وربما كانوا أربعة.. أو خمسة.. أو ستة!

ها هو الموقف قد تعقد. فماذا نستطيع أن نعمل إذا ما كان طاقم السفينة يشتمل على عدد كبير من الرجال؟ على أي حال، كان أقل إهمال منا كفيلًا بأن يكلفنا غاليًا.. والآن، وقد عاد الرجلان، أتراهما يا ترى يعتزمان الإبحار ثانية ومعهما الربطتان؟ ثم هل ستغادر السفينة الخليج بمجرد فك الحبال، أم أنها ستبقى هناك حتى مطلع النهار؟ وإذا استأنفت سيرها، أفلا تكون في حكم المفقودة بالنسبة إلينا؟ إذ أين نجدها بعد ذلك؟ إنها إذا غادرت مياه بحيرة إيريه، أفلن يكون أمامها طرق الولايات المتاخمة أو الطريق المائي لنهر «ديترويت» الذي يوصلها إلى بحيرة «هورن»؟ وهل ستتاح هذه الفرصة مرة أخرى فتُشاهد من جديد داخل خليج «الصخرة السوداء»؟

عندئذٍ قلت لويلز:

«هيا إلى ظهر السفينة.. فنحن أربعة: أنا وأنت وهارت ووكر... إنهم لا يتوقعون هجومًا يشنه أحد عليهم... وسيُؤخذون على غرة.. فلنتوكل على الله! كما يقول البحارة».

وكنت على وشك أن أنادي مساعدَيَّ حينما أمسك ويلز بذراعي وقال لي: «أنصت!».

كان أحد الرجلين في هذه اللحظة يسحب السفينة التي أخذت تقترب من الصخور.

وراح رفاقه يتبادلون هذه الأقوال:

- هل كل شيء هناك على ما يرام؟

- نعم كل شيء أيها الرئيس.

- يتبقى إذَنْ ربطتان؟

- نعم اثنتان.

- وهل تكفي رحلة واحدة لإحضارهما لي «الرعب»؟

«الرعب»!... لقد كانت تلك السفينة إذَنْ هي جهاز المدعو «سيد العالم»!

وأجاب أحد الرجلين:

- نعم.. رحلة واحدة.

- حسن –سنرحل غدًا عند شروق الشمس!

ألم يكونوا إذَنْ أكثر من ثلاثة على ظهر السفينة، ثلاثة فقط، الربان وهذان الرجلان؟

ولما كان على هذين الرجلين أن يذهبا حتمًا إلى الغابة لإحضار الربطات الأخيرة.. ثم بعد ذلك، إذا ما عادا، أن يركبا السفينة وينزلا إلى مقصورتهما ويرقدا فيها! أفلا تكون هذه اللحظة إذَنْ هي الفرصة المناسبة لمفاجأة الجميع قبل أن يتخذوا لأنفسهم العدة للدفاع؟

ولما كنا قد تأكدنا من لسان الربان نفسه أنه لن يرحل إلا لدى الفجر، فقد اتفقت أنا وويلز على أن ندع الرجلين يعودان، ثم نستولي على «الرعب» بعد أن يستغرقا في النوم.

والآن، نرانا نتساءل: لماذا غادر الربان مرساه بالأمس قبل أن يكمل شحن مهمات السفينة؟ وما هو الأمر الذي اضطره أن يعود إلى الخليج؟ لم أستطع تفسيرًا لهذا. وعلى أي حال، فقد كانت هذه فرصة طيبة لنا نستطيع الإفادة منها.

كانت الساعة حينئذٍ تشير إلى العاشرة والنصف. وفي تلك اللحظة سمعنا وقع أقدام على الرمل. وظهر الرجل حامل المصباح ومعه رفيقه. وتقدم الاثنان في اتجاه الغابة. وبمجرد اجتيازهما أطرافهما، ذهب ويلز لينبئ الشرطيين، بينما زحفت أنا حتى طرف المضيق.

كان جهاز «الرعب» مربوطًا في طرف الحبل. وكل ما تمكنت من مشاهدته أنه جهاز مستطيل على شكل صاروخ؛ ليست له مدخنة ولا سارية ولا أي تركيب مما نعتقد أنه من لوازم السفن. كان يشبه ذلك الجهاز الذي رُئي منطلقًا في نواحي «نيو إنجلند».

وعدنا إلى أماكننا في المنحنيات، بعد أن فحصنا مسدساتنا التي قد تدعو الحاجة إلى استعمالها.

وانقضت خمس دقائق منذ أن اختفى الرجلان، وكنا نتوقع عودتهما بين لحظة وأخرى ومعهما الربطات. إذ كان علينا، إذا صعدا إلى السفينة، أن ننتظر اللحظة التي نقفز فيها على ظهرها؛ ولن يكون ذلك قبل انقضاء ساعة لكي يكون الربان ورفاقه قد ناموا نومًا عميقًا. لقد كان من الأهمية القصوى بمكان ألا ندع لهم فرصة تمكنهم من الانطلاق بالجهاز فوق مياه البحيرة أو من الغوص في أعماقها وإلا أصبحنا سجناءهم. لم أشعر طول حياتي العملية بمثل ما شعرت به من القلق في هذا الوقت! وكان يُخيَّل إليَّ أن الرجلين قد تأخرا داخل الغابة، أو أنه قد حدث لهما ظرف طارئ منعهما من الخروج منها.

وعلى حين غرة سمعنا جلبة ناتجة من وقع أقدام جياد فارة تركض بأقصى سرعتها على طول الغابة.. كانت هذه هي جيادنا، انتابها الذعر فهربت من مكانها، وأقبلت تجري على الساحل الرملي.

وفي نفس اللحظة تقريبًا ظهر الرجلان، وفي هذه المرة كانا يجريان بأقصى ما كان لهما من سرعة..

فلا شك أن وجود دوابنا كان نذيرًا لهما بالخطر... لقد فطنا إلى أنه لا بد أن يكون رجال من الشرطة مختبئين في الغابة، يراقبونهما ويترصدون خطاهما، وقد يقبضون عليهما!

لذلك أخذا يسرعان نحو المضيق، وربما نزعا الخطاف، وقفزا إلى السفينة.. ثم اختفى «الرعب» بسرعة البرق، وفقدنا خصومنا إلى الأبد!

وعندئذٍ صحت: «إلى الأمام!».

وانطلقنا على الساحل الرملي لنقطع على هذين الرجلين خط الرجعة...

وما إن رآيانا حتى ألقيا الربطات وأطلقا علينا رصاص مسدساتهما، فجُرح جون هارت، إذ أُصيب في ساقه.

وأطلقنا عليهما الرصاص بدورنا، ولم نكن أسعد حظًّا منهما، إذ لم يصابا ولم يتوقفا في عدوهما. وما إن وصلا إلى نهاية المضيق، حتى اندفعا نحو البحر دون أن يضيعا وقتًا في خلع الخطاف. وبعد بضع ضربات من ذراعيهما في الماء كانا على ظهر «الرعب».

وعندئذٍ أطلق الربان علينا الرصاص وهو واقف في مقدمة السفينة ممسكًا بالمسدس في يده، فمرقت رصاصة بجوار ويلز وكادت تصيبه.

وأمسكت أنا وناب ووكر حبل السفينة وأخذنا نتسلقه.. ولكن لو كان هذا الحبل قد قُطع من ناحية السفينة لانتهى الأمر واستطاعت الإبحار.

وخُلع الخطاف فجأة من الرمل. فانقلب ووكر من وقع الصدمة، واشتبكت إحدى أسنان الخطاف في حزامي فأخذت تجرني دون أن أستطيع الخلاص منها.

وفي تلك اللحظة، انطلق «الرعب» فيما يشبه القفزة، يدفعه محركه، وفر بأقصى سرعته عابرًا خليج «الصخرة السوداء».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث عشر

على ظهر «الرُّعب»

وحين عدت إلى صوابي، كان النهار قد أقبل. وكان هناك ضوء خافت يتسرب خلال الفجوة السميكة إلى المقصورة الضيقة التي وُضعت فيها.. ولم أستطع معرفة عدد الساعات التي قضيتها فيها. ولكن كان يبدو لي -من درجة ميل الأشعة- أن الشمس لا تعلو كثيرًا فوق الأفق.

كنت نائمًا على سرير صغير ومغطى بملاءة. وكانت ملابسي المعلقة في ركن بالغرفة قد جفت، وحزامي الذي انقطع جزء منه بسبب أسنان الخطاف قد أُلقي على الأرض.

ولكني لم أكن أشعر بوجود أي جرح في جسمي، فيما عدا بعض الرضوض. وإذا كنت قد فقدت الوعي، فلم يكن ذلك ناتجًا عن ضعف ألمَّ بي. لقد كان رأسي يغوص في الماء أحيانًا عندما كان الحبل يجرني على سطح البحيرة، ومن ثم كان من الممكن أن أموت غرقًا لو لم أكن قد انتشلت في الوقت المناسب، ورُفعت إلى ظهر السفينة.

ولكن هل كنت وحدي مع الربان ورفيقيه على ظهر «الرعب»؟.

كان هذا محتملًا إن لم يكن مؤكدًا. وراح خيالي يستعيد ما حدث: هارت ملقى على الساحل من رصاصة أصابته، وويلز في ذهول من قذيفة المسدس، ووكر طريح على الأرض. بينما كان الخطاف ممسكًا بحزامي.. ألم يكن يخطر ببال زميلي أني قد غرقت في مياه بحيرة «إيريه»؟

ولكن على أي شكل كان يسير جهاز «الرعب» وقتئذ؟ هل كان قائده ينطلق به في طرق الولايات المتاخمة للبحيرة بعد أن حول سفينته إلى سيارة! وإذا كان الأمر كذلك -ما دمت قد غبت عن الوجود ساعات طويلة- أفلا يكون الجهاز قد ابتعد فعلًا، بسرعته الكبيرة؟ أم أنه، وقد تحول إلى غواصة، كان ينطلق في طريقه تحت مياه البحيرة؟

كلا، إن «الرعب» كان يتحرك وقتئذ على سطح سائل فسيح الأرجاء، وقد كان الضوء الذي يدخل مقصورتي يدل على أن الجهاز لم يكن تحت الماء بأي حال. ومن جهة أخرى لم أكن أشعر بأي هزة من تلك الهزات التي تحدث للسيارة عندما تسير في طريق ما. وعليه فإن «الرعب» لم يكن قد اتخذ من الأرض طريقًا له.

أما من حيث معرفة ما إذا كان لا يزال منطلقًا في حوض بحيرة إيريه، فهذا موضوع آخر. ولكن ألم يكن قد تأتَّى للربان أن يتبع مجرى نهر «ديترويت» وأن يصل إلى بحيرة «هورن» أو إلى البحيرة العليا عابرًا تلك المنطقة الشاسعة من البحيرات؟ لقد كان من الصعب عليّ أن أحكم في هذا الأمر.

ومهما يكن من شيء فقد عزمت على الصعود إلى سطح السفينة، فربما وضح لي الأمر إذا ما صرت بالخارج، وبعد أن انتزعت نفسي من الفراش، تناولت ملابسي وارتديتها، مع أني لم أكن أعرف ما إذا كنت محبوسًا في مقصورتي أم لا.

حاولت أن أرفع الغطاء الخشبي الذي كان يعلو رأسي.

واستجاب الغطاء لقوة الدفع، وانتصبت واقفًا حتى منتصف قامتي.

وكان أول ما اهتممت بفعله أن أنظر إلى الأمام، وإلى الخلف، وإلى الجانبين من فوق حاجز السفينة.

لقد كان البساط المائي المتسع الأرجاء يمتد في كل اتجاه! لم يكن هناك شاطئ على مرأى العين! نعم، لم يكن هناك سوى الأفق الذي يرسمه خط السماء! وسرعان ما تأكد لي أننا كنا في بحر أو بحيرة. ولما كنا منطلقين بسرعة كبيرة، فقد كان الماء الذي يشقه مقدم السفينة ينبثق نحو المؤخرة، فيرتطم رشاشه بوجهي.

كان هذا الماء عذبًا، ولعله كان ماء بحيرة «إيريه» في أغلب الاحتمالات، ولكن كان من الواضح أنه لم يكن قد انقضى أكثر من سبع ساعات أو ثمانٍ منذ اللحظة التي غادر فيها الرعب خليج الصخرة السوداء؛ لأن الشمس كانت تبدو في منتصف مسارها بين الأفق وسمت السماء. ولم يكن من الممكن أن نكون إلا في صباح اليوم الحادي والثلاثين من شهر يولية.

ولما كان طول بحيرة إيريه يقدر بنحو مائتين وعشرين ميلًا، وعرضها بنحو خمسين ميلًا، فإنه لم يكن يدهشني ألا ألمح شواطئ البحيرة، لا الشواطئ الشرقية من جهة ولاية نيويورك، ولا الشواطئ الغربية من ناحية الأقاليم الكندية.

وفي تلك اللحظة كان هناك رجلان على سطح السفينة، أحدهما في المقدمة يراقب سيرها، والثاني في المؤخرة يدير الدفة في اتجاه الشمال الشرقي، وقد تأكد لي ذلك من ملاحظة مركز الشمس في السماء. وكان الأول هو نفس الشخص الذي تعرفت على أنه أحد جاسوسَي شارع «لونج ستريت»، حينما رأيته يرتقي ساحل «الصخرة السوداء». وأما الثاني فهو ذلك الذي كان يحمل المصباح أثناء زيارته الغابة الصغيرة.

وبحثت بلا جدوى عن الثالث الذي ناداه باسم «الرئيس» عند عودتهم إلى السفينة... ولكني لم أره.

ومن السهل إدراك تلك الرغبة التي كانت تخالجني في أن أقابل صانع ذلك الجهاز العجيب، قائد «الرعب»، ذلك الشخص الخيالي الذي كان يشغل العالم كله بأمره ويحيره، ذلك المخترع الجريء الذي لم يكن يخشى الدخول في صراع مع البشرية، وكان يعلن نفسه سيدًا للعالم!

واتجهت إلى الرجل الذي كان في المقدمة، وبعد صمت دام دقيقة واحدة قلت له:

- أين الربان؟

ونظر إليّ الرجل وعيناه نصف مغلقتين. كان يبدو عليه أنه لا يفهمني، وكنت أعلم، بعد أن سمعت كلامه بالأمس، أنه يتكلم الإنجليزية.

وفضلًا عن ذلك فقد لاحظت أنه لم يكن يبدو عليه القلق لرؤيتي خارج المقصورة. بعد ذلك أدار لي ظهره وأخذ يراقب الأفق.

وعدت إلى المؤخرة عازمًا على أن ألقي نفس السؤال الخاص بالربان.

وما كدت أقف وجهًا لوجه أمام مدير الدفة، حتى نحاني بيده دون أن أحصل منه على جواب.

ولم يبق أمامي إذَنْ سوى أن أنتظر ظهور ذلك الشخص الذي استقبلنا برصاص مسدسه حينما كنا، أنا ورفاقي، نشد حبل السفينة.

وعندئذٍ كان لدي الوقت الكافي لفحص الأوضاع الخارجية للجهاز الذي كان يحملني... ولكن إلى أين؟

كان سطح السفينة والجزء الظاهر منها فوق الماء من معدن لم أتعرف على طبيعته. وفي الوسط كانت هناك لوحة مرفوعة قليلًا، تغطي فتحة الغرفة التي كانت تدور فيها الآلات بنظام لا يكاد يصدر معه صوت. وكما قلت من قبل، لم تكن هناك سارية أو أداة من أدوات السفن المعتادة، أو حتى قائم يعلق فيه العلم في المؤخرة. وكان يرتفع في مقدمة الجهاز منظار يرشده في سيره تحت الماء.

وكان ينطوي على جانبيه نوع من الزعانف الشبيهة بتلك التي تراها في بعض السفن الهولندية الشراعية الصغيرة، ولكني لم أستطع أن أفسر عملها.

وكان في المقدمة لوحة ثالثة مستديرة هدفها -على ما أعتقد- تغطية فتحة المقصورة التي يشغلها الرجلان حينما لا يكون «الرعب» سائرًا.

كما كانت توجد في المؤخرة لوحة مماثلة لهذه اللوحة، وكانت تؤدي في الغالب إلى مقصورة الربان الذي لم يكن قد ظهر حتى الآن.

وحينما كانت تغلق كل هذه اللوحات على إطاراتها التي كانت تحيط بها أشرطة من المطاط، تنطبق عليها انطباقًا محكمًا، إلى حد أنه لم يكن باستطاعة الماء أن ينفذ إلى الداخل أثناء السير تحت الماء.

وأما عن المحرك الذي كان يمد الجهاز بتلك السرعة الخارقة، فإنني لم أر أي أثر له، وكذلك لم أر أثرًا للمروحة. وكل ما تحققت منه هو أن السفينة لم تكن تترك خلفها إلا أثرًا طويلًا مسطحًا يرجع إلى الدقة المتناهية لخطوطها المائية التي كانت تعطيها كل السهولة في أن تنزلق بين الأمواج خلال الأجواء الرديئة.

وأقرر أخيرًا -حتى لا أعود ثانية إلى هذا الموضوع- أن العنصر الذي كان يحرك هذه الآلة لم يكن بخار الماء أو البترول أو الكحول، أو غيرها من المواد السائلة المماثلة التي تكشف عنها رائحتها، والتي تستعمل غالبًا في السيارات والغواصات المعتادة. فلم يكن هناك إذنْ أدنى شك في أن هذا العنصر كان الكهرباء المختزنة في السفينة بطاقة غير عادية.

وعندئذٍ ساورني هذا السؤال: من أين تأتي تلك الكهرباء؟ وهل هي مختزنة في بطاريات؟ ولكن كيف شحنت هذه البطاريات؟ ومن أي ينبوع كانت تُملأ حتى لا ينضب معينها؟ أين كان يدار ذلك المصنع الذي ينتجها؟ اللهم إلا إذا كانت هذه الكهرباء تؤخذ مباشرة من الهواء أو من الماء المحيط بالسفينة بوسائل لا يعرفها أحد حتى اليوم.. وتساءلت عما إذا كنت أستطيع في الظروف الحاضرة أن أكتشف هذه الأسرار.

ثم أخذت أفكر في رفاقي الذين بقوا هناك على ساحل «الصخرة السوداء»، وكان أحدهم مجروحًا، وقد يكون الآخران، ويلز وناب ووكر كذلك! فهل استطاعوا يا ترى بعد أن رأوني أسيرًا في طرف ذلك الحبل، أن يخمنوا أنني قد انتشلت على ظهر «الرعب»؟ كلا دون شك! أليس من الجائز أيضًا أن يكون السيد وارد قد تلقى برقية من «توليدو» تنبئه بوفاتي؟ والآن، ومن سيجد من رجاله في جرأتي للقيام بحملة جديدة ضد «سيد العالم» هذا؟

وأخذت هذه الأفكار تتضارب في رأسي، وأنا أنتظر ظهور الربان على السطح...

ولكنه لم يظهر!

وعندئذٍ شعرت تمامًا بالجوع، ذلك لأني لم أكن قد تناولت طعامًا منذ ما يقرب من أربع وعشرين ساعة. فأنا لم آكل شيئًا منذ وجبتنا الأخيرة، إذ صح أننا تناولنا هذه الوجبة بالأمس.. وكنت أتساءل، كلما شعرت بمعدتي تتقلص، عما إذا كنت قد صعدت إلى هذه السفينة منذ يومين.. أم أكثر...

ولحسن الحظ حلت في الحال مسألة طعامي وكيف يكون. فبعد أن نزل الرجل الواقف في المقدمة إلى مقصورته، عاد إلى السطح، ودون أن ينطق بحرف واحد، وضع بعض الطعام أمامي وعاد إلى مكانه.

وكان الطعام الذي قُدِّم لي مكونًا من لحم محفوظٍ وسمك جاف وبسكوت البحر وإناء من شراب كحولي على درجة من القوة اضطرتني إلى مزجه بالماء.

أما رجال السفينة، فلا شك أنهم كانوا قد أكلوا قبل أن أبرح مقصورتي. ولما لم يلازمني أحد منهم، لم أستطع أن أستخلص منهم شيئًا. فعدت إلى أفكاري أكرر في نفسي هذه الأسئلة:

«كيف تنتهي هذه المغامرة؟ وهل سأرى في النهاية ذلك الربان الخفي؟ وهل سيعيد إليَّ حريتي؟ أو هل أستطيع أن أستردها على الرغم منه؟ إن ذلك قد يتوقف على الظروف! ولكن إذا ظل جهاز «الرعب» بعيدًا عن كل شاطئ، أو سار تحت الماء، فكيف أستطيع مغادرته؟ وهل سأضطر إلى التخلي عن كل محاولة للهرب، اللهم إلا إذا عاد الجهاز فانقلب إلى سيارة».

ولكن، لماذا لا أعترف بأني لم أستطع الارتياح إلى فكرة الهرب دون أن أكون قد اكتشفت شيئًا من أسرار جهاز «الرعب»! وذلك أني على الرغم مني لم أكن أستطيع حتى الآن أن أهنئ نفسي بأي نجاح حصلت عليه في حملتي الجديدة -مع أني كنت على وشك أن أفقد حياتي فيها-، وعلى الرغم من أن المستقبل كان ينذرني بالشر أكثر مما يبشرني بالخير، فإن القضية التي كنت بصددها قد تقدمت خطوة.. ولكن.. إذا لم أتمكن من الاتصال ثانية بأمثالي من البشر، وإذا بقيت في معزل عن البشرية مثل «سيد العالم» هذا الخارج على القانون.

واستمر جهاز الرعب منطلقًا في اتجاه الشمال الشرقي، أي في نفس الاتجاه الطولي لبحيرة إيريه. كان يسير بسرعة متوسطة، ومع ذلك فلم يكن يلزمه إلا بضع ساعات ليدرك الطرف الشمالي الشرقي للبحيرة لو سار بأقصى سرعته.

وليس لبحيرة إيريه، عند ذلك الطرف، من منفذ سوى نهر نياجرا، الذي يربطها ببحيرة أونتاريو. ولكن هذا النهر تقطعه شلالات نياجرا المشهورة على مسافة تُقدَّر بحوالي خمسة عشر ميلًا من بافالو، تلك المدينة الهامة في ولاية نيويورك. وإذا لم يكن «للرعب» قد دخل نهر «ديترويت»، فكيف سيمكنه بعد ذلك أن يغادر البحيرة إلا عن طريق البر؟

وتوسطت الشمس كبد السماء. كان الجو جميلًا، والحرارة شديدة، ولكنها كانت محتملة بفضل ذلك النسيم الذي كان ينعش الفضاء. ولم تكن شواطئ البحيرة قد ظهرت بعد، لا من الجانب الكندي، ولا من الجانب الأمريكي.

ولكن، هل كان الربان يعتزم حقا أن لا يظهر أمامي مطلقا؟ هل كان لديه من الأسباب ما يمنعه من الإعلان عن شخصه؟ وهل كان احتياطه هذا دليلًا على عزمه إخلاء سبيلي، إذا ما أقبل المساء، عندما يكون جهاز الرعب قد وصل إلى الساحل! لقد كان ذلك يبدو لي أمرًا بعيد الاحتمال!

إلا أنه حوالي الساعة الثانية بعد الظهر انبعث صوت خفيف، وارتفع غطاء الطاقة الوسطى، ثم ظهر على سطح السفينة ذلك الشخص الذي كنت أنتظره بفارغ الصبر.

لم يعرني من الالتفات أكثر مما فعله رجاله. وبعد أن اتجه ناحية مدير الدفة أخذ مكانه في المؤخرة، ثم نزل ذلك الرجل إلى غرفة الآلات بعد أن تبادل معه بعض الكلمات بصوت منخفض.

وبعد أن أجال الربان نظره في الأفق مستقرئًا البوصلة الموضوعة أمام الدفة، عدل اتجاه السفينة تعديلًا طفيفًا، فازدادت سرعة الجهاز.

كان هذا الرجل فيما يبدو قد جاوز الخمسين ببضع سنوات، وكان متوسط القامة، عريض المنكبين، منتصب الجسم تمامًا، ضخم الرأس، شعره قصير يغلب فيه اللون الرمادي على الأبيض، حليق الشارب، والسوالف، وإنما كانت له لحية صغيرة كثة على الطريقة الأمريكية، وله ذراعان وساقان تبرز ما بها من عضلات، وفك ذو عضلات مضغية قوية، وصدر عريض، ثم كان يتميز على وجه الخصوص بتلك العلامة التي تدل على العزم الأكيد. لقد كانت عضلة حاجبيه دائمة الانقباض. وهكذا كان الرجل يتمتع حقًّا ببنيان قوي كالحديد، وصحة تتحمل كل المحن، ودم نشط الكرات يجري تحت بشرة لفحتها أشعة الشمس وهبات الريح.

وكان يلبس رباط عنق مما يلبسه البحارة، يعلوه معطف عازل للمياه، وغطاء للرأس من الصوف.

أخذت أنظر إليه. أما هو فعلى الرغم من أنه لم يكن يحاول أبدًا أن يتجنب نظراتي، إلا أنه كان يظهر عدم المبالاة مني بشكل عجيب، كما لو لم يكن على ظهر سفينته رجل غريب.

ولست في حاجة إلى القول بأن ربان «الرعب» كان هو نفسه أحد الشخصين اللذين كانا يكمنان أمام منزلي في «لونج ستريت»!

وإذا كنت قد تعرفت عليه، فلا شك أنه هو الآخر قد عرف أنني المفتش العام ستروك الذي كان قد كلف باقتحام «جريت أيري»!.

ولما تأملته جيدًا، راودتني فكرة لم تكن قد خطرت على بالي وأنا في واشنطن. إن وجهه هذا، ذلك الوجه ذو الطابع المميز، قد سبق لي أن رأيته... ولكن أين يا تُرى؟ هل كان ذلك على بطاقة من بطاقات مكتب المخابرات؟ أو في صورة عادية موضوعة في إحدى الواجهات الزجاجية؟

ولكن، كم كان كل هذا الأمر غير واضح في مخيلتي! أو لم يكن هو الوهم الذي خيل لي ذلك؟

وعلى العموم، إذ كان رفاقه لم يتوافر لهم من الأدب ما يجعلهم يجيبون عن أسئلتي، فهل يمكن يا ترى أن يكون هو أكثر منهم كرمًا، وتحظى لديه أسئلتي بشرف الإجابة؟ لقد كنا نتكلم نفس اللغة، وإن لم أستطع التأكد من أنه أمريكي الأصل مثلي..

وأعتقد أنه كان سيجيبني، اللهم إلا إذا لم يكن قد قرر في نفسه أن يتظاهر بعدم فهمي حتى لا يضطر إلى الإجابة عن أسئلتي!

ولكن ماذا كان يريد أن يعمل بي؟ هل كان يعتزم التخلص مني سريعًا؟ ألم يكن ينتظر سوى قدوم الليل حتى يلقي بي في الماء؟ هل كانت تلك المعلومات البسيطة التي عرفتها عنه كافية لكي تجعل مني شاهدًا خطرًا ضده؟ لو كان الأمر كذلك لكان من الأفضل له أن يتركني معلقًا في طرف الحبل، ويتجنب مشقة إلقائي في أعماق البحيرة!

ونهضت، ثم سرت إليه في المؤخرة، وظللت واقفًا أمامه.

فنظر إلى وجهي بعينيه المتقدتين كاللهب.

وسألته: «هل أنت الربان؟».

فظل صامتًا.

فقلت:

- هل هذه السفينة... هي بعينها جهاز «الرعب»؟

ولكنه لم يفتح فمه بأي جواب عن سؤالي.

وعندئذٍ تقدمت منه، وأردت أن أمسك بذراعه... فدفعني في غير عنف، ولكن بحركة تكشف عن قوة غير عادية.

وتقدمت منه مرة ثانية، وسألته بلهجة أشد: «ماذا تريد أن تعمل بي؟».

وظننت أن بعض الكلمات سوف تفلت أخيرًا من بين شفتيه المتقلصتين نتيجة الانفعال الظاهر. ولكنه أدار رأسه، كأنما أراد أن يمسك عن الكلام، ثم ضغط بيده على منظم السرعة.

وفي الحال، دارت الآلة بسرعة أكبر.

فاستبد بي الغضب، ولما لم أعد أتمالك نفسي كدت أن أصيح به قائلًا:

«فليكن! احتفظ بصمتك! أما أنا.. فإني أعرف من أنت، كما أعرف هذا الجهاز الذي شوهد في ماديسون، وبوسطن، وبحيرة كيردال! نعم، إنه هو نفس الجهاز الذي ينطلق في الطرقات، وعلى سطح البحار والبحيرات، وتحت المياه! وإن هذه السفينة هي جهاز «الرعب»، وإنك أنت الذي تقودها.. أنت الذي كتب تلك الرسالة إلى الحكومة.. أنت الذي تعتقد أن لديك من القوة ما تصرع به العالم أجمع.. إنك أنت! أنت «سيد العالم»!

وكيف كان باستطاعته أن ينكر شيئًا من هذا؟ وقد لمحت على التو تلك الحروف الأولى المشهورة لاسمه مكتوبة على الدفة.

إلا أنني لحسن الحظ استطعت أن أتمالك نفسي. ولما كنت قد يئست من الحصول على إجابة لأسئلتي، عدت إلى الجلوس بالقرب من نافذة مقصورتي... ولم أكف عن مراقبة الأفق طوال الساعات الطويلة؛ آملا أن تظهر الأرض عن قريب.

نعم! لم يعد لِي سوى أن أنتظر... وأن أنتظر! فلعله قبل أن ينتهي النهار يكون جهاز الرعب قد شُوهد من شواطئ بحيرة إيريه إذا ما استمر في سيره متجهًا نحو الشمال الشرقي!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرَّابع عشر

نيَاجرا

ومع ذلك كان الوقت يمر، والموقف لا يتغير. كان مدير الدفة قد عاد إلى عمله، واتخذ الربان مكانه بالداخل يراقب سير الآلات. وأعود فأكرر أنه كلما كانت السرعة تزداد، كان صوت المحرك ينعدم ويزداد انتظامًا، فلم تكن تسمع أبدًا أي دقة من تلك الدقات التي لا يمكن تجنبها، والتي تنتج من استعمال الأسطوانات والمكابس. واستخلصت من ذلك أن انتقال جهاز «الرعب» من مكان إلى آخر على أي صورة من الصور كان يتم باستعمال آلات تسير بالتناوب؛ ولكن كان من المحال أن أتأكد من هذا الاستنتاج.

ولاحظت من جهة أخرى أن الاتجاه لم يكن يتغير، فقد كان دائما نحو الشمال الشرقي للبحيرة، ومن ثم كان دائمًا في اتجاه «بافالو».

وكنت أقول لنفسي:

«لماذا يسلك الربان هذا الطريق؟ لا يمكن أن يكون في عزمه أن يرسو في ذلك الميناء وسط سفن الصيد والتجارة! وإذا أراد الخروج من بحيرة إيريه فلن يكون نهر نياجرا هو المنفذ الذي يسمح له بذلك، فمساقطه المائية لا يمكن عبورها حتى ولو بجهاز مثل جهازه! إن الطريق الوحيد الذي لا بد له أن يسلكه هو نهر ديترويت، وواضح تمامًا أن جهاز «الرعب» يبتعد عنه!

عندئذ راودتني هذه الفكرة: ربما كان الربان ينتظر إقبال الليل ليصل إلى أحد شواطئ بحيرة إيريه، وهناك يحول السفينة إلى سيارة، ويجتاز بها الولايات المجاورة في سرعة البرق.

وعندئذٍ قلت لنفسي: إذا لم أصل إلى الهرب أثناء سيرها على الأرض، فسأفقد كل أمل في أن أسترد حريتي!

ومن يدري؟ فربما ينتهي بي الأمر حقيقة إلى أن أعلم أين كان يختفي سيد العالم هذا، إذ إن أحدًا لم يكن قد تمكن من اكتشاف مخبئه، وذلك إذا لم ينزلني من مركبته بطريقة أو بأخرى... وأخالك تفهم جيدًا ماذا أعني!

ولكني كنت أعرف ذلك الطرف الشمالي الشرقي للبحيرة، لأني كثيرًا ما ترددت على ذلك الجزء من ولاية نيويورك الذي يقع بين «ألباني» -أكبر مدينة بها- وبين «بافالو». فمنذ ثلاث سنوات كنت قد قمت بعمل من أعمال الشرطة، هيأ لي السبيل لأن أجوب ضفاف نياجرا في اتجاه مجرى المياه ومصب الشلالات حتى «الجسر المعلق»، كما زرت الجزيرتين المشهورتين بين بافالو، وضيعة «نياجرا فولز» (مساقط نياجرا)، ثم جزيرة «نيفي»، ثم «جوت أيلاند» التي تفصل المساقط الأمريكية عن المساقط الكندية.

إذَنْ لو واتتني الفرصة للإفلات، فلن أجد نفسي في بلاد أجهلها. ولكن هل ستواتيني هذه الفرصة؟ وهل كنت أرغب فيها حقيقة؟ وهل كنت سأنتهزها إذا سنحت؟ يا للأسرار التي تحيط بذلك الأمر الذي أشركني فيه الحظ الحسن، بل ربما قلت الحظ السيئ!

وفضلا عن ذلك لم يكن هناك محل إطلاقا لأن أفترض إمكان وصولي إلى شواطئ نياجرا، إذ لم يكن جهاز «الرعب» ليجرؤ على القيام بمغامرة في مياه ذلك النهر الذي لا مخرج منه. وكان من المحتمل كذلك ألا يقترب من شواطئ بحيرة إيريه. وربما تراءى له أن يغوص في مياهها إذا ما دعته الضرورة إلى ذلك، ثم ينحدر إلى نهر ديترويت وهناك يشرع سائقه في تحويله إلى سيارة، ويقوده مخترقًا طرق الاتحاد.

تلك هي الأفكار التي كانت تتزاحم في رأسي، بينما كانت عيناي تجوبان الأفق دون أمل في النجاة.

وكان يقف أمامي هذا السؤال العنيد دون إجابة، وهو: لماذا كان ذلك القبطان قد كتب لي تلك الرسالة التي هددني فيها؟ ولأي غرض أتى ليراقبني في واشنطن؟ ثم ما هي الصلة التي تربطه هو «بجريت أيري؟» إنه إذا كان قد استطاع أن يدخل في بحيرة كيردال عن طريق قنوات تحت الأرض، فليكن! ولكن أن يدخلها من خلال ذلك الحاجز الصخري الذي لا يمكن اجتيازه، فهذا ما لا أظنه... هذا غير ممكن!

وإذا أخذنا في اعتبارنا سرعة جهاز الرعب من جهة واتجاه سيره من جهة أخرى، علمنا أننا، وقد بلغت الساعة الرابعة بعد الظهر، لم نكن على بعد يزيد على 15 ميلًا من بافالو، التي لن يتأخر شبحها عن الظهور في الشمال الشرقي.

وإذا كانت بعض المباني قد شُوهدت أثناء هذه الملاحة، فلم يكن ذلك إلا من مسافة طويلة، تلك المسافة التي كان يتحكم فيها الربان كما يشاء. أضف إلى ذلك أن جهاز الرعب لم يكن يُرى بوضوح على سطح البحيرة؛ إذ كان من الصعب رؤيته وهو على بعد يزيد على الميل.

وفي هذه الأثناء، أخذت الارتفاعات التي تحيط بطرف بحيرة إيريه تتميز مكونة، على بعد بافالو، ذلك القمع الذي عن طريقه تصب البحيرة مياهها في مجرى نهر نياجرا. وكانت بعض الكثبان الرملية تتناثر على اليمين في شكل دوائر، كما كانت مجموعات الأشجار تُرى هنا وهناك. وكنت ألمح في عرض المياه بواخر تجارية عديدة، وسفن صيد شراعية أو بخارية. أما السماء فكانت تتلطخ في أماكن متفرقة منها ببقع من الدخان أتى بها نسيم خفيف من الشرق.

فيمَ كان يفكر الربان عندئذ وهو يتجه ناحية ذلك الميناء؟ ألم يكن من الحكمة ألا يجازف بالرسو هناك؟ لقد كنت أتوقع منه في كل لحظة أن يدير الدفة لكي يعود ناحية الضفة الغربية للبحيرة... هذا إذا لم يكن قد عقد العزم على أن يغوص، لكي يمضي الليل في أعماق بحيرة إيريه؟

لقد كان من الاستحالة أن أدرك إصراره على الاحتفاظ بمقدمة السفينة تجاه بافالو!

وفي ذلك الوقت كانت عينا مدير الدفة مصوبتين ناحية الشمال الشرقي تستطلعان ما يدور هناك، فأشار إلى زميله الذي هب واقفًا على الفور، واتجه إلى الطاقة الوسطى، ثم نزل إلى حجرة الآلات.

وفي الحال صعد الربان إلى ظهر السفينة، ولحق بمدير الدفة، وتبادل معه الحديث بصوت منخفض.

كان ذلك الأخير يشير بيده تجاه بافالو إلى نقطتين داكنتين كانتا تتحركان على بعد يتراوح بين خمسة أميال وستة من الناحية اليمنى لمقدم السفينة.

ونظر الربان بعناية إلى هذه الناحية، ثم هز كتفيه، وذهب ليجلس في المؤخرة دون أن يغير من سير جهازه.

وبعد ربع ساعة أمكنني أن أميز شريطين من الدخان، يرتسمان في الشمال الشرقي. ولم تكد تمضي لحظة حتى بدا شكل النقطتين أكثر وضوحًا.

لقد كانتا باخرتين، أخذتا تقتربان بسرعة بعد أن غادرتا ميناء بافالو.

وجال بخاطري فجأة أن تكون هاتان الباخرتان هما المدمرتان اللتان كان السيد وارد قد حدثني عنهما، واللتان تقومان منذ بعض الوقت بمراقبة ذلك الجزء من البحيرة، وكنت قد أخبرت أنه يمكنني أن أطلب منهما المساعدة. إن هاتين المدمرتين -وهما من طراز حديث- كانتا تعدان من بين أسرع البواخر التي شُيدت في الولايات المتحدة. إذ كانت سرعتهما تصل إلى 27 ميلًا في الساعة؛ لأنهما كانتا مزودتين بآلات قوية هي آخر ما وصلت إليه الصناعة من حيث الكمال والإتقان.

نعم، إن جهاز الرعب كان يمتاز بسرعة تفوق تلك السرعة بكثير، ولكنه، على أي حال، كان سيرى نفسه مضطرًّا إلى الغوص في الماء ليكون في مأمن من المطاردة، إذا ما حاصرته المدمرتان عن قرب، وبدا له أن الخلاص مستحيل.

لذلك كان ينبغي أن يُستعاض عن هاتين المدمرتين بغواصتين، حتى يكون الصراع مصحوبًا ببعض الأمل في النجاح، وإن كنت لا أستطيع حتى في هذه الحالة أن أقرر ما إذا كان النزال متكافئًا.

ولكن الذي لم أكن أشك فيه الآن أن يكون ويلز قد أرسل إشارة إلى قبطاني هاتين المدمرتين، وربما يكون قد بعث إليهما ببرقية بمجرد عودته إلى توليدو.

وفضلًا عن ذلك، فقد تبينت بوضوح أنهما ما كادا يلمحان جهاز الرعب حتى اتجها بكل سرعتهما نحوه. ومع ذلك فقد ظل ربانه سائرًا في طريقه تجاه نياجرا دون أن يبدو عليه أي قلق.

ماذا ستفعل هاتان المدمرتان يا تُرى؟ إنهما ستقومان قطعًا بمناورة تجبر جهاز الرعب على أن يدخل في زاوية بحيرة إيريه تاركًا بافالو عن يمينه، إذ إن شلالات نياجرا لم تكن لتسمح له إطلاقًا بالمرور.

وكان الربان قد أقبل ليمسك بالدفة، بينما ظل أحد الرجلين في مقدمة السفينة، والآخر في حجرة الآلات.

أتراه سيصدر لي الأمر بأن أعود إلى مقصورتي؟

لا... لم يحدث ذلك، وكان هذا مبعثًا لسروري ورضائي الزائدين. ولكن الحقيقة أن أحدًا لم يكن يهتم بأمري كما لو لم أعمل على ظهر السفينة.

كنت أرقب المدمرتين بانفعال شديد. وكانتا حينذاك لا تبعدان عن الجهاز بأكثر من ميلين، وتقومان بالمناورة بطريقة تجعلهما تحاصران «الرعب» بين نارين.

أما سيد العالم، فكان يرتسم على وجهه الاحتقار العميق بالنسبة لهما. ألم يكن يعرف أن هاتين المدمرتين لا حول لهما معه ولا قوة؟ إنه لو أصدر الأمر إلى آلته لابتعدت

عنهما بمسافة من العسير عليهما أن يتداركاها مهما بلغت سرعتهما! ولو زاد من سرعة محركه مرة أخرى لأصبح الجهاز بعيدًا عن متناول مدافعهما، فليس في الإمكان لقذائفهما أن تصيب الغواصة، إذا ما كانت في أعماق بحيرة إيريه!

وبعد عشر دقائق لم يكن يفصلنا عن البارجتين اللتين كانتا تطاردانا أكثر من ميل واحد.

تركهما الربان يقتربان منا بقدر ما استطاعا، ثم انحنى على مقبض أداره بيده، فوثب جهاز الرعب فوق سطح البحيرة، إذ كانت المعركة قد ازدادت عنفًا من جانب مطارديه. لقد كان يسخر من المدمرتين وبدلًا من أن يعود أدراجه إلى الوراء استمر في تقدمه إلى الأمام! ومن يدري؟ فربما تكون لديه الجرأة على أن يمر بينهما، وأن يستدرجهما إلى متابعته، حتى إذا ما أتى الليل أرغمهما على التخلي عن تلك المطاردة غير المجدية.

كانت مدينة بافالو ترتسم حينئذٍ على شاطئ إيريه. وكنت أرى بوضوح مبانيها، وأبراج أجراسها، وآلاتها الرافعة. وعلى بعد قليل من الشمال الغربي كان نهر نياجرا ينساب على بعد أربعة أميال أو خمسة.

وكنت في هذه الظروف في حيرة بالغة من أمري.. ذلك أننا إذا أصبحنا في محاذاة المدمرتين أو بينهما أفلا تكون الفرصة مواتية لي لكي ألقي بنفسي في الماء -فأنا سبَّاح ماهر- وهذه فرصة ربما لا تسنح لي مرة أخرى؟ نعم، في هذه الحال. لن يتوانى ربان جهاز الرعب في إعادتي!.. ولكني إذا ما غطست، أفلا تكون لدي الفرصة للإفلات منه؟ فعندئذ ربما لمحتني إحدى الباخرتين. ومن يدري؟ فربما يكون قد وصل إلى علم قبطانيهما نبأ احتمال وجودي على ظهر الرعب.. فيأتيان إليَّ بقارب إنقاذ ويلتقطاني؟

ومن الواضح أن فرص النجاح قد تكون مهيأة لي تمامًا إذا ما انحصر جهاز الرعب بين ضفاف نهر نياجرا، إذ كان من الممكن في هذه الحالة أن أتمكن من مغادرة الجهاز عند مرتفع جزيرة «نيفي»، فتطأ قدماي تلك الأرض التي كنت أعرفها حق المعرفة.. ولكن كم كان يبدو لي مستحيلًا أن أفترض أن الربان قد يقذف بجهاز الرعب على ذلك النهر الذي تغلقه الشلالات... لذلك عزمت على أن أترك المدمرتين تقتربان إلى أقصى حد ممكن، حتى إذا ما سنح الوقت المناسب أمكنني أن أقرر مصيري.

ولكن لا بد لي من الاعتراف بأن قراري لم يكن نهائيًّا.. لا! لا يمكنني أن أستسلم لضياع كل فرصة تسنح لي الدخول في أعماق ذلك السر الدفين، إذا ما حاولت الهرب.. إن غرائزي كشرطي كانت تثور عندما يجول بخاطري أن ليس عليَّ إلا أن أمد يدي، فأقبض على ذلك الرجل الذي حكم عليه بالخروج على القانون! لا! لن أفر! إن ذلك معناه أن أعتزل عملي إلى الأبد! ولكن.. ماذا كان مقدرًا لي؟ وإلى أي مكان كان يقودني جهاز الرعب إذا ما ظللت على ظهره؟

وكانت الساعة السادسة والربع، والمدمرتان تقتربان، وتحتفظان بينهما بمسافة قد تكون ميلًا أو ميلًا ونصف ميل. ولن يتوانى جهاز الرعب -دون أن يضطر لزيادة سرعته- في أن يجعل إحداهما على جانبه الأيسر والأخرى على الجانب الأيمن. ولم أكن قد تركت مكاني، وكان بجانبي ذلك الرجل الموجود بمقدمة السفينة.

وكان الربان يقف عند الدفة ساكنًا دون حراك، وعيناه تلمعان تحت حاجبيه المتصلين، وربما كان ينتظر اللحظة المناسبة ليقوم بمناورة أخيرة.

وفجأة دوى انفجار على ظهر المدمرة اليسرى. وإذا بقذيفة تسري على سطح الماء، وتمر عند مقدمة جهاز الرعب، ثم تختفي خلف المدمرة اليمنى.

وانتصبت واقفًا. كان يخيل إليَّ أن الرجل الذي كان يقف إلى جواري يترقب إشارة من الربان... ولكنه لم يُعْنَ حتى بمجرد إدارة رأسه.. ولن أنسى مطلقًا ذلك الاحتقار الذي ارتسم على وجهه!

ورأيتني أُدافع في الحال نحو غطاء مقصورتي، الذي أُغلق عليَّ، بينما كانت تغلق الغطاءات الأخرى. ولم تكد تمضي دقيقة واحدة حتى غاص جهاز الرعب... واختفت الغواصة تحت مياه البحيرة.

ودوت طلقات المدافع ثانية، ووصل دويها إلى أذني. ثم سكت كل شيء. وكان يصل إلى مقصورتي ضوء خافت من الطاقة، بينما كان الجهاز ينساب بهدوء خلال بحيرة إيريه دون تمايل أو اضطراب.

ولعلك تدرك بأي سرعة، وبأي سهولة أيضًا انقلب ذلك «الرعب» من سفينة إلى غواصة! إنه لو أراد أن يسير في الطريق لتحول دون شك إلى سيارة بمثل تلك السرعة وتلك السهولة!

والآن.. ماذا كان يعتزم سيد العالم أن يفعل؟ كان من المحتمل جدًّا أن يغير اتجاهه إلا إذا اضطر إلى تحويل جهازه إلى سيارة، إذا ما وصل إلى الأرض. ولكني ظننت أنه ربما اتجه ناحية الغرب بعد أن يضلل المدمرتين، ثم يصل إلى مصب نهر ديترويت، وأنه لن يستمر في الغوص تحت الماء -على ما اعتقدت- إلا الوقت اللازم لكي يبتعد عن القذائف، وإذا ما جن الليل انتهت تلك المطاردة.

ولكنه لم يفعل ذلك. فلم تكد تمضي عشر دقائق حتى حدث هياج على ظهر «الرعب». كانت تسمع في حجرة الآلات أحاديث متبادلة، يصحبها أزيز آلات تدار. فاعتقدت أن عطبًا ما ربما يكون قد أجبر الغواصة على أن تعود إلى سطح الماء.

ولم أكن مخطئًا، فقد انقلب في لحظة واحدة ذلك الظلام الذي عم مقصورتي إلى نور، وظهر «الرعب» على وجه الماء... وأخذت أسمع وقع خطوات على ظهر السفينة التي أعيد فتح طاقاتها، ومنها طاقة مقصورتي.

كان الربان قد عاد إلى مكانه ممسكًا بالدفة، بينما كان الرجلان الآخران يعملان بالداخل.

وتطلعت لأرى ما إذا كان يمكنني رؤية المدمرتين... نعم... لقد كانتا على بعد يبلغ ربع ميل فقط. وما كادتا تبصران الرعب حتى بدأتا في مطاردته من جديد. ولكن المسير كان في اتجاه نياجرا هذه المرة.

ولم أفهم شيئًا من هذه المناورة، وإني لأعترف بذلك. فها هو ذا الجهاز قد أصبح في ذلك المكان المغلق، ولن يستطيع الغوص في الماء بسبب ذلك العطب الذي أصابه، وسيكون في مقدار المدمرتين اعتراض طريقه إذا ما أراد العودة إلى الوراء. فهل

سيحاول إذنْ أن يرسو على الأرض، وأن يهرب في شكل سيارة خلال فجاج ولاية نيويورك، أو في الأراضي الكندية؟

كان الرعب في ذلك الوقت يتقدم المدمرتين بنصف ميل، وكانتا تطاردانه بكل ما لديهما من سرعة، وفي ظروف تعتبر في الواقع غير ملائمة، وذلك حتى تتمكنا من إصابته بمدافعهما.

وكان الجهاز قانعًا بالمحافظة على تلك المسافة، مع أنه كان من السهل جدًّا بالنسبة إليه أن يزيدها، وأن يعود -إذا ما أتى الليل- إلى مناطق الغرب!

وفي هذه الأثناء كانت بافالو تختفي على اليمن. وبعد الساعة السابعة بقليل ظهر نهر نياجرا. فلو كان الربان يعتزم الدخول فيه، وهو يعلم أنه لن يتمكن من الخروج منه، فلا بد أن يكون قد فقد صوابه... ولكن ألم يكن في الواقع رجلًا مخبولًا، وهو الذي كان يذيع عن نفسه بل ويعتقد أنه سيد العالم؟ ولكني كنت أراه هناك هادئًا غير مكترث، لا يتلفت، ولا يدير حتى رأسه ليلاحظ المدمرتين.

أضف إلى ذلك أن هذا الجزء من البحيرة كان خاويًا تمامًا، فلم تكن تُشاهد فيه باخرة واحدة من تلك البواخر القليلة، التي كانت تتجه إلى القرى الصغيرة، الواقعة على ضفاف نياجرا. كما أنه لم يكن هناك أي سفينة للصيد تعترض طريق «الرعب». وعلى كل حال، لو حدث أن تبعته المدمرتان على نهر نياجرا لاضطرت إلى التوقف بعد قليل.

لقد قلت قبل ذلك أن نهر نياجرا ينساب بين الأراضي الأمريكية والأراضي الكندية. وأن بافالو على ناحية منه وقلعة إيريه على الناحية الأخرى. وأن عرضه الذي يبلغ ثلاثة أرباع الميل تقريبًا يتناقص كلما اقترب من المساقط. ويبلغ طوله من بحيرة إيريه إلى بحيرة أونتاريو حوالي خمسة عشر فرسخًا، وهو يجري نحو الشمال ويفرغ في تلك البحيرة الأخيرة (أونتاريو) مياه البحيرة العليا وبحيرة متشجان وبحيرة هورن. وتبعد إيريه عن أونتاريو بثلاثمائة وأربعين قدمًا، ولا يقل مسقط المياه هناك عن مائة وخمسين قدمًا. وهو يسمى «هورس شوفول» أي «مسقط حذاء الحصان»؛ ذلك لأنه يشبه حدوة الحصان. وقد أطلق الهنود عليه اسم «تيونير ديزو» أي «رعد المياه»، وهو حقًّا رعد يجري دون انقطاع، ويُسمع قصفه على بعد أميال عديدة من الشلال.

وتوجد بين «بافالو» وضيعة «نياجرا فولز» جزيرتان تقسمان مجرى النهر: جزيرة «نيفي» وهي على بعد فرسخ من «هورس شوفول»، وجزيرة «جوت أيلاند» التي تفصل المسقط الأمريكي عن المسقط الكندي. وكان طرف النهر يحمل قديمًا تلك القلعة المنيعة التي شيدت بجسارة عجيبة وسط السيل، وعلى جرف هوة سحيقة... ولكن كان لا بد من هدمها؛ لأنه مع ذلك الرجوع الدائم للشلال، كان من المحتم أن يأتي اليوم، الذي تسقط فيه في الهاوية.

ويجب عليَّ الآن أن أذكر أنه توجد على طول المجري الأعلى لنهر نياجرا قريتان: قرية «شلوسر» على الضفة اليمنى وقرية «شيباوا» على الضفة اليسرى، وتقع كل منهما على أحد جانبي جزيرة «نيفي» وعند هذا الارتفاع، يندفع التيار بانحدار شديد وينساب بقوة ليصبح -على بعد ميلين من مصب النهر- ذلك التلال المشهور.

كان جهاز الرعب قد تجاوز قلعة إيريه. وكانت الشمس تتأرجح في الغرب فوق الأفق الكندي. وكان القمر –وقد اكتمل قرصه حينذاك- يخرج من بين الغمام الذي كان يكسو الجنوب الغربي. وكان بيننا وبين إقبال الليل حوالي ساعة.

كانت المدمرتان تتبعان الرعب على بعد ميل واحد، وتصوب إليه نيرانهما ولكن دون طائل. وكانتا تسيران مسرعتين بين الضفاف المظللة بالأشجار، المزدحمة بالأكواخ، والممتدة على هيئة سهول طويلة خضرة.

وكان من الواضح أن الجهاز لم يعد في استطاعته أن يعود إلى الوراء، وإلا أغرقته المدمرتان بالفعل. ولكن الواقع أن ربانيهما كانا يجهلان ما كنت أعرفه، أعني أن عطبًا ما أصاب الجهاز، فأجبره على العودة إلى سطح البحيرة، وأصبح من الاستحالة عليه أن يغوص في الماء مرة أخرى ويهرب. ومع ذلك فقد واصلتا سيرهما إلى الأمام، واعتقدت أنهما ربما حافظا على تلك السرعة حتى النهاية.

ولكن إذا لم أكن قد تبينت ما ترمي إليه تلك المطاردة العنيفة، فلم أجد ما يبرر تصرفات ذلك «الرعب»، ذلك أنه كان من الممكن أن يغلق الطريق قبل نصف ساعة. ومهما بلغ إتقان ذلك الجهاز فإنه لن يبلغ الكمال الذي يمكنه من عبور مساقط «هورس شو فول»، فإنه لو حمله السيل في هذه الحال لاختفى في بطن اليم، الذي يصل عمقه إلى مائة وثمانين قدمًا حفرتها المياه أسفل المساقط. ولكنه لو اقترب من أحد الشواطئ، فلربما وجد الوسيلة للإفلات على عجلات سيارته بسرعة 240 ميلًا في الساعة!

والآن ماذا أعمل؟ هل أحاول الهرب عن طريق جزيرة «نيفي» ومنها يكون من السهل عليِّ أن أبلغ الشواطئ سباحة! ذلك أني لو لم أنتهز هذه الفرصة لما أطلق سراحي مطلقًا سيد العالم هذا مع ما كنت أعرفه من أسراره!

وحينئذ لقد وضح لي أن كل وسائل الهرب كانت محرمة عليَّ هذه المرة، ذلك أني إذا لم أحبس في مقصورتي، فلا بد أن أكون مراقبًا. فبينما كان الربان ممسكًا بالدفة، لم يعد زميله الموجود بجواري يرفع عينيه عني. ولو بدرت مني أي حركة تشير إلى الهرب لقبض عليَّ وحبسني. الواقع أن مصيري أصبح الآن مرتبطًا بمصير «الرعب».

إلا أنه في ذلك الوقت كانت المسافة التي تفصل بينه وبين المدمرتين قد تناقصت، وأصبحت لا تزيد على بضع مئات من الأمتار. فهل معنى ذلك أن محرك «الرعب» لم تعد قوته –لأمر ما- تحتمل زيادة سرعته الحالية؟ لم يكن يبدو على الربان أي قلق على الرغم من ذلك، ولم يكن يحاول إطلاقًا أن يدنو من الأرض.

كنا نسمع صفير البخار وهو ينفلت من صمامات المدمرتين وسط بقع من الدخان الأسود.

ولكنا كنا نسمع أيضًا خوار الشلال إذ أصبحنا على بعد يقل عن ثلاثة أميال من مصب النهر.

وكان جهاز الرعب ينطلق في فرع النهر الأيسر محاذيًا جزيرة «نيفي» التي كان قد تجاوز طرفها منذ وقت قريب. وبعد ربع ساعة ظهرت أول أشجار «جوت أيلاند». وأخذ التيار يزداد سرعة، فإذا لم يشأ جهاز الرعب أن يتوقف فلن تتمكن المدمرتان

من مطاردته بعد ذلك! إذ إنه إذا كان ذلك الربان الملعون يجد متعة في أن تبتلعه دواما «هورس شوفول» فلن يتبعاه إلى الهاوية!

ودوت طلقات الصفارات، فتوقفت المدمرتان وهي على بعد لا يزيد على 500 أو 600 قدم من الشلال. ثم دوت بعد ذلك انفجارات في اتجاه مجرى المياه، ومرت عدة قذائف بحذاء جهاز الرعب، ولكن دون أن تصيبه واحدة منها.

كانت الشمس قد اختفت منذ قليل. وكان القمر يرسل أشعته وسط الغسق ناحية الشمال. وقد ضاعفت سرعة التيار من سرعة الجهاز فأصبح يندفع بسرعة خطيرة، وبدا أنه ربما سقط بعد دقيقة واحدة في ذلك التجويف المظلم، الذي يكونه المسقط الكندي في وسطه.

وأخذت أنظر بعين مذعورة إلى تلك الأطراف البعيدة لجزيرة «جوت أيلاند»، ثم إلى جر «ترواسير» -القائمة عند رأسها- وهي غارقة تحت انهمار المياه الصاخبة.

وانتصبت واقفًا، وكان عليَّ أن ألقي بنفسي في النهر؛ لكي أصل إلى الجزيرة.

وهنا وقعت يدا الرجل عليَّ بثقل زائد.

وفجأة سمعت ضجة عنيفة منبعثة من الآلات التي كانت تعمل في الداخل. إن الزعانف الكبيرة المثبتة على جانبي ذلك الجهاز قد انفردت كالأجنحة، وفي نفس اللحظة التي كان «الرعب» يندفع فيها إلى المسقط، أخذ يرتفع خلال الفضاء عابرًا الشلالات الثائرة وسط طيف من قوس قزح قمري!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس عشر

وكر النسر

وفي اليوم التالي عندما استيقظت بعد نوم عميق، وجدت أن الجهاز لا حراك به، فتأكدت في الحال أنه لم يكن يسير على الأرض، ولم يكن يسبح على سطح المياه، ولا ينساب تحتها، ولم يكن يطير في الهواء. فهل كان لي أن أستنتج من ذلك أن مخترعه كان قد وصل إلى ذلك الملجأ السري الذي لم تطأه قدم أي كائن بشري قبله.

ولكن بما أنه لم يكن قد تخلص مني، فهل كان من الممكن أن يبوح لي بسره أخيرًا؟

وربما يُدهش القارئ لذلك النوم العميق الذي انتابني أثناء تلك الرحلة الجوية. لقد دهشت أنا نفسي من ذلك، وتساءلت إذا لم يكن النوم قد جاءني إثر تناولي مادة مخدرة خُلطت بوجبتي الأخيرة.. وقد أراد قائد «الرعب» بذلك أن يجعل من المستحيل عليَّ معرفة مكان رسوه، وكل ما يمكنني أن أقطع به كان ذلك الانفعال الفظيع الذي انتابني عندما ارتفع الجهاز بقوة محركه في الهواء بدلًا من أن يندفع في دوامات الشلال، وكأنه طائر ذو أجنحة عريضة تضرب بقوة عجيبة خارقة!

وهكذا كان جهاز سيد العالم هذا يتشكل بأربعة أشكال: كان في نفس الوقت سيارة، ثم سفينة وغواصة وآلة للطيران. وكان يمكنه السير خلال هذه العناصر الثلاثة: الأرض والماء والهواء. كانت تحركاته تتم بقوة خارقة وبسرعة مذهلة! فبضع لحظات كانت تكفيه ليقوم بتلك الانقلابات العجيبة! وكانت آلة واحدة بعينها تتولى تلك التحركات المختلفة! لقد كنت شاهد عيان لتلك التغييرات! ولكن الذي كنت لا أزال أجهله -وربما كنت على وشك اكتشافه- كان المصدر الذي يمد ذلك الجهاز بقدرته، ثم ذلك المخترع العبقري الذي أبدع تكوينه وراح يقوده بمثل هذه المهارة والإقدام!

كنت ملتصقًا بغطاء مقصورتي، في تلك اللحظة التي كان «الرعب» يشرف فيها على المسقط الكندي. وكانت تلك الليلة الصافية تسمح لي بملاحظة الاتجاه الذي كان يتبعه ذلك الطيار. لقد كان ينساب فوق النهر مجتازًا «الجسر المعلق» وهو على بعد ثلاثة أميال من «هورس شوفولز». وفي ذلك المكان تبدأ مياه نياجرا السريعة التي لا يمكن اجتيازها، والتي تنثني هناك لتنحدر تجاه بحيرة «أونتاريو».

وخُيِّل إليَّ عند هذا المكان أن الجهاز ينحرف ناحية الشرق!

لقد كان الطيار يتخذ مكانه دائمًا في المؤخرة.. ولم أكن قد تحدثت معه.. ولماذا أحدثه؟! فربما لم يكن ليجيبني.

ولاحظت أن الرعب كان ينطلق بسهولة مذهلة، وكان يألف الطرق الجوية ألفته للطرق البحرية والأرضية.

وإزاء مثل هذه النتائج ألا يمكننا أن نفهم مدى الكبرياء التي طغت على ذلك الذي أعلن نفسه سيد العالم؟ ألم تكن في حوزته آلة تفوق جميع الآلات التي أنتجتها يد البشر، آلة يقف الإنسان أمامها مكتوف اليدين؟ فلماذا يبيعها إذَنْ؟ ولماذا يقبل الملايين التي قُدِّمت له؟ نعم! كان كل ذلك يفسر لي تمام التفسير ثقته التامة بنفسه، تلك الثقة التي كانت تنبعث من أعماقه! ولكن إلى أين كان يحمله طموحه إذا أدى ذلك الطموح المفرط إلى الجنون يومًا ما؟

وبعد نصف ساعة من طيران «الرعب»، رحت –دون أن أشعر- في غيبوبة تامة. وأكرر أن ذلك لا بد أن يكون قد نتج عن مادة مخدرة. فلا شك أن القائد لم يكن يرغب في أن أعرف الاتجاه الذي كان يسلكه.

فهل استمر الطيار في طيرانه خلال الفضاء؟ وهل أبحر على سطح بحر أو بحيرة؟ وهل قذف بنفسه على طرق الأراضي الأمريكية؟ لست أدرى عن ذلك شيئًا، فإني لم أعِ شيئًا مما حدث أثناء تلك الليلة الحادية والثلاثين من يولية حتى اليوم الأول من أغسطس.

والآن، ماذا سيحدث بعد تلك المغامرة؟ ماذا سيحدث لي أنا على وجه الخصوص؟ وماذا ستكون النتيجة؟

قلت إنه في ذلك الوقت الذي انتهى فيه نومي الغريب كان جهاز الرعب يبدو في سكون تام. ولم يكن في ذلك أي لبس: إذ لو كانت قد حدثت أي حركة على أي صورة، لكنت قد أحسست بها، ولو كنت في أجواز الفضاء.

وعندما استيقظت وجدت نفسي في مقصورتي التي كنت قد سجنت فيها دون أن أشعر، وذلك كما حدث في تلك الليلة التي أمضيتها على ظهر «الرعب» على بحيرة إيريه.

وكان كل همي أن أعرف ما إذا كان من الممكن لي أن أصعد إلى ظهر الجهاز ما دام قد نزل إلى الأرض.

وحاولت أن أرفع الغطاء بدفعة من يدي، ولكنه أبى ذلك بشدة.

وكنت أقول لنفسي:

«ألن يطلق سراحي قبل أن يستأنف «الرعب» طيرانه أو ملاحته»؟ أليس الطيران والملاحة هما الحالتان الوحيدتان في الواقع اللتان تحولان بيني وبين الهرب؟».

وإنك لتفهم مدى قلقي، وانشغال فكري بقدر جهلي من الوقت كم يستغرق ذلك التوقف على الأرض.

ولم أنتظر أكثر من دقائق، حتى وصل إلى سمعي صوت متاريس تتحرك. ورُفع الغطاء من الخارج، فغمر النور والهواء مقصورتي.

وبقفزة واحدة وجدت نفسي على ظهر «الرعب» في مكاني المعتاد.

وجابت عيناي الأفق في لحظة واحدة.

لقد كان «الرعب» –كما تكهنت- يأخذ قسطًا من الراحة على الأرض وسط ميدان يبلغ محيطه من 1500 قدم إلى 1800 قدم. وكانت أرضه مغطاة كلها ببساط من حصى أصفر، وليس بها أي أثر للعشب.

وكان ذلك الميدان بيضاوي الشكل تقريبًا، ويمتد قطره الكبير من الجنوب إلى الشمال. ولكن كم كان يبلغ ارتفاع إطاره الصخري؟ وماذا كان شكل رأس صخرته العليا ونظامها؟ هذا ما لم أتمكن من الحكم عليه، إذ كان يتجمع فوق رؤوسنا ضباب كثيف جدًّا لم تستطع الشمس أن تبدده بعد. وكانت هناك أعمدة عريضة من البخار تتدلى حتى القاع الرملي. ذلك أن اليوم كان في ساعاته الأولى في أغلب الظن، لذلك لم يكن ذلك الضباب ليقيم طويلًا حتى يتبدد.

وعلى الرغم من أننا كنا في اليوم الأول من شهر أغسطس، فإنني كنت أشعر في الحقيقة بشيء من البرودة يعم الميدان كله، فاستنتجت من ذلك أنه لا بد أن يكون واقعًا في منطقة مرتفعة من القارة الجديدة.. ولكن ما هي هذه المنطقة؟ لقد كان من المستحيل تكوين أي فرض بخصوصها. وعلى كل حال، مهما كانت السرعة التي يقود بها ذلك الطيار طائرته، فإنه لم يكن لديه الوقت الكافي لكي يجتاز المحيط الأطلنطي أو المحيط الهادي، إذ لم يكن قد مضى أكثر من اثنتي عشرة ساعة منذ أن غادرنا نياجرا.

وفي ذلك الوقت رأيت القائد يخرج من مكان متعرج، يُحتمل أن يكون مغارة محفورة في أسفل تلك المنطقة، التي يكسوها الضباب الكثيف.

وكانت تظهر أحيانًا خلال ذلك الضباب خيالات طيور ضخمة، يعكر صياحها الأجش ذلك السكون العميق. ومن يدري! فربما كان وصول ذلك الوحش ذي الأجنحة الهائلة المريعة قد أفزعها، وهي غير قادرة على منافسته، في قوته أو في سرعته!

وهكذا كان كل شيء يحملني على الاعتقاد بأنه هنا كان يلجأ سيد العالم عندما ينتهي من أسفاره العجيبة.. فهنا مأوى سيارته، وميناء سفينته، ومركز طائرته! وها هو ذا «الرعب» يقبع دون حراك في قاع ذلك الميدان.

وأخيرًا وجدت أن في استطاعتي فحص ذلك الجهاز، فلم يكن يخيل إليَّ أن أحدًا ما يفكر في أن يمنعني من ذلك. فالواقع أن الربان لم يكن يبدو عليه أنه غير مرتاح لوجودي هنا أكثر مما كان من قبل. كان زميلاه قد لحقا به منذ وقت قليل، ولم يتوانَ ثلاثتهم حتى دخلوا المغارة، التي تحدثت عنها. وفي ذلك الوقت وجدت أن الفرصة مهيأة لي لكي أفحص ذلك الجهاز ولو من خارجه. أما استعداداته الداخلية فكان من المحتمل أن أقتصر فيها على التخمينات.

وكانت جميع الطاقات مغلقة، ما عدا غطاء مقصورتي. وحاولت أن أفتحها ولكن عبثًا حاولت. وكم كان من الممتع حقًّا لو تمكنت من مشاهدة ذلك المحرك الذي يستعمله جهاز الرعب في تحولاته العديدة.

وقفزت على الأرض، وأصبح لدي الوقت الكافي لكي أباشر أول فحص.

كان الجهاز صاروخي الشكل، مقدمته أكثر تدببًا من مؤخرته، وهيكله الخارجي من معدن الألومنيوم. أما الأجنحة فكانت من مادة لم أتمكن من تحديد نوعها. كان يقف على أربع عجلات، يبلغ قطر الواحدة منها قدمين، ويحيط بها إطار من المطاط ذو سمك كبير يهيئ له السهولة التامة في الانسياب بسرعة فائقة. كما كان لهذه العجلات إطارات كبيرة تشبه إطارات عجلات الطاحونة. وأعتقد أنها كانت لا بد أن تزيد من سرعة الرعب عندما يتحرك على المياه أو تحتها.

ولكن لم تكن هذه العجلات هي المحرك الرئيس لجهاز الرعب. فقد كان محركه يحوي مروحتين مثبتتين طوليًّا، كل منهما على جانب من ذلك الجزء الخشبي الذي يصل مؤخرته بمقدمته ويحمل هيكله. وكانت الآلة تزود هذه المراوح بسرعة عجيبة، فكان المرء يراها تدور في الماء في حركة لولبية تزيد من مدى غوص السفينة في الماء. وقد تساءلت عما إذا لم تكن تلك المراوح تستعمل أيضًا في دفع الجهاز إلى الأمام خلال الفضاء.

وعلى كل حال، إذا كان ذلك الجهاز يعلو في الهواء ويتحرك فيه، فقد كان ذلك يحدث بفضل تلك الأجنحة الكبيرة التي كانت تسقط على جانبيه كالزعانف حينما يستقر على الأرض. كان إذَنْ ذلك هو النظام المسمى بنظام «أثقل من الهواء» الذي طبقه المخترع. وهو نظام سمح له بأن ينتقل في الفضاء بسرعة ربما فاقت سرعة أقوى الطيور.

أما بالنسبة للقوة التي كانت تحرك كل تلك المكنات المختلفة من الآلات، فإني أكرر أنه لا يمكن أن تكون غير الكهرباء. ولكن من أي مصدر كانت البطاريات تستمد هذه الكهرباء؟ أكان يوجد في مكان ما معمل للقوة الكهربية تشحن منه البطاريات؟ هل كانت تُدار مولداته الكهربية في إحدى مغارات ذلك الميدان؟

يُستخلص إذَنْ من فحصي هذا أني إذا كنت قد عرفت أن الجهاز يستخدم العجلات والمراوح والأجنحة، فإني لم أعرف شيئًا عن طريقة سير الآلات أو عن القوة التي تديرها. ولكن ما الفائدة التي كانت تعود عليَّ من اكتشاف ذلك السر؟ لقد كان من الأفضل لي أن أستعيد حريتي، ولكني أعتقد أن سيد العالم لن يطلق سراحي بعد ما حصلت عليه من معلومات مهما كانت قليلة!

لم يكن أمامي إذَنْ إلا أن أتصيد فرصة للإفلات. ولكن هل ستسنح لي هذه الفرصة في وقت من الأوقات؟ وإذا لم أتمكن من ذلك أثناء أسفار «الرعب» فهل أتمكن منه أثناء توقفه في هذا المكان؟

ومهما يكن من شيء، فإنه كان لا بد لي أن أعرف أولًا: أين يقع ذلك الميدان؟ وفي أي مكان رسا ذلك الطيار؟ وما هو طريق الاتصال بين ذلك الميدان والمنطقة التي تحيط به؟ وهل كان له أي منفذ يؤدي إلى الخارج؟ وهل كان يستحيل دخوله إلا إذا عبرت أسواره بجهاز طائر؟ وفي أي جزء من الولايات المتحدة قد رسونا؟ إنه مهما بلغت سرعة جهاز «الرعب» -إذا افترضنا أنه لم يقم برحلته هذه إلا البارحة- فلم يكن من المعقول قطعًا أن يكون قد غادر أمريكا أو انتقل من العالم الجديد إلى العالم القديم! ألم يكن من المعقول تقدير تلك المسافة التي قطعها أثناء الليل ببضع عشرات أو مئات من الأميال ليس إلا؟

وهذا فرض آخر كثيرًا ما دار بذهني، وكان يستحق البحث، بل كان من المنطق أن يقبله المرء: لم لا يكون «الرعب» قد اتخذ من «جريت أيري» بالذات مرسى له؟ ألم يكن من السهل جدًّا على ذلك الجهاز الطائر أن ينفذ إليها؟ وألم يكن في مقدور أي طيار أن يقوم بما كانت تفعله طيور الرخ والنسور؟ وألم تكن تلك المنطقة المنيعة هي المخبأ السري لسيد العالم، ومن ثم عجز رجال شرطتنا عن الوقوف على أثره، وأعتقد أنه بعيد كل البعد عن أن يلحق به أحد وهو في ذلك المكان؟ أضف إلى ذلك أن المسافة بين «شلالات نياجرا» وهذا الجزء من الجبال الزرق لا تتجاوز 450 ميلًا، وكان في استطاعة «الرعب» أن يقطعها في اثنتي عشرة ساعة!

نعم! لقد كانت تلك الفكرة تتمكن من ذهني شيئًا فشيئًا في زحمة صور كثيرة أخرى! فتلك العلاقات التي لم أكن أعرف كنهها والتي توجد بين «جريت أيري» وبين كاتب تلك الرسالة الموقعة بالحروف الثلاثة، ألم يكن هذا الفرض تفسيرًا معقولًا لها؟ ثم تلك التهديدات التي وجهت إليَّ إذا ما عدت إلى محاولتي مرة أخرى؟ وذلك

التجسس عليَّ؟ ثم تلك الظواهر التي كانت «جريت أيري» مسرحًا لها... ألم تكن لكل هذه الأمور صلة به لسبب ما زلت أجهله؟ نعم، «جريت أيري»! «جريت أيري»! وما دام قد استحال عليَّ حتى ذلك الوقت أن أنفذ إليها، فهل أتمكن من الخروج منها بطريقة أخرى دون أن أصعد إلى ظهر ذلك «الرعب»؟

آه... هل أتعرف عليها لو انقشع ذلك الضباب؟ وهل من الممكن أن ينقلب ذلك الفرض إلى حقيقة؟

ولما كان لي في هذه الأثناء مطلق الحرية في الذهاب والمجيء، ولما كان القبطان ورفيقاه لا يظهرون أي قلق لوجودي، فقد عزمت على أن أقوم بجولة في أرجاء ذلك المكان.

كان ثلاثتهم في ذلك الوقت داخل المغارة التي قلت إنها تقع في أقصى الشمال من ذلك الميدان البيضاوي الشكل، لذلك بدأت بالتفتيش في أقصى طرفه الجنوبي.

وعندما وصلت بالقرب من ذلك السور المرتفع، سرت محاذيًا قاعدته السفلى، المليئة بالتعاريج. كان يعلوها جدار أملس من تلك الصخور التي تشبه الجرانيت، والتي تتكون منها سلسلة جبال أليجانيس. فإلى أي ارتفاع يا تُرى كان يصعد ذلك الجدار؟ وماذا كان تكوين قمته العليا؟ لقد كان من المستحيل عليَّ حتى ذلك الوقت أن أحل هذه الطلاسم، فكان لا بد لي من الانتظار حتى ينقشع الضباب إما بواسطة النسيم، وإما عن طريق أشعة الشمس.

وفي انتظار هذا الأوان أخذت أواصل سيري حول مدار تلك المرتفعات التي لم يكن يدخل النور إلى تجاويفها إلا عن طريق فوهتها. فوجدت بداخلها أنقاضًا مختلفة: قطعًا من الأخشاب، وأكوامًا من الأعشاب الجافة. كما رأيت هناك أيضًا آثار أقدام كان القبطان وزميلاه قد تركوها على الرمال.

ولكني لم أكن أشاهدهم، إذ كانوا في أغلب الظن منهمكين في أمر ما داخل تلك المغارة التي كانت تتكدس أمامها طرود عديدة. فهل كانوا يعتزمون نقل تلك الطرود إلى ظهر «الرعب»؟ وهل كانوا يشرعون في الانتقال من هذا المكان ويغادرون ذلك المخبأ إلى الأبد؟

وبعد أن انتهيت من جولتي بعد نصف ساعة عدت إلى ناحية الوسط حيث كانت تتكدس هنا وهناك طبقات عريضة من الرماد، الذي خمد وابيض بمرور الزمن، ثم بقايا كتل وألواح جيرية، وقوائم أبواب ما زالت مثبتة بها بعض القطع الحديدية، وهياكل معدنية قد ثنتها النيران، وحطام أجهزة حديدية أفسدها الحريق.

الواقع أن ذلك الميدان كان مسرحًا لحريق متعمد أو مفاجئ، حدث في زمن ليس ببعيد.. ولم لا توجد علاقة بين ذلك الحريق وتلك الظواهر التي شوهدت في «جريت أيري»، من ذلك اللهب الذي كان يظهر فوق إطارها الصخري، إلى تلك الأصوات التي كانت تجتاز الفضاء، والتي كثيرًا ما أرعبت سكَّان المنطقة: أعني أهالي «بليزانت جاردن» وأهالي «مورجانتون»؟ ولكن ما بال كل تلك الأدوات التي شاهدتها؟ وما الفائدة التي كان يمكن أن تعود على الربان من إفسادها؟

وبينما كنت مسترسلًا في خيالي، إذ مر نسيم مفاجئ، مقبل من الشرق؛ فتخلصت السماء فجأة من الأبخرة التي حجبتها. وفي منتصف المسافة بين الأفق وسمت السماء تسربت أشعة الشمس إلى ذلك الإطار الصخري، فانغمر الميدان في النور.

وهنا انفلتت مني صيحة!

لقد بدأت تتكشف لي قمة ذلك الإطار الصخري على ارتفاع يبلغ حوالي المائة من الأقدام.. ومن ناحية الشرق بدا أمام ناظري ذلك الخيال الذي أعرفه جيدًا، خيال الصخرة المنحوتة على هيئة نسر.

لقد كانت هي تمامًا تلك الصخرة التي شاهدناها أنا والسيد إلياس سميث أثناء محاولتنا الصعود إلى «جريت أيري»!

وهكذا لم يعد هناك مجال للشك! لقد قطع الطيار أثناء طيرانه الليلة الماضية تلك المسافة الموجودة بين بحيرة «إيريه» وكارولين الشمالية! وها هو ذا يضع جهازه وسط تلك المنطقة! إن ذلك الوكر جدير حقًّا بذلك الطائر القوي المهول، الذي خلقته عبقرية مخترعه، والذي كان من المستحيل على أي شخص غيره أن يعبر أسواره المنيعة! ومن يدري فربما يكون قد اكتشف أيضًا في أحد تلك التجاويف العميقة طريقًا تحت الأرض يؤدي إلى الخارج ويسمح له بمغادرة «جريت أيري» تاركًا فيها جهاز الرعب؟

كان هذا كل ما يوحي إليَّ به خيالي! وهكذا وجدت تفسير تلك الرسالة الأولى التي وصلتني من «جريت أيري» والتي كانت تهددني بالموت! ولكن، لو فرضنا أننا كنا قد تمكنا من دخول ذلك الميدان، فهل كان في استطاعتنا اكتشاف أسرار سيد العالم قبل أن يكون قد تمكن من الهرب؟ من يدري؟

وظللت هناك ساكنًا دون حراك، وعيناي مثبتتان على ذلك النسر الحجري، وقد انتابني انفعال شديد! وكنت أسائل نفسي قائلًا: أليس من الواجب عليَّ -مهما حدث من نتائج- أن أقوم بتدمير هذا الجهاز قبل أن يستأنف طيرانه في أجواء العالم!

وفي هذه اللحظة سمعت وقع خطوات.

فالتفت ورائي.

لقد كان الربان يتقدم ناحيتي، ثم توقف قليلًا، وراح يحملق في وجهي.

وعندئذٍ لم أتمكن من أن أتمالك نفسي، فخرجت من فمي تلك الكلمات:

- «جريت أيري»! «جريت أيري»!

- نعم! أيها المفتش ستروك!

- وأنت؟ أهو أنت سيد العالم؟

- سيد هذا العالم الذي أثبت له أنني أقدر البشر!

فصحت قائلًا وأنا في غاية الدهشة:

- أنت؟!

أجاب وهو يرفع هامته بكل كبرياء:

- نعم.. أنا... أنا... روبير.. روبير الفاتح.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السَّادس عَشر

روبير الفَاتح

رجل متوسط القامة، له كتفان عريضان منتظمان في شكلهما الهندسي، وكأنهما شبه منحرف متناسق، يكون أطول ضلع فيه خط الكتفين، وعلى هذا الخط يقوم رأس ضخمة مستديرة مثبتة على عنق قوي، وله عينان تتوهجان من أقل انفعال، يعلوهما حاجبان عضليان منقبضان على الدوام، دلالة على العزم الأكيد، وله شعر قصير به تجعد خفيف يتموج تمويج المعادن، كما لو كان خصلًا من خيوط حديدية، وصدر متسع يرتفع وينخفض فيما يشبه حركة منفاخ الحداد، وذراعان ويدان وساقان جديرة جميعًا بالجذع الذي تتفرع منه. وليس له شارب ولا سوالف، ولكن له لحية صغيرة عريضة على الطراز الأمريكي، تكشف عن مفاصل الفك ذات العضلات المضغية القوية.

كانت هذه هي صورة ذلك الرجل العجيب التي نشرتها كل صحف الاتحاد في اليوم الثالث عشر من شهر يونية عام ألف وثمانمائة و ....، وهو اليوم التالي لظهور هذا الشخص ظهورًا مثيرًا في اجتماع معهد «ويلدون» بفيلادلفيا.

وكان هذا هو «روبير الفاتح» نفسه الذي كشف لي عن شخصيته منذ لحظة، وهو يلقي على سمعي باسمه الرنان، وكأنه يهددني به، في داخل نطاق «جريت أيري» بالذات!

ومن الضروري أن نذكر بإيجاز تلك الأحداث التي لفتت أنظار الوطن كله إلى ذلك المدعو روبير، والتي أدت به إلى تلك المغامرة العجيبة التي كانت نهايتها بعيدة كل البعد عما كان يمكن أن يتنبأ به إنسان.

ففي مساء اليوم الثاني عشر من شهر يونية كانت تُعقد في فيلادلفيا جلسة من جلسات معهد ويلدون، يرأسها العم «برودنت»، وهو من أبرز الشخصيات في تلك المدينة الكبرى من ولاية بنسلفانيا. كما كان يتولى أعمال السكرتارية فيها «فيل إيفانز» الذي لا تقل شخصيته أهمية عن شخصية الرئيس. وكانت تدور المناقشة حول مسألة المناطيد الموجهة. إذ كان قد تم في هذه الآونة، تحت رعاية مجلس إدارة المعهد، صنع منطاد يُسمَّى «جو أهيد» (أي سر إلى الأمام) يبلغ حجمه أربعين ألف متر مكعب. وكان مقدرًا لهذا المنطاد أنه يتحرك أفقيًّا بفعل مولد كهربي خفيف وقوي في نفس الوقت ويدير رفاصًا. وكان من المتوقع أن يأتي هذا المولد بأحسن النتائج. وقد اختلف الرأي في تحديد المكان الذي كان يجب أن يوضع فيه الرفاص. وهل يوضع في مقدمة قفص المنطاد كما رأى بعضهم، أم يوضع في مؤخرته كما رأى بعضهم الآخر؟

لم يكن قد اتفق بعد على رأي في هذه المسألة، فقامت في ذلك اليوم معارك بين أنصار المقدمة وأنصار المؤخرة، وارتفعت حدة المناقشة حتى كادت تؤدي إلى تضارب بعض الأعضاء فيما بينهم بالأيدي. وبينما كانت المعركة على أشدها إذا برجل أجنبي يطلب السماح له بالدخول إلى قاعة الاجتماعات.

طلب ذلك باسم «روبير». فدخل، وبعد أن التمس إلقاء كلمة، سُمح له بها، والسكون يخيم على الجميع. وتكلم مبديًا رأيه بصراحة في الجدال المتعلق بموضوع المناطيد الموجهة، فأعلن أنه لما كان الإنسان قد أصبح سيد البحار بالسفينة التي تسير بالريح

أو بالعجلة أو بالرفاص، فإنه لن يكون سيد الفضاء إلا باستعمال أجهزة أثقل وزنًا من الهواء، إذ يجب أن يكون الجهاز الطائر أثقل من الهواء حتى يستطيع أن يتحرك فيه بمطلق حريته.

وكان هذا هو موضوع الصراع الأبدي في ميدان الطيران بين المناطيد والطائرات. ولكن تلك الجلسة كان يسودها أنصار الأجهزة الأخف وزنًا من الهواء، واحتد الصراع حتى أن روبير، رأى نفسه مضطرًّا إلى مغادرة القاعة بعد أن سمع بعض المنافسين يتهكمون به ويدعونه بالفاتح.

إلا أنه بعد اختفاء ذلك الشخص الغريب ببضع ساعات، وقع كل من رئيس وسكرتير معهد ويلدون ضحية لاختطاف جريء. ففي اللحظة التي كانا يجتازان فيها حديقة «فيرمونت بارك» يرافقهما الخادم «فرايكولين»، انقض عليهم عدة أشخاص فقيدوهم وكمموا أفواههم، وعلى الرغم مما أبدوه من مقاومة، اقتادوهم خلال تلك الممرات المهجورة، أدخلوهم في جهاز كان قد وُضع وسط أرض فسيحة خاوية من الأشجار. وعندما طلع عليهم النهار، وهم محبوسون في طائرة روبير، وجدوا أنفسهم يحلقون في أجواز الفضاء فوق بلاد حاولوا عبثًا التعرف عليها.

وبذلك تحقق العم برودنت وفيل إيفانز بنفسيهما من أن خطيب البارحة لم يكن قد خدعهما، وأنه يمتلك جهازًا جويًّا يقوم على مبدأ الجهاز الأثقل وزنًا من الهواء، هذا الجهاز الذي كان لحسن الحظ أو لسوئه -فهما اللذان كانا سيقدران ذلك تمامًا- قد أعد لهما رحلة عجيبة.

وكان هذا الجهاز، الذي تخيله وصنعه ذلك المهندس روبير، يعتمد على الحركة المزدوجة للمروحة، التي تدور فتدفع بالطائرة في اتجاه محورها؛ فإذا كان محورها رأسيًّا تحركت في اتجاه رأسي، وإذا كان أفقيًّا تحركت في اتجاه أفقي. وذلك مثل الهيليكوبتر التي ترتفع في الفضاء؛ لأنها تضرب الهواء بميل كما لو كانت تتحرك على منحدر.

وكانت تلك الطائرة، وتُدعى «ألباتروس»(4)، تتكون من جسم طوله ثلاثون مترًا، ومزودة برفاصين أحدهما في المقدمة، والثاني في المؤخرة، ثم بمجموعة تشمل سبعًا وثلاثين مروحة معلقة على محاور رأسية؛ خمس عشرة منها على كل جانب من جانبي الطائرة، وسبع وسط الجهاز وفي موضع يعلو مستوى المراوح الجانبية. وهذه المجموعة تكون سبعًا وثلاثين سارية، مزودة بالأذرع بدلًا من الأشرعة، وتمدها الآلات المقامة في قباب صغيرة على سطح الطائرة بحركة دائرية هائلة.

(4) ALBATROS هو اسم لنوع من طيور البحار الجنوبية.

أما تلك القوة التي كانت تستعمل لرفع هذه الطائرة وتحريكها فلم تكن تستمد من بخار الماء أو من أي سائل آخر، ولا من الهواء المضغوط أو من أي غاز متمدد. كما لم يكن روبير يستمدها من الأمزجة المتفجرة، بل كان يستمدها من ذلك العنصر المحرك الذي يصلح لشتى المنافع، ألا وهو الكهرباء. ولكن كيف ومن أين كان يحصل ذلك المخترع على تلك الكهرباء، التي كان يشحن بها أعمدته وبطارياته؟ هذا ما لم يعرفه أحد مطلقًا، ولكن من المحتمل تمامًا أنه كان يستمدها من الهواء المحيط به، المشحون دائمًا إلى حد ما بالتيار الكهربي؛ على نحو ما كان يستمدها

ذلك الربان المشهور «نيمو» من الماء الذي يحيط به حين انطلق بغواصته «نوتيليس» في أعماق المحيط.

ويجدر بنا هنا أن ننوه بأنه لم يكن باستطاعة العم برودنت ولا فيل إيفانز أن يكتشفا ذلك السر خلال المدة التي استغرقتها الرحلة الجوية التي قاما بها على متن الطائرة «ألباتروس» حول الكرة الأرضية.

وكانت الجماعة التي تعمل تحت إمرة المهندس روبير تشتمل على رئيس للعمال يُدعى جون تيرنر وثلاثة من الميكانيكيين واثنين من المساعدين وطباخ، يبلغون في مجموعهم ثمانية أشخاص كانوا طاقمًا كافيًا لخدمة الطائرة.

وقد قال روبير للراكبين، اللذين وافقاه على الرغم منهما: «إني بطائرتي هذه أعتبر السيد المطلق على ذلك القسم السابع من العالم، وهو قسم أكثر اتساعًا من أستراليا، والأوقيانوس وآسيا، وأمريكا. وأوروبا، إنه ذلك الفضاء الفسيح الأرجاء الذي سيمخر عبابه آلاف من الناس في المستقبل القريب!».

وهكذا بدأت رحلة المغامرات هذه في الطائرة «ألباتروس»، وقد بدأت بالتحليق فوق الأقاليم الواسعة لشمال أمريكا. وما كان العم برودنت وفيل إيفانز يحاولان عبثًا رفع صوتهما باحتجاجات لها كل ما يبررها، حتى كان روبير يبادر برفضها كلها متذرعًا بقانون الحق للأقوى. وما كان عليهما إلا الاستسلام أو بالأحرى الخضوع لهذا الحق.

واجتازت ألباتروس في انطلاقها نحو الغرب سلسلة الجبال الصخرية الهائلة، وسهول كاليفورنيا، وبعد أن خلفت وراءها «سان فرانسيسكو»، عبرت المنطقة الشمالية للمحيط الهادي حتى شبه جزيرة «كامشاتكا»، وعندئذٍ كانت أقاليم الإمبراطورية السماوية(5) تمتد تحت أنظار راكبيها، ثم لمحا بكين العاصمة الصينية داخل سورها المربع الأضلاع. ثم صعدت الطائرة بفعل مراوحها المعلقة إلى طبقات جد عالية، ومرقت فوق جبال هيمالايا بقممها البيض المغطاة بالثلوج اللامعة. ولم تحد الطائرة في اتجاهها إلى الغرب. وبعد أن اخترقت الفضاء الذي يظلل بلاد الفرس وبحرِ قزوين، عبرت الحدود الأوروبية ثم البراريِ الروسية متتبعة وادي الفولجا، فشوهدت من موسكو ومنِ بطرسبرج، وشاهدها سكّان فنلندة وصيادو السمك في بحر البلطيق. وبعد أن حلّقت فوق السويد عند خط العرض المار بستوكهولم وفوق النرويج عند الخط المار بكرستيانا، انحرفت نحو الجنوب وحلقت على ارتفاع ألف متر فوق فرنسا، ثم هبطت نحو باريس فأشرفت على العاصمة الكبيرة من ارتفاع مائة قدم، بينما كانت مصابيحها ترسل إليها حزمًا من الأنوار التي تبهر البصر. وأخيرًا مروا في سماء إيطاليا بمدنها فلورانس وروما ونابولي، ثم بالبحر الأبيض المتوسط الذي عبرته في خط منحرف. ووصلت الطائرة إلى شواطئ أفريقيا المتسعة التي اجتازتها ابتداء من رأس سبارتل في مراكش حتى مصر، محلقة فوق الجزائر وتونس وطرابلس. وبعد أن وصلت إلى تومبوكتو –زهرة السودان- غامرت بالتحليق فوق المحيط الأطلسي.

(5) الصين.

وكانت تسير دائمًا في اتجاه الجنوب الغربي. ولم تستطع أي قوة أن توقفها فوق ذلك المسطح المائي الفسيح الأرجاء، لا العواصف التي كانت تهب بشدة فائقة، ولا ذلك

الإعصار الذي أحاطها بالدوامات، والذي تمكن قائد الطائرة بفضل مهارته ورباطة جأشه من الخلاص منه، بعد أن أطلق عليه قذيفة من مدفعه لكسر شوكته.

وعادت الأرض إلى الظهور عند مدخل مضيق ماجلان فعبرته ألباتروس من الشمال إلى الجنوب، وغادرته عند طرف رأس هورن لتنطلق فوق المناطق الجنوبية للمحيط الهادي.

وبعد أن قاوم روبير إعصارًا شديدًا آخر، واستطاع أن يصل إلى مركزه لهدوئه نسبيًّا، خاطر بالتوغل في المناطق الموحشة للبحار القطبية الجنوبية، وتجول أعلى تلك النواحي المجهولة من أرض جراهام، وحلّق بضع ساعات فوق القطب الجنوبي، تحيط به آيات من جمال الشفق القطبي. ثم عادت الزوابع فهاجمت الطائرة وسحبتها نحو بركان «إيريبوس» الذي كان يقذف بحممه البركانية، وإنها لمعجزة حقًّا أن استطاعت الطائرة الخلاص منها.

وأخيرًا، في أواخر شهر يولية، بعد أن اتجهت ناحية المحيط الهادي. توقفت بالقرب من إحدى جزر المحيط الهندي. وألقى الخطاف إلى الخارج، فغاص في صخور الشاطئ، وبقيت ألباتروس، لأول مرة منذ رحيلها، ساكنة بلا حراك على بعد مائة وخمسين قدمًا من الأرض، وقد ثبتت في مكانها بفضل تلك المراوح التي كانت تساعدها على أن تظل معلقة.

وكانت هذه الجزيرة -كما علم العم برودنت ورفيقه فيما بعد- هي جزيرة «شاتام» التي تقع شرقي نيوزيلاند بخمس عشرة درجة. وإذا كانت الطائرة قد توقفت عند هذه الجزيرة، فذلك لأن مراوحها، التي أُصيبت بعطب أثناء الزوبعة الأخيرة، كانت تتطلب إصلاحات لم تكن لتستطيع من دونها أن تصل إلى جزيرة «إكس»- التي لا تزال على بعد ألفين وثمانمائة ميل- وهي تلك الجزيرة المجهولة في المحيط الهادي التي صنعت فيها ألباتروس.

لقد كان العم برودنت وفيل إيفانز يدركان تمامًا أنه بمجرد الانتهاء من تلك الإصلاحات، ستواصل الطائرة رحلاتها التي لا نهاية لها. ولهذا، ولما كانت مثبتة إلى الأرض، فقد خُيِّل إليهم أن الفرصة سانحة لمحاولة الهرب.

وكان يقدر طول حبل الخطاف الذي يشد ألباتروس بمائة وخمسين قدمًا على الأكثر. فإذا ما انزلق المسافران وخادمهما فرايكولين على طول ذلك الحبل فقد يصلون إلى الأرض دون مشقة كبيرة، وإذا ما قاموا بالهرب ليلًا، فقد لا يكونون عرضة لأن يراهم أحد. ولكن كان من الممكن أن يكتشف أمر هربهم عند طلوع الفجر، وعندئذٍ لم يكونوا ليستطيعوا مغادرة جزيرة شاتام، وقد يعودون إلى الأسر.

ولذلك استقر رأيهم الجريء على تدمير الجهاز وتهشيم أجنحته وهدمه على مخترعه وملاحيه وذلك بتفجير إصبع من الديناميت يحصلون عليه من بين ذخيرة الطائرة. وأمَّلوا في أن يكون لديهم الوقت الكافي للفرار عن طريق الحبل قبل أن ينفجر ذلك الإصبع، وأن يشاهدوا سقوط ألباتروس التي لن يتبقى منها قطعة واحدة.

وقد نفذوا ما قرروه، فما كاد يقبل المساء حتى أشعلوا فتيلة الإصبع، ثم انزلق ثلاثتهم دون أن يراهم أحد حتى وصلوا إلى الأرض. وعندئذٍ اكتشف أمرهم، فأطلقت عليهم من فوق ظهر الطائرة طلقات نارية، ولكنها لم تصبهم. وعندئذٍ ألقى العم برودنت بنفسه على حبل الخطاف فقطعه. ولما كانت ألباتروس لم تعد قادرة

على استعمال مراوحها الدافعة فقد حملتها الرياح، وما هي إلا لحظة حتى تهشمت بفعل الانفجار، وغاصت في أمواج المحيط الهادي.

ولم ينس أحد على الإطلاق أنه في الليلة الثالثة عشرة من شهر يونية اختفى العم برودنت وفيل إيفانز وفرايكولين عند خروجهم من معهد ويلدون. ومنذ ذلك الحين لم يسمع أحد عنهم أي نبأٍ. وكان من المستحيل التكهن بأي شيء حول ذلك الموضوع. فهل كانت هناك رابطة ما بين هذا الاختفاء الغريب وبين تلك المسألة التي أثارها روبير أثناء الجلسة الخالدة؟ لم ترد هذه الفكرة على بال أحد، ولم يكن من الممكن أن تخطر على بال أحد.

ولكن زملاء السيدين المُبجلين قد اعتراهم القلق لاختفائهما، فأجريت أبحاث اشتركت الشرطة فيها، وأُرسلت برقيات إلى جميع الجهات، عبر القارتين الجديدة والقديمة. ولم يأتِ كل ذلك بأي نتيجة. كما عرض معهد ويلدون جائزة قدرها خمسة آلاف دولار يمنحها لأي مواطن يقدم أي معلومات تتعلق بالأشخاص المختفين. ولكن المبلغ المعروض لم يخرج من خزانة المعهد.

كان هذا هو الموقف. وقد بلغ تبلبل الأفكار من جراء ذلك غايته، خصوصًا في الولايات المتحدة، ولا يزال هذا الحادث عالقًا بمخيلتي حتى هذه اللحظة. إلا أنه في العشرين من سبتمبر، ذاع خبر في فيلادلفيا ما لبث أن انتشر منها إلى الخارج.

لقد عاد العم برودنت وفيل إيفانز في عصر ذلك اليوم إلى مقر رئيس معهد ويلدون.

وفي مساء اليوم نفسه، عقد أعضاء المعهد إحدى جلساتهم بناء على دعوة وُجهت إليهم، فاستقبلوا زميليهم بحماس كبير. ولما وجه الأعضاء إليهما بعض الأسئلة، أجابا عنها بتحفظ شديد، وإذا أردنا أن نحسن التعبير قلنا إنهما لم يجيبا عليها مطلقًا. إلا أنه قد كشف الستار فيما بعد عن هذه المعلومات.

لم يكد يفر العم برودنت وفيل إيفانز وتتحطم الطائرة ألباتروس، حتى أخذا يعملان على تأمين حياتهما، منتظرين سنوح الفرصة لمغادرة جزيرة شاتام، وقد قابلا على الشاطئ الغربي للجزيرة قبيلة من الأهالي لم تُسئْ معاملتهما. إلا أن هذه الجزيرة كانت غير مطروقة، وقلما ترسو سفينة على شاطئها. فكان لا بد لهما من التذرع بالصبر. ولذا لم يستطع هذان الناجيان اللذان قذف بهما الهواء، أن يبحرا إلى أمريكا إلا بعد انقضاء خمسة أسابيع. وها هما قد عادا، فهل يعرف أحد ذلك الشيء الوحيد الذي كان يشغل بالهما؟! لقد كانا يتوقان إلى مواصلة عملهما الذي انقطع، وإنجاز بناء المنطاد «جو أهيد»، ثم الانطلاق من جديد في أجواز الفضاء العلوي، التي عبراها أخيرًا على ظهر تلك الطائرة! وكان يعتقدان أنهما إذا لم يقوما بهذا العمل لم يستحقا أن يكونا أمريكيين أصيلين.

وفي اليوم العشرين من شهر أبريل من السنة التالية كان المنطاد يتأهب للرحيل بقيادة «هاري و. تندر»، ذلك الطيار الشهير الذي كان من نصيبه أن يرافق رئيس معهد ويلدون وسكرتيره.

ويجب التنويه بأنه منذ عودتهما، لم يعد أحد يسمع شيئًا عن روبير، وكأنه لم ير نور الحياة في يوم من الأيام. ألم يكن هناك ما يحمل على الاعتقاد بأن حياته المليئة بالمغامرات قد انتهت عقب انفجار «ألباتروس» التي غرقت في أعماق المحيط الهادي؟

وحل يوم صعود المنطاد. وقد كنتَ هناك في حديقة «فيرمونت بارك» مع آلاف المتفرجين. وكان المنطاد «جو أهيد» يستعد للارتفاع إلى طبقات الجو العليا بفضل حجمه الضخم. وكان قد أصبح من الواضح أن مشكلة أنصار المقدمة وأنصار المؤخرة قد حلت تمامًا بطريقة بسيطة ومنطقية، إذ رُكبت مروحة في مقدمة قفص المنطاد وأخرى في المؤخرة، تحركها الكهرباء بقوة تفوق ما كان معمولًا به حتى ذلك الحين. وفضلًا عن ذلك، كان الجو ملائمًا للغاية، فكانت السماء خالية من الغيوم، كما لم تكن هناك أي ريح.

وفي الساعة الحادية عشرة والدقيقة العشرين انطلقت قذيفة مدفع معلنة لكل ذلك الحشد أن المنطاد على أهبة الرحيل. وعندئذٍ ارتفع صوت العم برودنت نفسه قويًّا واضحًا وهو يقول:

- «فكوا كل شيء».

وارتفع المنطاد ببطء وجلال في أجواز الفضاء. ثم بدأت تجارب حركته الأفقية، وقد كللت بالنجاح الباهر.

وفجأة ارتفعت صيحة، صيحة رددها مائة ألف فم.

فقد ظهر في ناحية الشمال الغربي جسم متحرك كان يقترب بسرعة فائقة.

ولم يكن هذا الجسم إلا نفس الجهاز الذي اختطف عضوَي معهد ويلدون في العام الماضي، وطاف بهما فوق أوروبا وآسيا وأفريقيا والأمريكتين.

«ألباتروس! ألباتروس!».

نعم.. كان هو نفسه. ولا شك أن مخترعه روبير كان على ظهره -روبير- الفاتح.

وكم كانت دهشة العم برودنت وفيل إيفانز عند رؤيتهما للألباتروس التي اعتقدا أنها دُمرت! والحقيقة أنها كانت قد دُمرت بفعل الانفجار، وسقط حطامها في المحيط الهادي ومعها مهندسها وملاحوها! ولكن، حدث أن انتشلتهم سفينة في الحال، وأوصلتهم إلى أستراليا، ومن هناك أسرعوا بالذهاب إلى جزيرة «إكس».

ولم يعد في نفس روبير سوى فكرة واحدة، وهي أن ينتقم. ولهذا صنع طائرة ثانية، قد تكون أكثر إتقانًا من الأولى حتى يكون انتقامه مؤكدًا. ولذا نما إلى علمه أن رئيس معهد ويلدون وسكرتيره، زميليه القديمين في الرحلة السابقة، كانا يستعدان لمواصلة تجارب المنطاد «جو أهيد» اتخذ طريقه إلى الولايات المتحدة، التي وصلها في اليوم والساعة المحددين.

فهل كان في نية ذلك الطائر الجارح الجبار أن ينقض على المنطاد «جو أهيد»؟ وهل كان روبير يبغي أن ينتقم، وأن يثبت في نفس الوقت على رؤوس الأشهاد تفوق الطائرة على المناطيد وغيرها من الأجهزة الأخف وزنًا من الهواء؟

وأدرك العم برودنت وفيل إيفانز، وهما في قفص المنطاد، الخطر الذي يهددهما، والمصير الذي ينتظرهما. وكان لا بد لهما من الفرار. ولكن لم يكن ذلك في حدود الإمكان إذا ما سار المنطاد في اتجاه أفقي فتلحق به الطائرة بسهولة؛ وإنما رُؤى أنه قد يمكن الفرار بالصعود إلى طبقات الجو العليا حيث قد تتاح للمنطاد فرصة الخلاص من عدوه الرهيب.

وارتفع «جو أهيد» إلى علو خمسة آلاف متر، فتتبعته ألباتروس في حركته الصاعدة. وإني لأذكر نص ما قالته الصحف في هذا الشأن، حيث كتبت: كانت ألباتروس تدور حول جوانب المنطاد، وتضيق الخناق عليه، وتحاصره في دوائر كان يصغر قطرها عند كل دورة. فهل كانت تعتزم يا تُرى إبادته بالانقضاض عليه وفقء غلافه الهش؟

تخلص المنطاد من بعض حمولته، ثم ارتفع في الجو ألف متر أخرى.. فتبعته ألباتروس إلى حيث ارتفع بعد أن أديرت مراوحها بأقصى سرعة لها.

وفجأة حدث انفجار. لقد تمزق غلاف البالون تحت ضغط الغاز الذي كان قد تمدد بدرجة كبيرة عند ذلك الارتفاع. وأخذ المنطاد يهبط سريعًا. وقد نقص حجمه إلى النصف.

وعندئذ، اتجهت ألباتروس مسرعة نحوه، لا للإجهاز عليه، وإنما لنجدته. نعم! فإن روبير، وقد نسي انتقامه، لحق بالمنطاد، فانتشل رجال العم برودنت وفيل إيفانز وقائد المنطاد، ثم نقلهم إلى ظهر الطائرة. وبعد أن أفرغ المنطاد كل ما بجعبته، سقط على أشجار حديقة «فيرمونت بارك» كتلة هائلة من الأنقاض.

وكانت الجماهير تلهث انفعالًا وذعرًا!

والآن، وقد أصبح رئيس معهد ويلدون وسكرتيره من جديد أسيري المهندس روبير، فماذا قد يحدث يا تُرى؟ هل كان في عزم روبير أن يجرهما معه في الفضاء دوامًا هذه المرة؟

وقضي الأمر سريعًا في هذه المسألة. فبعد أن بقيت الطائرة بضع دقائق محلقة على ارتفاع يتراوح بين خمسمائة وستمائة متر، بدأت تهبط كأنها تود أن تحط على تلك الأرض الفضاء التي توجد في حديقة فيرمونت. ولكن لو افترضنا أنها أصبحت على مقربة من ذلك الحشد، فهل يستطيع الجمهور المضطرب أن يتمالك أعصابه دون أن ينقض عليها؟ وهل يترك تلك الفرصة الذهبية تفلت منه، فرصة القبض على روبير الفاتح؟

واستمرت ألباتروس في الهبوط. ولما لم يبق بينها وبين الأرض سوى خمسة أو ستة أقدام توقفت، بينما استمر دوران مراوحها الذي يساعدها على البقاء معلقة.

وهاجت الجماهير التي أرادت اجتياح تلك الأرض الفضاء.

وعندئذٍ ارتفع صوت روبير مجلجلًا يقول:

«يا أهالي الولايات المتحدة، إن رئيس معهد ويلدون وسكرتيره قد أصبحا مرة أخرى في قبضة يدي، فإذا احتفظت بهما فإنني إنما أستعمل حقي في الأخذ بالثأر إلا أنني أدركت، من ذلك الأثر الذي تركه نجاح ألباتروس في نفوسكم، أن العقول ليست مستعدة بعد لإدراك الثورة الهامة التي سوف تتحقق في غزو الفضاء يومًا من الأيام! أيها العم برودنت، وأنت يا فيل إيفانز، هيا فأنتما أحرار».

وفي لحظة واحدة، قفز رئيس معهد ويلدون وسكرتيره ومعهما الطيار تندر، ثم صعدت الطائرة إلى ارتفاع ثلاثين قدمًا فوق سطح الأرض بعيدة عن كل منال.

واستطرد روبير قائلًا:

«يا أهل الولايات المتحدة، لقد قمت بتجربتي، ولكن كل شيء مرهون بأوانه... والوقت لم يحن بعد للتوفيق بين المصالح المتعارضة والمصالح المشتركة... سأرحل إذَنْ وسأحمل سري معي. ولن يضيع هذا السر على الإنسانية، فإنها ستحصل عليه في اليوم الذي تكون قد بلغت فيه درجة كافية من التعلم تعصمه من إساءة استعماله. لكم تحياتي يا أهل الولايات المتحدة!».

وبين هتافات الجمهور اختفت ألباتروس في اتجاه الشرق، بعد أن ارتفعت بها مراوحها ودفعتها رفاصاتها.

لقد كان لزامًا عليَّ أن أصف هذا المشهد الأخير بالتفصيل؛ لأنه يبين لنا الحالة النفسية لذلك الشخص الغريب. لم يكن يبدو أنه مدفوع بمشاعر معادية للإنسانية، بل كان مقتنعًا بالحفاظ على المستقبل. ولكن الحقيقة أن الجميع قد لمسوا في سلوكه ثقته في عبقريته ثقة لا تتزعزع، ثم ذلك الاعتزاز الذي كانت تبعثه في نفسه قوته التي تفوق قوة البشر.

ولم يكن من الغريب أن تستفحل فيه هذه المشاعر بمرور الزمن حتى يفكر في الهيمنة على العالم كله، كما بدا في رسالته الأخيرة، وفي تهديداته التي لم تكن تخلو من دلالة. فهل معنى ذلك أن كر الأيام والليالي كان قد زاد من اضطراباته العقلية، حتى أصبح من المحتمل أن تؤدي به إلى أسوأ العواقب؟

أما ما حدث منذ رحيل ألباتروس، فإن معلوماتي قد أتاحت لي أن أكوِّن فكرة عنه بسهولة. فهذا المخترع العجيب، لم يكفه صنع آلة طائرة، بلغت الغاية من الكمال والإتقان، ولكنه فكر أيضًا في بناء جهاز يستطيع الحركة على الأرض، وفوق سطح الماء وتحته، وفي الفضاء. وقد وصل في مصنعه بجزيرة «إكس» في أغلب الظن، وبمعونة مجموعة منتخبة من الصناع الذين يحافظون على سره، إلى بناء كل أجزاء الجهاز ذي الصور الثلاث، ثم دمر ألباتروس الثانية، وتم ذلك بلا شك في داخل «جريت أيري» التي لا يستطيع أحد اقتحامها. وهكذا ظهر جهاز «الرعب» في طرق الولايات، وفي البحار المجاورة، وعبر المناطق الجوية لأمريكا. وكلنا يعلم الظروف التي أفلت فيها «الرعب» بطريق الجو بعد أن طُورد عبثًا على سطح بحيرة إيريه، بينما كنت أنا أسيرًا على ظهره!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السَّابع عشر

باسم القانون

ماذا يمكن أن تكون نهاية هذه المغامرة التي اشتركت فيها؟ وهل كنت أستطيع أن أفعل شيئًا يساهم في حلها القريب أو البعيد؟ ألم يكن الأمر بين يدي روبير وحده؟ فقد لا تتاح لي أي فرصة للإفلات، كما أتيحت للعم برودنت وفيل إيفانز في جزيرة شاتام.. كان لا بد لي إذَنْ من أن أنتظر، ولكن إلى متى هذا الانتظار؟

وعلى أي حال، إذا كنت قد أشبعت فضولي جزئيًّا، فلم يكن ذلك إلا فيما يختص بسر «جريت أيري». فلما كنت قد نجحت آخر الأمر في زيارة ذلك المكان، فقد وقفت على سبب تلك الظواهر التي شوهدت في منطقة الجبال الزرق، وأصبحت على ثقة من أن الفلاحين في منطقة كارولين الشمالية، وسكان بليزانت جاردن ومورجانتون لم يكونوا مهددين مطلقًا بثورة بركان، أو بزلزال، وأنه لم تكن هناك أي قوة بركانية تعمل في باطن الأرض، ولم تكن هناك فوهة بركان في ذلك الجزء من جبال أليجانيس. لم تكن «جريت أيري» إلا مأوى لروبير قاهر الأجواء. فلا شك أن الصدفة وحدها هي التي أتاحت له اكتشاف هذا الوكر الذي لا يمكن عبوره والذي أودعه مهماته ومؤنه في أثناء إحدى رحلاته الجوية، ولعله وجد فيها ملجأً أكثر أمنًا له من جزيرة «إكس» بالمحيط الهادي.

نعم، ولكني إذا كنت قد اكتشفت هذا السر، فماذا كنت أعرف عن جهاز النقل العجيب هذا، عن الوسائل التي يعمل بها؟ وإذا سلمنا بأن آلاته المعقدة هذه تدور بالكهرباء، وأن هذه الكهرباء كانت تؤخذ، كما كانت الحال في ألباتروس، بوسائل حديثة من الهواء المحيط به، فكيف كان يا ترى تركيب هذه الآلات؟ لم يدعني أحد أعرف شيئًا عن هذا الأمر، وأعتقد أنه لن تترك لي فرصة تسمح لي برؤية شيء منه.

أما فيما يختص بحريتي، وما إذا كانت ستعود إليَّ في يوم من الأيام، فقد كنت أقول لنفسي:

«لا شك في أن روبير مصمم على أن يظل مجهولًا... أما ما كان يعتزم أن يفعله بجهازه، فإني، إذا ما تذكرت تهديداته، أخشى أن أقول إنه يجب أن نتوقع منه الشر أكثر من الخير. وعلى أي حال إنه لم يكن ليرغب مستقبلًا في الإبقاء على ذلك الغموض الذي احتفظ به في الماضي! إلا أنه كان هناك رجل واحد فقط في إمكانه أن يكشف الستار عن شخصية سيد العالم وروبير قاهر الأجواء. ولم يكن ذلك الرجل إلا أنا، أنا الذي أصبحت أسيره، أنا الذي أملك حق القبض عليه، أنا الذي خولت له السلطة أن يضع يده على كتفه باسم القانون!

ولكن هل كان يمكنني أن أتوقع أن تأتيني معونة من الخارج؟ كان هذا غير ممكن بالطبع؛ إذ إن السلطات لم تعد تجهل شيئًا مما حدث في خليج الصخرة السوداء. فلا بد أن يكون الشرطيان جون هارت وناب ووكر قد عادا إلى واشنطن مع ويلز. وأعتقد أن السيد وارد بعد -أن علم بمجريات الأمور- لم يكن يستطيع التكهن بمصيري، وأصبح الأمر بالنسبة له لا يعدو أحد شيئين: إما أن أكون قد غرقت في مياه بحيرة إيريه عندما غادر جهاز الرعب الخليج وهو يجرني في نهاية حبله، وإما أن أكون قد رفعت إلى ظهر الرعب وأصبحت أسيرًا في يد ربانه.

وفي الحالة الأولى، لم يكن أمامه إلا أن يقيم الحداد على جون ستروك المفتش العام لشرطة واشنطن. وفي الحالة الثانية، لم يكن في وسعه أن يأمل في رؤية المفتش من جديد!

إننا نعلم أنه في أثناء البقية الباقية من الليل والنهار التالي، كان الرعب قد أبحر على سطح بحيرة إيريه، وأنه قد طاردته مدمرتان بالقرب من مدينة بافالو حوالي ساعة، وانتهت المطاردة بأن أفلت منهما، تارة بسبقه إياهما في السرعة، وتارة بغطسه في الماء. ولما كانت المطاردة بين شواطئ نهر نياجرا، فإنهما اضطرتا إلى التوقف؛ إذ كان تيار الماء يهددهما بالانجراف نحو المساقط. ولعله لم يخطر ببال بحارة المدمرتين عندما بزغ النهار شيء سوى أن جهاز الرعب قد غاص في أعماق هاوية الشلال! ومن جهة أخرى، لما كان الوقت ليلًا، فقد كان كل شيء يحمل على الاعتقاد بأن أحدًا لم يشاهد الطائرة، لا عند مبارحتها مساقط «هورس شو فول»، ولا أثناء رحلتها الجوية إلى «جريت أيري».

أما فيما يتعلق بشخصي فهل كان من الحكمة أن أحزم أمري على استجواب روبير؟ وهل يوافق هو على التظاهر بسماعي؟ ألم يكن كافيًا بالنسبة له أن يصرح لي باسمه، ذلك الاسم الذي كان فيه -كما يعتقد- الجواب على كل سؤال؟

وانقضى النهار دون أن يطرأ على الموقف أي تغيير. وكان روبير ورجاله مشغولين تمامًا في شؤون الجهاز الذي كانت آلاته تتطلب إصلاحات مختلفة. واستنتجت من ذلك أنه لن يلبث أن يرحل، وأنني سأشترك في الرحلة. والواقع أنه كان من الممكن تركي في أغوار ذلك الميدان، الذي كان من المستحيل عليَّ أن أخرج منه، والذي كان من المحتمل أن أعيش فيه أيامًا طويلة.

ومما لاحظته بنوع خاص تلك الحالة المعنوية لروبير، فقد بدا لي أنه استبد به انفعال دائم. فماذا كان عساه يفكر بعقله الذي كان يغلي دون توقف؟ وما هي المشروعات التي كان يضعها للمستقبل؟ وإلى أي منطقة كان ينوي الذهاب؟ هل كان يريد أن يحقق تلك التهديدات التي أوردها في رسالته -ولا شك أنها تهديدات مجنون؟

وفي الليلة التي أعقبت ذلك النهار الأول، نمت على فراش من الأعشاب الجافة في إحدى مغارات «جريت أيري»، وكانت قد وضع بها بعض الأغذية تحت تصرفي.

واستمرت الأعمال خلال اليومين الثاني والثالث من أغسطس. وكان روبير ورجاله منهمكين في عملهم إلى درجة كبيرة، حتى إنهم كانوا قلما يتبادلون الحديث. واشتغلوا كذلك بتجديد المؤن، ربما كان ذلك من أجل غيبة طويلة. ومن يدري؟ فربما كان الرعب يريد أن يقدم على اجتياز مساحات شاسعة، وذلك في حالة ما إذا كان قائده قد عزم على أن يعود إلى جزيرة «إكس» في عرض المحيط الهادي؟ إني كنت أراه أحيانًا يتجول في أنحاء الميدان مفكرًا، ثم يقف ويرفع أحد ذراعيه نحو السماء، في وجه الإله الذي كان روبير يدعي مشاركته في سيادة العالم! ألم يكن من المحتمل أن يؤدي به غروره الشديد إلى الجنون، جنون لم يكن رفاقه، الذين لا يقلون عنه هوسًا، ليستطيعوا أن يكبحوه؟ ألن يجد نفسه مساقًا إلى القيام بمغامرات لا يمكن للعقل أن يصدقها! أفلا يظن نفسه أقوى من عناصر الطبيعة التي تحداها قبلًا بجرأة شديدة في وقت لم يكن يمتلك فيه سوى طائرة؟ والآن، ألا تمنحه الأرض والماء والهواء ميادين فسيحة لا نهاية لها، لا يستطيع أحد أن يطارده فيها؟

كان لا بد لي إذنْ أن أخشى كثيرًا من المستقبل، وأن أتوقع منه أسوأ الكوارث. لقد كان من المستحيل عليَّ أن أفلت من «جريت أيري» قبل أن أُحمل في رحلة جديدة. وكيف كنت أستطيع الفرار حين يكون جهاز «الرعب» طائرًا أو مبحرًا، اللهم إلا إذا سار في الطرقات بسرعة معقولة! وكان هذا أملًا واهيًا كما ترى!

يعلم القارئ أني حاولت منذ وصولي إلى «جريت أيري» أن أحصل على جواب من روبير عن مصيري، وكان ذلك بلا طائل. وفي ذلك اليوم قمت بمسعى جديد، ففي ساعة العصر كنت أغدو وأروح أمام المغارة الرئيسة بالميدان، وكان روبير يتابعني بنظرة ثابتة وهو واقف عند مدخل المغارة. فهل كان يريد محادثتي؟

واقتربت منه قائلًا:

«أيها الرئيس، سبق لي أن ألقيت عليك سؤالًا لم تشأ أن ترد عليه... وأنا الآن أجدد توجيهه إليك. ماذا تريد أن تفعل بي؟».

كان كل منا يواجه الآخر على بعد خطوتين، وكان هو ينظر إليَّ وهو مكتوف الذراعين، وارتعت لنظرته، نعم ارتعت! إذ لم تكن نظرة رجل في كامل قواه العقلية. وإنما كانت تبدو كما لو لم تكن نظرة إنسان!

وأعدت سؤالي بلهجة أقوى، وظننت أن روبير سيخرج من صمته.

قلت له:

«ماذا تريد أن تفعل بي... هل ستعيد إليَّ حريتي؟!».

ومن الواضح أن روبير كان فريسة لوسواس تملكه. فقد أتى بتلك الحركة التي سبق لي أن لاحظتها حين كان يعبر الميدان، إذ رفع ذراعه ثانية نحو السماء! وكان يبدو أن قوة لا تُقاوم تجذبه نحو المناطق العليا من السماء، وكأنه لم يعد من أهل الأرض، وأنه قدر عليه أن يعيش في الفضاء، ضيفًا أبديًّا على طبقات الجو!

ودون أن يجيب عن سؤالي، ودون أن يبدو عليه أنه قد سمعني، عاد روبير فورًا إلى داخل المغارة حيث لحق به تيرنر.

وتساءلت كم من الوقت ستطول إقامة «الرعب»، أو بالأحرى توقفه في «جريت أيري»؟ لقد كنت أجهل ذلك. إلا أنني لاحظت أنه في عصر ذلك اليوم الثالث من أغسطس انتهت أعمال الإصلاح والتجهيز وامتلأت مخازن الجهاز بالمؤنة التي كانت مخزونة داخل تلك الأسوار. وعندئذٍ أحضر تيرنر ورفيقه إلى وسط الميدان كل ما تبقى من الأدوات والمهمات من صناديق فارغة وأنقاض للهياكل الخشبية، وقطع من الخشب يحتمل أن تكون من بقايا ألباتروس القديمة التي ضحى بها لصنع تلك الآلة الجديدة للمواصلات، وفرشت تحت هذه الأكوام طبقة كثيفة من الأعشاب الجافة؛ فجال بخاطري أن روبير يستعد لمغادرة هذا المأوى بلا رجعة.

الحقيقة أن روبير لم يكن يجهل أن الرأي العام قد تنبه إلى «جريت أيري» وأنه كانت قد قامت محاولة لاقتحامها.

ألم يكن يخشى إذَنْ أن تستأنف المحاولة من يوم إلى آخر بنجاح أكثر من ذي قبل، وينتهي الأمر بغزو مخبئه؟ ثم ألم يكن يود أن يعجز أي إنسان عن العثور على أي دليل يكشف عن إقامته فيها؟

وكانت الشمس قد اختفت خلف مرتفعات الجبال الزرق، ولم تعد أشعتها الحمراء تكسو سوى قمة «بلاك دوم» التي ترتفع في الشمال الشرقي. فكان من المحتمل أن يكون «الرعب» منتظرًا مجيء الليل ليستأنف طيرانه. ولم يكن أحد غيري يعلم أنه يستطيع التحول من سيارة أو من سفينة إلى طائرة، إذ لم يشاهده أحد حتى ذلك اليوم وهو يعبر الفضاء. فهل كان «سيد العالم» لا يعتزم الظهور للملأ، في صورته الرابعة هذه، إلا في اليوم الذي يشاء فيه أن يحقق تهديداته الجنونية؟

وفي نحو الساعة التاسعة أحاط بالمكان ظلام دامس، فلم يكن يظهر أي كوكب في السماء التي ظللتها سحب كثيفة ساقتها رياح آتية من الشرق. ولم يكن ليتاح لأحد أن يرى «الرعب» فوق الأقاليم الأمريكية، أو فوق البحار المتاخمة لها.

وفي تلك اللحظة اقترب تيرنر من كومة الأخشاب المقامة وسط الميدان، وأشعل النار في طبقة الأعشاب.

والتهبت الكومة كلها في لحظة واحدة. وفي وسط دخان كثيف، صعدت ألسنة اللهب إلى ارتفاع تجاوز جدران «جريت أيري». ولا بد أن يكون سكَّان «مورجانتون» و«بليزانت جاردن» قد اعتقدوا مرة أخرى أن فوهة البركان قد فُتحت من جديد، وأن هذا اللهب ينبئ بثورة قريبة!

وأخذت أنظر إلى هذا الحريق، وأسمع الطقطقة التي كانت تمزق الهواء. وكان روبير، هو الآخر، ينظر إلى النار من فوق ظهر «الرعب»، بينما أخذ تيرنر ورفيقه يعيدان إلى الكومة المشتعلة كل الأنقاض التي كانت شدة النار قد قُذفت بها على الأرض.

ثم أخذ اللهب يخفت شيئًا فشيئًا، حتى لم يبق منه سوى جمر مطفأ تحت رماد كثيف. وعاد السكون يعم المكان وسط ذلك الليل المظلم.

وشعرت فجأة بشخص يقبض على ذراعي. ولم يكن ذلك الشخص إلا تيرنر يسحبني نحو الجهاز. لم تكن هناك جدوى من المقاومة، فضلًا عن أنه كان من الأفضل لي أن أطيع بدلًا من أن أُترك وحيدًا، لا حول ولا قوة لي في ذلك الميدان!

وما إن وضعت قدمي على ظهر الطائرة، حتى صعد إليها تيرنر ورفيقه الذي أخذ مكانه في المقدمة، ودخل تيرنر حجرة الآلات، وقد أُضيئت بتلك المصابيح الكهربية التي لا ينفذ نورها أبدًا إلى الخارج.

أما روبير، فقد وقف في المؤخرة أمام المنظم، حتى يعمل على ضبط السرعة والاتجاه.

وأما أنا، فقد أُكرهت على أن أقبع داخل مقصورتي التي أغلق غطاؤها عليَّ. وكما لم يسمح لي بملاحظة تحركات الجهاز عندما غادرت شلالات نياجرا، فقد حدث نفس الشيء في هذه الليلة.

ولكن إذا لم أكن قد استطعت رؤية شيء مما كان يحدث على ظهر الطائرة، فقد أمكنني أن أسمع بوضوح ضجيج الآلات، كما أحسست بالجهاز وهو يرتفع ببطء ويفقد كل اتصال له بالأرض. وتمايل الجهاز بعض الشيء، ثم دارت المراوح السفلى بسرعة هائلة، بينما أخذت الأجنحة الكبيرة تضرب الهواء بنظام تام.

وهكذا غادر جهاز «الرعب» «جريت أيري»، بلا رجعة على ما بدا لي. وكما يقال عن السفينة إنها تمخر عباب البحر، فقد أخذ «الرعب» يمخر عباب الهواء. كانت الطائرة تحلق فوق سلسلة جبال أليجانيس المزدوجة، وكان من المحتمل أنها لن تبرح المناطق المرتفعة إلا بعد أن تجتاز الأعراف الجبلية القائمة في ذلك الجزء من الإقليم.

ولكن ما هو الاتجاه الذي كانت تتبعه؟ هل كانت ستجتاز في طيرانها سهول كارولين الشمالية متجهة نحو المحيط الأطلسي؟ أم هل كانت على العكس من ذلك، ستنطلق نحو الغرب لتجتاز المحيط الهادي؟ أو نحو الجنوب لتصل إلى نواحي الخليج المكسيكي؟ وكيف كان لي أن أستطيع، إذا ما أقبل النهار، أن أتعرف على البحر الذي تطير فوقه إذا أحاطت بها السماء والبحر من جميع الجهات؟

وانقضت عدة ساعات، وكم كانت ساعات طويلة! لم أحاول مطلقًا أن أنام لأقتل الوقت. وراودني عدد من الأفكار أغلبها غير مترابط. وشعرت بنفسي أسبح في عالم الأوهام، كما كنت أسبح عبر الفضاء على متن وحش من وحوش الهواء! ولا أدري إلى أين كان ينطلق بي بتلك السرعة الكبيرة، في هذا الليل الذي لا ينتهي! وتذكرت تلك الرحلة العجيبة، التي قامت بها «ألباتروس»، والتي نشر معهد «ويلدون» قصتها كما وردت في مذكرات العم برودنت وفيل إيفانز! فإن هذا الذي فعله «روبير قاهر الأجواء» بسفينته الجوية، كان في وسعه أن يفعله بطائرته الجديدة وفي ظروف أيسر، إذ هو الآن سيد الأرض والبحر والهواء على السواء!

وأخيرًا أضاءت أولى أشعة النهار مقصورتي. ولكن هل كنت على وشك أن يسمح لي بالخروج منها، لأتخذ مكاني على ظهر الباخرة، كما تيسر لي ذلك ونحن فوق بحيرة إيريه!

ودفعت الغطاء، فانفتح.

ونصبت قامتي حتى منتصفها. لقد كان جهاز «الرعب» محاطًا بأفق ينطبق على البحر، فقد كان يطير فوق أحد المحيطات على ارتفاع قدرته بين ألف وألف ومائتي قدم.

ولم ألمح روبير، فقد كان منهمكًا في غرفة الآلات.

وكان تيرنر أمام الدفة؛ وزميله في المقدمة.

وما إن صعدت إلى ظهر الطائرة، حتى رأيت ما لم أكن قد استطعت رؤيته أثناء تلك الرحلة الليلية بين مساقط «نياجرا» و«جريت أيري». لقد رأيت حركة تلك الأجنحة القوية التي كانت ترفرف على اليمين وعلى اليسار، بينما كانت المراوح تدور في الهواء تحت الطائرة.

واستنتجت من مركز الشمس التي كانت تعلو الأفق ببضع درجات أننا كنا ماضين في اتجاه الجنوب. ومعنى هذا أنه، إذا لم يكن الاتجاه قد عُدِّلَ منذ أن اجتاز «الرعب» أسوار «جريت أيري»، كان الخليج المكسيكي هو الذي يمتد تحت أقدامنا.

وكانت هناك سحب كثيفة غبراء آتية من جهة الغرب، وتبشر بقدوم يوم حار. ولم تفت روبير هذه الظواهر التي كانت تنبئ بعواصف وشيكة، ففي حوالي الساعة

الثامنة صعد إلى سطح الطائرة، وحل محل تيرنر. ولعله في ذلك الحين كان قد تذكر ذلك الإعصار الذي كادت تهلك فيه ألباتروس، وتلك الزوبعة العاتية التي لم يخرج منها إلا بمعجزة في أجواء القطب الجنوبي!

ولكن هذا الجهاز كان يمكنه في الواقع أن يفعل ما لا تستطيع أن تفعله سفينة جوية في مثل هذه الحالة، فقد كان في مقدوره أن يغادر المناطق الجوية المرتفعة التي تتصارع فيها عناصر الطبيعة، وينزل حتى سطح البحر. وإذا تدافعت أمواج البحر بقوة شديدة، استطاع هو أن يجد السكينة في أعماق الماء الهادئة.

ومن جهة أخرى لعل روبير، الذي كان من صفاته أنه خبير بالأجواء، قد عرف، من بعض الدلائل أن العاصفة لن تهب في ذلك اليوم، فاستمر في طيرانه. ولم يحن وقت العصر حتى نزل بالطائرة يمخر بها عباب البحر، ولكن لم يكن ذلك خوفًا من اضطراب الأحوال الجوية، فقد كان جهاز «الرعب» طائرًا بحريًّا يستطيع الاستقرار فوق الأمواج، مع فارق واحد بينه وبين تلك الطيور، ذلك أن التعب لم يكن ينال من أعضائه المعدنية التي تحركها الكهرباء التي لم يكن ينضب لها معين.

هذا وقد كانت تلك المساحة الشاسعة من الماء مهجورة تمامًا. فلم يكن يُرى فوقها شراع، أو خيط من دخان يعلو الأفق. لم يكن هناك إذَنْ من يستطيع رؤية الطائرة وهي تخترق طبقات الهواء.

لم يقع أي حادث في عصر ذلك اليوم. وكان جهاز الرعب يسير بسرعة متوسطة، ولكني لم أستطع أن أتكهن بنوايا قائده. فإنه إذا استمر في اتجاهه هذا، لم يكن له بدٌّ من أن يمر بإحدى جزر «أنتيلا الكبرى»، ثم ساحل فنزويلا، وساحل كولومبيا عند نهاية الخليج. ولكن هل كان يعتزم أن يأخذ طريق الجو في الليلة القادمة، فيعبر ذلك المضيق الطويل عند جواتيمالا ونيكاراجوا ليصل إلى جزيرة «إكس» في أرجاء المحيط الهادي.

ولما أقبل المساء، غربت الشمس في أفق ملتهب في حمرة الدم، وكان البحر يتوهج حول جهاز «الرعب» الذي بدا كما لو كان يثير في مروره سحابة من الشرر. وكان من المتوقع حتمًا أن يحدث هناك انقلاب جوي رديء.

ولعل روبير رأى إذ ذاك ألا أبقى على ظهر السفينة، فأُعدت إلى مقصورتي، ثم أغلق غطاؤها فوق رأسي.

ومضت بضع لحظات، ثم أدركت من الصوت الصادر من ظهر السفينة أنها على أهبة الغوص في الماء. وهذا ما كان، فما كادت تمضي خمس دقائق حتى كانت تغوص هادئة في أعماق البحر.

ولما كنت قد أصبت بالإعياء، بسبب التعب وانشغال البال، رحت في سبات عميق. وقد نمت هذه المرة نومًا طبيعيًّا، دون ما حاجة إلى عقار منوم.

وصحوت، بعد ساعات لم أستطع أن أقدر عددها، ولم يكن جهاز «الرعب» قد صعد ثانية إلى سطح البحر.

وما لبثت هذه المناورة أن انتهت، فنفذ ضوء النهار من خلال الطاقات بينما أخذت السفينة تضطرب وتتمايل على الجانبين، وإلى الأمام، وإلى الخلف بفعل أمواج البحر القوية.

واستطعت أن آتخذ لي مكانًا بالقرب من طاقة مقصورتي، وسارعت إلى النظر نحو الأفق.

كانت هناك عاصفة آتية من الشمال الغربي تسوق أمامها سحبًا ثقيلة، أخذت تتناوب ومضات شديدة من البرق، سبقها هدير العاصفة الذي ردده صدى الفضاء.

ودهشت، بل أُصبت بما هو أشد من الدهشة: لقد انتابني الخوف والفزع من تلك السرعة التي تقدمت بها العاصفة، حتى وصلت إلى كبد السماء. لقد كان من العسير على أي سفينة أن تجد أمامها من الوقت ما يكفي لطي أشرعتها تجنبًا للعاصفة، بسبب السرعة الخاطفة والعنف الشديد اللذين اتسم بهما هجومها.

وعلى حين غرة قصفت الريح بشدة لم يسبق لها مثيل، وكأنها قد هتكت ذلك الحجاب الكثيف من السحب المحملة ببخار الماء. وفي لمح البصر كان البحر قد هاج هياجًا مخيفًا، وتدفقت الأمواج الثائرة فغطت سطح جهاز الرعب. ولو لم أكن قد تعلقت بكل قوتي بحاجزه لسقطت من فوق ظهر السفينة.

ولم يكن هناك سوى قرار واحد يمكن اتخاذه، وهو تحويل الجهاز إلى غواصة، فربما وجد الأمان والهدوء تحت سطح الماء ببضع عشرات من الأقدام؛ إذ إن التمادي في تحدي ثورة هذا البحر الثائر كان معناه الهلاك...

كان روبير يقف على السطح. وكنت أتوقع صدور الأمر إليَّ بالعودة إلى مقصورتي، ولكن ذلك لم يحدث، كما لم أر أحدًا يقوم بأي استعداد للغوص بالسفينة.

وأخذت الربان ينظر في وجه العاصفة بثبات، وعينه تتقد أكثر من أي وقت مضى، وكأنه كان يتحداها؛ لثقته أنه ليس هناك ما يخشاه منها. ومع ذلك فقد كان الأمر يقتضي أن يغوص «الرعب» في الحال دون أن تضيع دقيقة واحدة. ولكن لم يكن يبدو على روبير أنه قد اعتزم تنفيذ ذلك.

كلا! فقد استمر في موقفه المتعالي، موقف رجل يظن نفسه –وهو في نزوة من غروره الشديد- أنه فوق البشر، أو أنه ليس من البشر! وعندئذٍ تساءلت، وقد استبد بي الكثير من الذعر، عما إذا لم يكن هذا الإنسان مخلوقًا خياليًّا أفلت من عالم ما وراء الطبيعة!

وفي هذه اللحظة أفلتت من فمه هذه الكلمات التي راحت ترن بين أزيز العاصفة، وهدير الصواعق!

«أنا... روبير... روبير... سيد العالم!».

ثم أصدر إشارة فهم مدلولها تيرنر ورفيقه... لقد كانت أمرًا لم يتردد في تنفيذه هذان الشقيان، اللذان لم يكونا أقل جنونًا من رئيسهما.

ارتفعت الطائرة بعد أن بسطت جناحيها، كما ارتفعت من قبل فوق مساقط نياجرا. إلا أنه في المرة الأولى كان قد جنبها دوامات الشلال، أما في هذه المرة فقد ساقها طيرانها العاتي إلى دوامات العاصفة.

وانسابت الطائرة بين الآلاف من أشعة البرق، ووسط أصوات الرعد المخيفة، في قلب سماء متوهجة. وأخذت تتقلب بين عناصر الطبيعة الثائرة العاتية، معرضة لانقضاض الصاعقة عليها في أي لحظة!

لم يغير روبير شيئًا من موقفه، بل أمسك بالدفة في يد، وبمقبض منظم السرعة في اليد الأخرى. وبينما كانت الأجنحة تضرب الهواء بأقصى ما لديها من قوة، أخذ هو يدفع بالطائرة إلى قلب العاصفة حيث كانت السحب تتبادل تفريغ الشحنات الكهربية بعنف بالغ الشدة.

لقد كان من الواجب أن أنقض على ذلك المجنون لمنعه من دفع الجهاز وسط هذا السعير الجوي! وكان من الواجب أن يُجبر على النزول والسعي تحت المياه وراء الأمن والطمأنينة، اللذين لم يعد لهما وجود فوق سطح البحر، ولا في مناطق الجو العليا! فتحت الماء كان في مقدوره الانتظار بكل أمان، حتى ينتهي ذلك الصراع المخيف بين عناصر الطبيعة!

وعندئذٍ شعرت بكل غرائزي، وبكل حماسي لأداء الواجب! نعم، فقد كان هذا جنونًا مطبقًا. وكيف لا أقبض على هذا المجرم الذي اعتبرته بلادي خارجًا على القانون، والذي يهدد العالم كله باختراعه الرهيب؟ كيف لا آخذ بعنقه وأسلمه إلى العدالة؟ ألست «ستروك» المفتش العام للشرطة؟ ونسيت الموقف على حقيقته، نسيت أني كنت وحدي ضد ثلاثة رجال فوق المحيط الثائر، فقفزت إلى المؤخرة، وصحت بصوت غطى على هدير العاصفة، وأنا أنقض على روبير:

- «باسم القانون، إني...».

وفجأة، اهتز جهاز الرعب كما لو كان قد صعقه تيار كهربي عنيف، وارتعد كل هيكله كما يرتعد هيكل الإنسان إذا ما أُفرغت فيه شحنة كهربية. لقد أصيب في وسطه، فتفككت جميع أوصاله.

أصابت الصواعق جهاز «الرعب» بضربات متتابعة، فكسرت جناحيه، ودمرت عجلاته؛ وهكذا سقط من ارتفاع يتجاوز الألف قدم، وغاص في أعماق الخليج!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن عشر

الكلمة الأخيرة للخادمة العجوز جرَاد

وما إن عدت إلى صوابي، بعد ساعات لم أعرف عددها، حتى كانت جماعة من البحارة، الذين أعادوا إليَّ الحياة بفضل ما بذلوه نحوي من عناية، يحيطون بالمقصورة التي وضعت فيها.

ووقف أحد الضباط بالقرب مني يستجوبني. ولما بدأت أستعيد ذاكراتي، استطعت أن أجيب عن أسئلته.

وقلت كل شيء، نعم!.. كل شيء. ولا بد أن أولئك الذين سمعوني قد اعتقدوا أن أمامهم رجلًا تعسًا، لم يسترد عقله، وإن كان قد استرد حياته.

لقد كنت حينئذٍ على ظهر الباخرة «أوتاوا»، التي كانت تمخر في ذلك الحين عباب الخليج المكسيكي، قاصدة «نيو أورليانز»، وبينما كانت تفر أمام العاصفة، عثر بحارتها على الحطام الذي كنت متعلقًا به، فانتشلوني من البحر، وحملوني إلى ظهر الباخرة.

وهكذا نجوت. ولكن «روبير قاهر الأجواء» وزميليه قد لاقوا حتفهم في مياه الخليج، فوضعوا بذلك حدًّا لحياة المغامرات التي كانوا يحيونها. وعلى هذا النحو اختفى «سيد العالم» إلى الأبد محرقًا بالصواعق التي تجرأ على تحديها في قلب الفضاء، فذهب حاملًا معه سر جهازه العجيب، ذلك السر الذي رافقه إلى عالم الفناء.

وبعد خمسة أيام، وصلت «أوتاوا» إلى شواطئ ولاية «لويزيان». وفي صباح اليوم العاشر من أغسطس رست داخل الميناء.

وبعد أن استأذنت من ضباط الباخرة، ركبت قطارًا مسافرًا إلى واشنطن، بلدتي التي قد قطعت الأمل مرارًا في العودة إليها!

وتوجهت أول ما توجهت إلى إدارة الأمن العام، إذا عزمت على أن يكون أول شخص أزوره هو السيد وارد.

وكم كانت دهشة رئيسي شديدة، وذهوله وفرحته كبيرين عندما فتح باب مكتبه أمامي! أو لم يكن لديه من الأسباب ما يحمله على الاعتقاد بأنني قد هلكت في مياه بحيرة إيريه كما ورد في تقرير رفاقي!

وهناك أطلعته على كل ما حدث منذ اختفائي -أطلعته على مطاردة المدمرتين فوق سطح البحيرة، وعلى طيران جهاز «الرعب» فوق مساقط نياجرا، ثم على توقفه داخل «جريت أيري»، وأخيرًا على الكارثة التي حلت به أثناء هبوب العاصفة فوق خليج المكسيك. فعرف أن الجهاز الذي خلقته عبقرية روبير كان يستطيع الانتقال عبر الفضاء كما كان ينتقل على الأرض وعلى الماء.

إذَنْ ألم يكن الاستحواذ على مثل هذا الجهاز يبرر لذلك العبقري أن يطلق على نفسه لقب سيد العالم كما فعل؟ هذا ما لا شك فيه. ولكن مما لا شك فيه أيضًا أن الأمن العام كان تحت تهديده الدائم؛ إذ كانت تنقصه وسائل الدفاع!

إلا أن الغرور، الذي لاحظت أنه كان ينمو شيئًا فشيئًا في نفس ذلك الرجل العجيب، قد دفعه إلى أن يدخل خلال أجواز الفضاء في صراع ضد أشد عناصر الطبيعة قوة

وجبروتًا. ولقد كانت معجزة حقة أن رأيتني أخرج سليمًا من هذه الكارثة المفزعة.

لم يصدق السيد وارد قصتي إلا بصعوبة.

وقال لي:

- وأخيرًا يا عزيزي ستروك ها أنت ذا قد عدت إلينا، وهذا هو المهم! وبعد أن كان روبير المشهور رجل الساعة، أصبحت أنت الآن ذلك الرجل! وإني آمل ألَّا يكون في هذا ما يدعوك للغرور، فتفقد صوابك كما حدث لذلك المخترع المجنون..

فأجبته:

- كلا يا سيد وارد. ولكنك توافقني على أنه لم يحدث لإنسان دائم التلهف على إشباع فضوله أن وقع في مثل تجربتي.

- أوافقك على ذلك يا ستروك! ولقد اكتشفت حقًّا أسرار «جريت أيري»، وتحولات جهاز «الرعب» إلى أشكاله المختلفة! ولكن لسوء الحظ ماتت أسرار سيد العالم هذا بموته!

وفي ذلك المساء نشرت صحف الاتحاد قصة مغامراتي التي لم يشك أحد في حقيقتها، وأصبحت، كما قال السيد وارد، رجل الساعة.

قالت إحدى هذه الصحف:

«إن أمريكا تحتفظ بقصة السبق في أعمال الشرطة بفضل المفتش ستروك، فبينما يعمل رجال الشرطة في البلاد الأخرى، مع شيء من النجاح، على الأرض وعلى البحر، تعقب رجال شرطة أمريكا أثر المجرمين في أعماق البحيرات، والمحيطات، ثم عبر الفضاء...».

وهل كان دوري فيما قصصته من حوادث غير الدور الذي ربما يقوم به زملاء المستقبل في نهاية هذا القرن؟

وإنه لمن السهل أن نتخيل كيف استقبلتني خادمتي العجوز عندما عدت إلى منزلي بشارع «لونج ستريت»! فما كدت أظهر أمامها، حتى خيل إليَّ أن هذه المرأة الطيبة توشك أن تموت من شدة الفزع. كنت كأنني شبح بدا لها! إلا أنها بعد أن سمعت قصتي وعيناها مملوءتان بالدموع، شكرت الله على نجاتي من كل هذه المخاطر!

وقالت لي:

- خبرني إذَنْ يا سيدي... خبرني... هل كنت مخطئة؟

- مخطئة؟ وفيمَ يا عزيزتي جراد؟

- في ادعائي أن «جريت أيري» كانت مأوى للشيطان؟

- ولكن روبير هذا لم يكن شيطانًا.

فأجابت جراد العجوز قائلة:

- حسن... إنه كان يستحق أن يكون كذلك!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

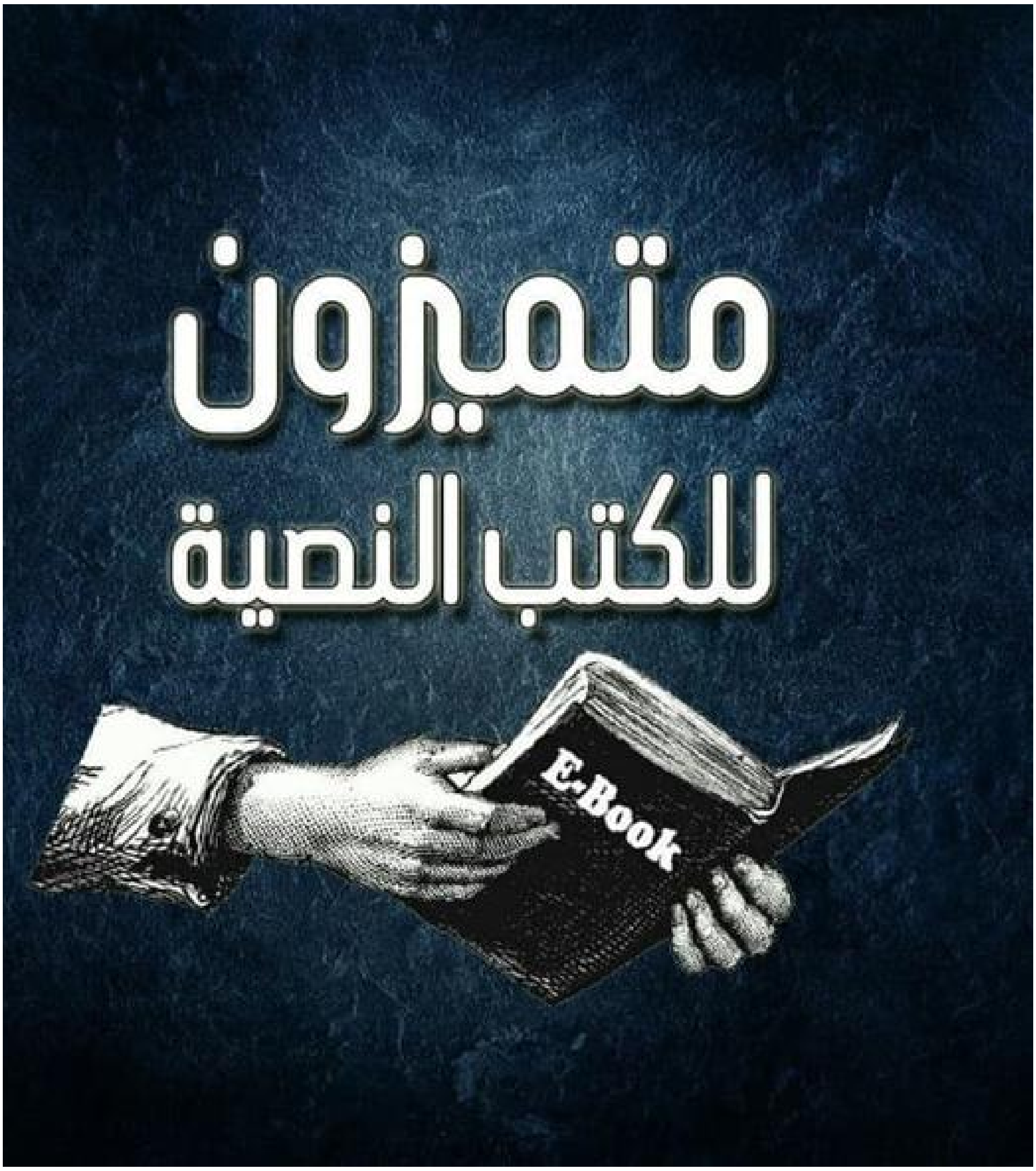
متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

عن الرواية..
المؤلف..
الفصل الأول
أحداث في الإقليم
الفصل الثَّاني
في «مورجانتون»
الفصل الثَّالث
«جريت أيري»
الفصل الرَّابع
سباق لنادي السيارات
الفصل الخامس
ما شُوهد على شواطئ «نيو إنجلند»
الفصل السَّادس
الرِّسَالة الأولى
الفصل السَّابع
ومن ثلاثة
الفصل الثَّامن
بأي ثمن كان
الفصل التَّاسع
الرسالة الثَّانية
الفصل العاشر
الخارج على القانون
الفصل الحادي عَشر
الحملة
الفصل الثَّانِي عشر
مضيق الصخرة السَّوَداء
الفصل الثَّالث عشر
على ظهر «الرُّعب»
الفصل الرَّابع عشر

نيَاجيرا

الفصل الخامس عشر

وكر النسر

الفصل السَّادس عَشر

روبير الفَاتح

الفصل السَّابع عشر

باسم القانون

الفصل الثَّامن عشر

الكلمة الأخيرة للخادمة العجوز جيرَاد